مكتبة بيت الحضريات
maktabbah.blogspot.com

الفصل الأول

٢٠٢١

"نهيب بالسادة المواطنين أنه في حالة رؤيتهم لشخص في منزلهم بالمواصفات المذكورة، الرجاء... تجاهله تمامًا".

(١)

تسمَّرت في مكانها وتخشَّبت يدها الممسكة بالريموت في الهواء بعد أن اخترقت هذه الكلمات أذنيها. رفعت خُصلة من شعرها البُنِّيّ القصير تدلَّت أمام عينها لتعوق نظرها، وحدَّقت في ضيف البرنامج الحواري الذي طل القلق من وجهه بأعتى صوره. لم يستغرق الأمر أكثر من ثانية حتى تم قطع الصوت عنه بعد تصريحه الصادم وانتقل الإرسال إلى الإعلانات. حاولت أن تستوعب ما سمعته من دون جدوى، ثم نظرت حولها في توجُّس. تسللت عيناها لا إراديًا إلى ذلك الركن بجانب الستارة والذي أصبح شديد الظلام مؤخرًا، كأنه كهف عميق.

انتفضت حين سمعت نداء طفلتها تطلب منها أن تخفض صوت التليفزيون لتفيق من حالتها تلك وتغلقه. ذهبت لتطمئنَّ أن ابنتها دخلت في سريرها، ووقفت على عتبة غرفتها تتأمل الكتلة المختبئة تحت الأغطية في سلام قبل أن تبتسم وتتجه إلى دولاب الملابس.

في طريقها لمحت صورة مرحة للطفلة في الغرفة نفسها بصحبة رجل وامرأة بالمنامات. أخذت الصورة ببرود ووضعتها في أحد الأدراج ثم أغلقته. أخرجت الموبايل وسلطت ضوءه على الدولاب لتبحث عن يونيفورم المدرسة الخاص بابنتها.

لكنها ما إن فعلت حتى قطَّبت حاجبيها ومدت يدها بحذرٍ لتمسك بقطعة مُعلقة على إحدى الشماعات. أخرجتها من الدولاب وتأملتها

لوهلة. تعجبت في نفسها وهزت رأسها في حيرة فهي لا تعرف هذا القميص، ولا هذا الفستان. لمن هذه الملابس كلها؟.

خرجت من الغرفة لتقف أسفل مصباح الصالة ثم رفعت القميص لتفحصه مرة أخيرة، لكن الضوء كان ضعيفًا للغاية. نظرت إلى المصباح المعلق ولوت شفتيها ممتعضةً من إضاءته الباهتة من دون سبب. التفتت لتبحث عن مكان أكثر إضاءةً لكنها لم تجد، الشقة كلها إضاءتها خافتة بصورة مستفزة. خصوصًا الركن إياه. حدَّقت فيه لوهلة. كيف لا يصل الضوء إليه؟ كأن الظلام هناك...

لم تعرف كيف تصفه فهزت رأسها بعدم فهم قبل أن تتوجه إلى غرفة النوم الرئيسة. هناك وجدت زوجها يتأمل كورنيش الإسكندرية الصاخب مستندًا على إفريز النافذة وهو يدخن سيجارة في الظلام.

- حبيبي، هو القميص العجيب ده بتاعك؟.. الهدوم اللي في دولاب البنت اتغيرت تاني.

لم يبدُ عليه أنه سمعها والسبب كان واضحًا لها؛ فقد تناهى إلى مسامعها أصوات متباينة وخليط مزعج من سرينتي الشرطة والإسعاف مع آلات تنبيه السيارات. تقدمت لتقف خلفه وتمد عنقها حتى تطلَّ من النافذة قائلة:

- لسَّه الدنيا مقلوبة؟

أخذ نَفَسًا عميقًا وأخرجه بحُرقةٍ دون أن يعلق، وهو يهزُّ رأسه غير مصدق ما يحدث. لم تلحَّ في السؤال لكونها تعلم أن إجابته بديهية، فالبلد في حالة استنفار غير مفهوم منذ عدة أشهر. وهي بالأخص تعرف الأسباب جيدًا. والأمس تصاعدت موجة الأحداث المُؤرِّقة في كل المحافظات ومعها حالة التوتر العام. أما اليوم فيبدو أنه أصعب مما سبقه.

استدارت لتضع القميص على السرير لكنها تسمَّرت مكانها.

أين السرير؟

دارت بعينيها في الغرفة حتى وجدته إلى يسار الباب.

هل نَسِيَت مكان سريرها أم بدله زوجها؟

لا بُدَّ أن ما يحدث حولها قد بدأ يؤثر على تركيزها. نفضت الموضوع من ذهنها وربَّتت على كتفه فاستقام في وقفته والتفت إليها ببطء. تركته وخرجت من الغرفة المظلمة للصالة.

- آه، وشوف حل في موضوع النور ده، خلاص هنتعمِي.

وفي اللحظة التي خرجت فيها للصالة وانعطفت يسارًا حتى توقفت بغتة.

أين باب المطبخ؟ هل نسيت مكانه هو الآخر؟

هذا ليس هو، إنه باب الشقة. ما الذي يحدث لها؟ لكن... لماذا هو مفتوحٌ على مصراعيه؟

استدارت لتسأل زوجها:

- هو أنت سِبت باب الشقة مفتوح؟

رغم أنه كان ينظر إليها إلا أنه لم يُجِبها. تركته وذهبت لتغلق باب الشقة بينما انحنى هو ليلتقط شيئًا من الأرض. التفتت كي تكرر سؤالها لكنها تسمَّرت بجوار غرفة ابنتها التي لم يستطع ضوء مصباح الصالة الضعيف التغلب على ظَلمتها.

هناك من يتكلم بالداخل.

تقدمت ببطء لتجد ابنتها جالسة على حافة السرير. لكنها لم تكُنْ وحدها.

نادت زوجها بهمس، كان خارجا من غرفته وبيده حزام جلدي غليظ. اطمأنت لوجوده معها قبل أن تدخل حجرة ابنتها بحذر. اقتربت من

السرير في شجاعة وحاولت أن تناديها لكن صوتها لم يخرج. في اللحظة التي اعتادت عيناها الظلام فقدت السيطرة تمامًا على أطرافها، وهي تحدق في هذا الكيان البشري الجالس مع ابنتها على السرير.

- أن... أنتي مين؟

سألت بصوت مرتعش ومدت يدها في محاولةٍ خرقاء للوصول لزِرّ النور، الذي لم تجده لأنه لم يكن في مكانه بالطبع.

ببطءٍ مثيرٍ حرك الكيان البشري رأسه إليها حتى التقت أعينهم. في اللحظة نفسها دخل الزوج الغرفة وصرخت الطفلة مفزوعةً وهي تشير إليها:

- مين دي يا بابا؟ مين دي؟

احتضنت المرأة التي كانت جالسةً على السرير الطفلة وانقضّ الأب من الخلف على ذات الشعر البُنّي القصير ليكبّلها بالحزام الغليظ. في اللحظة نفسها ظهرت امرأة ثلاثينيّة ذات شعر أسود ناعم ووجه مثلث ملتاع على باب الغرفة، وهي تصيح:

- سلمَى!! بتعملي إيه هنا يا سلمى؟

* * *

بعد أقل من نصف ساعة كان الأب يراقب المرأتين تدخلان الشقة المقابلة وكله حنق وشكّ. ثم قال وهو يغلق باب بيته ببطء:

- الموضوع زاد عن حدّه يا ليلى هانم. لو لقيت مدام سلمَى عندنا تاني هبلّغ البوليس.

احتضنت ليلى شقيقة زوجها، التي استسلمت لها تمامًا، ودلفت معها إلى الشقة. أجلستها على أحد كراسيّ الصالة وذهبت لتأتي لها بفنجان قهوة، ثم جلست القرفصاء أمامها ونادتها:

- سلمى.

- هه؟

أجابتها كأنها استيقظت لتوّها من حُلم قبل أن تبدأ في الالتفات حولها في ذعر:

- إيهاب فين؟ إيهاب فين يا ليلى؟ سابني ليه؟

حبست ليلى دموعها وربّتت على ساق شقيقة زوجها، وهي تقول بصوت خنقته العبرات:

- كنتي بتعملي إيه في شقة الجيران يا سلمَى؟

- هه؟

مرة أخرى جاءت إجابة سلمى تائهة.

- جيران؟ أنا كنت... دي شقتي أنا... مع بنتي... بنت إيهاب.

لم تتحكم ليلى في دموعها فانتفضت واقفةً وابتعدت حتى لا تنهار أمام سلمى. دخلت غرفتها وانسلّت في السرير بجوار الطفل النائم، ثم تركت دموعها تبلل الغطاء بلا توقف. سمعت همسًا. التفتت إلى الرجل الثلاثيني ذي الشعر البُني الناعم والوجه المثلث الطويل غير الحليق، الذي كان جالسًا يتأمل البحر في شرود.

- يوسف... أختك حالتها بتسوء يا يوسف.

أمسك يوسف كتفه وقطب حاجبيه متألمًا دون أن يجيبها، بل ظل يهمس لنفسه، كأنه يعاتبها احتضنت ليلى ابنها بقوة وأغلقت عينيها فهي تعلم أن زوجها في عالَمٍ آخر، يصارع شياطينه كما تفعل شقيقته تمامًا ومن دون أن تدري وجدت نفسها تتمتم:

- أنتي فين؟ سيبتينا وروحتي فين؟

بترت عبارتها حين سمعت في الصالة مَن تقول بنبرة فلّاحي قوية،

نبرة تعرفها جيدًا وكانت أجمل ما سمعته في حياتها:

- سلامو عليكوا.

هبَّت من السرير وانتفض معها قلبها بكل قوته حين رأت ذات الشعر الفضي القصير التي تقف عند باب الشقة. أمسكت المرأة الخمسينيَّة عصاها ودقت بها مرتين على أرضية المدخل. عندها، ومن دون مقدمات، التفت يوسف إليها ورفَعَت سلمى عينيها عن الأرض وقد عادا إلى عالمنا.

- جوموا يا ولاد أخوي، الوَجت إجه.

*****

(٢)

في جراج بعمارة على النيل...

وضع الرجل السبعينيُّ محنيُّ الظهر ضئيل الحجم ذو الملامح الحادة يده على مِقوَد سيارته العتيقة وتحسس ملمسه باشتياق. لم يعُد القبطان أنور يقوم بتلك الزيارات لجراج عمارته مؤخرًا بعد أن صار مجرد النزول إليه مغامرة مخيفة. أدار رأسه لينظر إلى الجراج الذي لم يبقَ فيه إلا سيارته الألمانية موديل التسعينيَّات، بعد أن هجر جميع السكان شققهم لتخلو العمارة عليه هو وزوجته. حكَّ ذقنه النابتة ثم شعره الأشعث مفكرًا، وهو يتفادى النظر إلى الشريط الأصفر الذي يحيط ببقعة بعينها، بقعة مظلمة بها آثار دماء جافة.

اقشعرَّ بدنه حين تذكر تلك الليلة المشئومة منذ شهور قليلة، وتراءى إلى ذهنه مشهد الجثة التي عُثر عليها مُهشَّمة الرأس في هذا الركن.

بدأ القلق يتسرب إليه بعد تلك الذكرى البغيضة. يكفي هذا. أطفأ المحرك وتحسس المقود مرة أخيرة قبل أن ينزل من السيارة ويسرع ليغادر الجراج. عند السلم مد عنقه لينظر من المنوَر فينقبض صدره مرةً

أخرى حين صدمه السواد الحالك بالأعلى. لكنه هز رأسه مستسلمًا وبدأ الصعود. وقف في الطابق الأول، حيث شقته، يتأمل الشريط الأصفر الممدود بين الحائط وإفريز السلم. يعلم أن الشرطة قد وضعت هذا الشريط لتمنع الصعود إلى الأدوار العليا لكنه لم يمنعه من التفكير في سكانهم.

ابتلع ريقه وتقدم لينظر من منور السلم. هذا طابق إيهاب الدَّماطي، الضابط الذي، رغم تخلّي أبيه عنه في طفولته، سار في خُطاه بالضبط. تذكر ما جاء مع إيهاب من قسم الشرطة، ذلك الشيء الذي كان على هيئة قَزَم مخيف، كان يظهر لسلمى زوجته، ويوسوس في أذنها ليجعلها تنقِم على عدم قدرتها على الإنجاب حتى أحال حياتهما جحيمًا. يذكر ذلك القزَم جيدًا لأنه هو من أطلق عليه الرَّصاص لينقذ إيهاب وزوجته في اللحظة الأخيرة. يعلم جيدًا أن ذلك الشيء الرهيب الذي كان متصوّرًا في هيئة القَزَم لم يمُت لكنه كشـفه قبل أن يتمكن من التسلّل إلى النفوس وإفساد القلوب

فوق طابق إيهاب طابقٌ أكثر ظلامًا منه حيث توجد شقة يوسف القَطّان شقيق سلمى كان أنور يشعر -رغم روح يوسف المرحة ومزاحه الثقيل واستفزازه الدائم له- أن في باطنه حالة من عدم الرضا والضياع. كما شعر تجاه زوجته ليلى، التي اختفت معه في نفس ليلة اختفاء أسرة

إيهاب، أنها مصابة بمسٍّ ما هي الأخرى. حتى جاريتها اعتماد، كانت شخصية غريبة، وقد أصرَّت ليلى على وجودها رغم اعتراض الجميع، فقد كان كل من يقابلها يراها بهيئة مختلفة.

اقشعرَّ بدنه حين بلغ تلك النقطة وتحسس الشريط الأصفر في حذر. في حقيقة الأمر لم يساعده هذا الشريط على النسيان. فالمجهول، المستور عن الأعين، لهو أكثر إثارةً للرعب من ذلك الذي كشف عن نفسه، وتلك المرأة الحديدية التي كانت تعيش على السطح لهي

التجسيد الحي للغموض. توحيدة القَطّان لم تكن تخشى الضيف، توحيدة القَطّان كانت تعلم أشياء لا ندركها.

أما هارون حارسها الصامت المريب، فقد كان أكثر إثارةً للرهبة من كل ما سبق. وقد أدرك أنور الآن ما الذي كان هارون يحرس عائلة القطان منه، ذلك الكيان القديم قِدَم الدهر الذي عرف طريقه إلى عالمنا منذ ثمانية وعشرين عامًا.

لقد تمنى أن ينتهي هذا الكابوس برحيل عائلة القَطّان لكنها كانت بداية مرحلة جديدة من الذعر، ذعر عاصَره بكل حواسّه في كل ساعة وكل ليلة وجثم فوق القاهرة كلها كالسحابة السوداء التي ظهرت في الغرب منذ ثلاثة أيام ولم تتحرك .

ابتلع ريقه وتماسك بصعوبة بينما أخذ عقله يصور له أتباع الضيف وهم يتجولون بحريّة في الطوابق العليا كأنهم قد تملّكوا تلك الشقق، وأصبحوا يعيشون عيشة أصحابها يشعر بهم يتحركون ليلَ نهار، يسمعهم يدندنون بتلك الأغنية التي ستصيبه باكتئاب مزمن وفوبيا من الأغاني القديمة في يومٍ ما.

أغنية "القمح الليلة".

حفل مخيف لا يعلم به أحد، مصدر أبشع كوابيسه الذي...

بُترت كل أفكاره دُفعة واحدة... ما هذا الصوت؟

حبس أنفاسه وأنصت بتركيز. هناك صوت على السُلّم.

تراجع خطوةً للوراء وتحسس الباب خلفه استعدادًا لدخول الشقة.

الصوت... كأنه... رفرفة.

اللعنة، إن الباب لا يزال مغلقًا.

صوت الرفرفة يرتفع، في طريقه نزولًا. إنه يقترب منه، أيًا ما كان.

بحثت أصابعه المرتعشة بين مفاتيحه على مفتاح الشقة وتقهقر ليتحسس مكان القفل، لكن صوت الرفرفة كان قد بلغ ما بين طابقه والطابق الذي يعلوه. هنا توقف عن الحِرَاك وتجمَّد جسده تمامًا، وهو يحدق بأنفاس مبهورة في الفراغ المظلم الذي احتلَّ السلم في الجهة المقابلة من شقته. جحظت عيناه ودق قلبه بمنتهى العنف وهو ينتظر أن يخرج له مصدر الرفرفة. حتى رأى ذلك الظل.

لا ليس ظِلًا كاملًا، بل ظلّ لساقين فقط، للنصف السُفلِي لشخص ما... شخص تحرك لجزءٍ من الثانية قبل أن يذوب في الظلام. تلفَّت حوله مذعورًا باحثًا عن مصدر الخيال لكنه انتفض حين سمع صوت خرفشة وراءه من داخل شقته، تلاه صيحة أنثوية تنادي عليه بصوت رفيع كسرينة الإنذار.

"يا أنوااار!!"...

استدار ليفتح الباب بسرعة وولج شقته صارخًا:

- في إيه؟ في إيه يا سوسن؟ هتموّتيني ناقص عمر يا دكتورة!

استقبله وجهٌ لحيمٌ وعويناتٌ ضخمة لامرأة ستينيَّة ممتلئة، في يدها إبرة تطريز وعلى يمينها كيس بلاستيكي مليء بالخيوط والأقمشة. لا بُدَّ أنه مصدر الخرفشة.

- بتعمل إيه برة الشقة يا أنور؟

أغلق القبطان أنور الباب وراءه ببطءٍ وهو يحدّق في الركن المظلم الذي ذاب فيه الظل.

دقائق طويلة أمضاها في عتابٍ صارخٍ مع زوجته ضعيفة السمع، لكن في النهاية تصالحا كعادتهما. قبَّل رأسها وتركها مشغولةً في التطريز ثم ذهب إلى الشرفة، مكانه المفضل. لكن ما إن فعل حتى جاءه صوتُ زوجته من الصالة مرةً أخرى ثاقبًا نافذًا عابرًا لحاجز الصوت:

- يا أنواااار. برضه هتقعد نفس قاعدتك دي؟

دَلك طبلتَي أذنيه في عصبية وزفر بنفادِ صبرٍ قبل أن يلتقط قطعتَي قطنٍ ويسد بهما فتحتَي أذنه. أمسك بعدها الكرَّاس والقلم ومد بصره إلى البر الثاني من النيل.

فمن هناك تطلّ عليهم الكراهية.

نظر إلى مفتاح الإنارة في الشرفة مترددًا قبل أن يمد يده ويضغط عليه، بينما ظلت عيناه تبحثان عن شيءٍ ما في البَرّ الثاني. التقطت عيناه الضوء الذي بدأ يسطع من الناحية الأخرى، من الجزيرة المظلمة، كأنه يردُّ على مصباح شرفته حين ينيره، وينطفئ حين يطفئه. ثم بدأ يدوّن ملاحظاته، كما كان يفعل طيلة الشهور الماضية. فهو قد توصل إلى معنى تلك الأنوار التي ظلت تومض في البر الثاني من النيل والشوارع العريضة؛ حتى أصابت شعب مصر بأكمله بالهلع.

لقد توصّل إلى ما يريد الضيف أن يُخبرنا به.

*****

(٣)

تساقطت قطرات المطر فوق سقف السيارة التي كانت تنهب الطريق الزراعي نهبًا. هجمت على النوافذ كأنها ضربات أرواح غاضبة في إيقاعٍ رتيبٍ خالقٍ للصمت. لو أضفنا إليه صوت مسّاحات الزجاج الأمامي والرياح التي تعتصر السيارة من كل جانب، لأصبح لدينا سيمفونية غضب لا يعلو فوق صوتها شيء..

إلا صراخ أفكارهم.

هذا الغضب الذي تشعر به حولها، لا يُضاهي ما يموج بداخلها. عقدت سلمى ساعديها أمام صدرها ونظرت من النافذة إلى يمينها، لتحدق في السُحب التي تكتّلت فوق غرب الجيزة، حيث يتجهون. يتأرجح شعرها

البُني القصير وهي تهزّ رأسها لا شعوريًا كأنها ترفض ما تفكر فيه، ترفض وجهتها وما ينتظرها هناك. ترفض الاختيار الذي فُرِض عليها، دورها الذي لا تعلمه حتى هذه اللحظة.

من شابه أباه فما ظلم. لقد تركها زوجها وحدها، كما ترك أبوه عائلته منذ ثمانية وعشرين وعامًا. وهو ما كانت تتوقع حدوثه يومًا ما. وسواءً أكان بسبب عدم قدرتها على الإنجاب أم سعيًا وراء أثر أبيه، فالنهاية واحدة. سلمى القَطّان طيلة عمرها تنتظر شيئًا لا يأتي.

أسندت رأسها على الزجاج وسألت نفسها في صمت:

"ما الذي أفعله هنا؟ ما غايتي في الحياة؟ أن أحيا وأموت بلا هدف؟".

كادت أن تصرخ، لكنها كعادتها، لم تفعل.

إيهاب يسري الدَّماطِي، مهما كان سبب رحيلك فاعلم أني لن أسامحك. لن أسامح أحدًا قط.

ببطء حوَّلت عينيها عن المشهد المُقبِض الذي زيَّن السماء إلى مَن تجلس بجوارها. ابتسمت في وهنٍ إلى زوجة أخيها، التي كانت تنظر إليها، وتهم بقول شيء، لكنها لا تنطق به:

"لقد ظلمتُك كثيرًا يا ليلى، لقد ظلمناكِ جميعًا".

وكأنها شعرت بها، ربَّتت ليلى على ساقها وبادلت ابتسامتها بواحدةٍ دافئةٍ، ظهرت معها غمازتاها على وجهها قلبيّ الشكل ثم في تزامنٍ عجيب، التفتتا إلى من يجلس عن يسار ليلى، بجوار النافذة الأخرى هناك استكان يوسف في صمت، لا يعبأ بالعاصفة ولا الأمطار ولا السُحُب ولا بمن يرمقانه الآن بكل قلق كان اهتمامه منصبا على الطفل ذو الأعوام الستة الذي يغطُ في نومٍ عميقٍ على ساقَي أمه.

أي إرث سأتركه لك من بعدي يا حسن؟، هكذا حدَّث ابنه دون أن ينطق بها أو حتى ينظر إليه.

لو سألتني عن أصولك، بماذا أجيبك؟

كيف سيكون شعورك لو علمتَ أن كل هذا، هذا الكابوس الذي جثم فوق الدنيا، نحن من جاء به؟ نعم نحن، منذ اللحظة التي ضربَ فيها جدُّك بالتقاليد والقواعد غُرض الحائط وتحدَّى الضيف، فجعله يعثر علينا. لقد أخفقنا يا حسن. وبعد أن كان دورنا حراسة بَرّ الضيف والبشرية كلها ممن يسكن البر الآخر، كنا نحن من دعاه. بعد أن كان تائهًا في عالمه المظلم لعصورٍ لا يمكن حصرها، أرشده جدُّك إلينا.

هل سيكون شعورك، لو علمت كل هذا، مثل ما أشعر؟

فقد أصبح التائه هو أنا. الموصوم هو أنا. المبتور جذوره هو أنا. وهذا هو كل ما سترِثه مني. أصبحت لا أثق بأحد، لا أثق حتى بنفسي، فنحن ضعاف وهو يعلم هذا. لا أدري إن كان هناك مخرَج من هذه المحنة أم أن هذه هي النهاية، وأن اللحظة التي سينتصر فيها الضيف قد باتت قريبة للغاية. قريبة لدرجة أننا نتجه الآن إلى المكان الوحيد الذي مُنِعنا من مجرد ذكر اسمه: "بَرّ الضَّيف".

وكما ترى، من حيث بدأ الكابوس، يعود .

ابتسم يوسف ساخرًا حين بلغ هذه النقطة، من كان يصدق أن يومًا مثل هذا سيأتي .

تبادلت سلمَى مع ليلى نظرةً قلقةً قبل أن تنظرا أمامهما، إلى مَن تجلس بجوار السائق، إلى تلك الخمسينيَّة ذات الشعر الفِضيِّ القصير والوجه المصري الجميل دافئ الملامح. يداها ثابتتان على عصاها الخشبية، عيناها لا تحيدان عن الطريق ولا يرمش لها جفن.

لا تحتاج توحيدة أن تلتفت إليهم لتسمع أنينهم لا تملك ما تواسيهم به لأنهم لن يفهموا، فهناك أوراق لم تُكشف بعد تدرك جيدًا أن الشرَّ قد طال وامتد إلى ما هو أبعد من عائلتها فهناك من يجلس الآن منكمشًا في الركن الوحيد المُضاء في بيته يراقب بعيونٍ مذعورةٍ هذا الغريب

الذي يتجول بحُريَّة من غرفةٍ لأخرى. تعلم أن الظلام قد ازداد في الأركان والردهات حتى كادت الحياة أن تصبح جُزُرًا منعزلة عن بعضها. تعلم أن هذا الذعر لم يعُد يترك أحدًا حتى لو اختبأ خلف أبوابٍ محصنة.

وعلى الرغم من هذا فإن عتمة الليل، الجزء الأكثر ظلامًا، لا يزال أمامهم. تدرك توحيدة القُطّان هذا وتدرك أنهم يسابقون الزمن، فالعاصفة لم تصل لذروتها بعد.

لن تنظر وراءها، فهي تعلم أنهم يتعقبونهم، تلك الأشياء التي لا تستطيع تحديد هيئتها، أشياء لو رآها مَن يجلسون معها لانقلبت مشاعرهم إلى ذعر. وذلك الضوء الذي يسطع من البَرّ الثاني من النيل كلما مرت على بقعة مظلمة أسفل شجرة أو بين أنقاض أو في بيوت مهجورة. إنهم يتبعونهم ويراقبونهم من بعيد.

ضيّقت عينيها وحدّقت بقوةٍ في الطريق أمامها، إلى جهة الغرب حيث يتجهون. هناك احتشدت السحب فوق بقعة بعينها، فوق بر الضيف. حركت رأسها لليسار قليلًا بما يكفي لترى يد السائق التي كادت أن تبتلع مقود السيارة من ضخامتها، رفيق رحلتها الغامض الذي لا يُعرف عنه شيئًا.

أبطأت السيارة عند المنحنى حتى توقفت ودَقّت توحيدة بعصاها مرتين على أرضيتها. ثم لجزءٍ من الثانية، تحركت شفتاها بشبحِ ابتسامةٍ وهي تتابع الحمَام الذي ترك أغصان الأشجار العملاقة، لينكشف من بين جذوعها الغليظة مدقٌّ قديم.

الضعف ليس خطيئة، أما استسلامك له فهو أكبر إهانة. ولو كانت المعركة الأخيرة ستحدث في بر الضيف، فسوف تجعلها توحيدة القُطّان تستحق أن تصدي أصواتها إلى الأبد.

*****

(٤)

ثلاثة أيام قضاها الرائد ثروت في بَرّ الضيف بعد عودة توحيدة وأبناء أخيها، ثلاثة أيام رأى فيها ما قد يجعل شعر رأسه يشيب، لولا أن شعره هذا قد تخلى عنه منذ زمن والآن هو في القاهرة، يقف أمام العمارة حيث تسكن والدته. أخذ نَفَسًا عميقًا اكفهرّ معه وجهه الدائري الأحمر، ثم قام بفك أزرار ياقة القميص التي تخنق عنقه الغليظ قبل أن يلتفت ليدخل من الباب المعدني المزدوج. زيارة سريعة يطمئنُّ فيها على أمّه قبل أن يذهب للمهمة المخيفة التي وكّلته بها توحيدة القَطّان. لا بُدَّ أن يُطَهّر نفسه قبلها، فهو لن يخرج منها حيًا لو كان به ذرّة ندم أو شعور بالخطيئة.

يؤنبه ضميره كثيرًا، هل كانت تكفي زيارته الشهرية لأمه؟ لقد تركها وحدها، ترك عائلته الوحيدة، وذهب ليصبح جزءًا من حكاية عائلة أخرى، حكاية عرف لثوْه أن جذورها تمتد إلى أعمق مما يمكن لأحد أن يتخيّل. لكنه مؤمن تمامًا أن عودة عائلة القَطّان لبر الضيف، بداية الطريق للخلاص، وأن مَهمّته التي جاء من أجلها هي جزءٌ مُهمٌّ من خطة توحيدة المستحيلة.

لم تستمرَّ أفكاره طويلا فقد تملكه إحساس قوي وهو يصعد السلم، شعور بصحبةِ ما، وانقبض صدره. ... إنه هنا.

لا، ليس فقط في هذه العمارة، بل في كُلّ عمارةٍ في مصر.

أعوامٌ طويلةٌ قضاها ثروت على حافة عالم الضيف، بالقرب من تلك القرية الحزينة على أطراف محافظة الجيزة، حتى بات يشعر بوجوده ويقرأ الأدلة التي يتركها لهم بمنتهى الدقة.. يتركها لهم عن عَمد. تلك الأركان شديدة الظلام والكآبة الثقيلة التي يكاد ظهره ينوء بحملها. وهذا الشعور القاتل أنه يراقبه، ينتظر اللحظة التي سيصبح فيها جزءًا منه.

صوت أنفاسه تكاد تطغى على صوت أقدامه وهي تخطو فوق

الدرجات القديمة. أغمض عينيه وتمتم ببعض الأدعية وهو يرتقي السلم ضعيف الإضاءة، رغم المصابيح، كأن النور والوضوح قد بدأ يتخلّى تدريجيًا عن عالمنا. حتى وصل إلى شقة والدته.

هنا تسارعت نبضات قلبه وهو يُحدّق في الخدوش السوداء التي ظهرت بوضوح أمامها. أصابه الهلع وخفق قلبه بقوة وهو يحاول أن يدسّ مفتاحه في القفل، حتى فتحت له عجوز ستينيّة ضئيلة الحجم.

***

عند باب الشقة وقف ثروت يرتشف من فنجان القهوة، وهو يتأمل الخدوش السوداء التي توقفت عند عتبة الباب بالضبط ولم تمتدَّ داخل الشقة. أخذ يفكر في الاحتمالات المختلفة لكنه توصل في النهاية إلى أن الضيف، لسببٍ ما، لم ينجح في الدخول. ابتسم في ارتياح ودخل الشقة متجها إلى الشرفة ليكمل فنجانه.

هناك فوجئ بزوج من الحمام يربض على السور، فتوقف عند باب الشرفة ليتأملهما. لحظة طويلة تبادل فيها النظرات مع الطائرين الصامتين قبل أن يخفقا بجناحيهما ويطيرا بعيدًا. يعلم ثروت جيدًا إلى أين سيذهبان، إلى من سينقلان الأخبار.

أطرق مفكرًا لوهلةٍ قبل أن يستعيد ابتسامته ويذهب ليجلس في مكانه المعتاد على الكرسي البلاستيكي. يأنس لوجود تلك الطيور، لكن سرعان ما ذابت ابتسامته وهو يجول بعينيه في تفاصيل المدينة القلقة التي تتراقص أمامه. يشعر أن الدنيا كلها قد صار لونها باهتًا وإيقاعها رتيبًا، كأن البشر قد خرجوا من دورة الحياة وصاروا عائلةً واحدةً من الزُّومبي.

وأصبح كل شيء بلا طعم.

إلا في بيت أمه. ففي اللحظة التي دخل من باب الشقة اختفت تلك الكآبة وتلاشى ذلك الشعور بالضياع تمامًا.

ظهرت خلفه وفي يدها صينية عليها بعض الكعك تحملها بصعوبة مع مشيتها غير المتزنة. وضعتها على الطاولة الخشبية قبل أن تُربّت على ساقه وتجلس بجواره. سامحيني يا أمي، قالها في ذهنه وابتسم في حنان. تركها تتحدث وظل يراقبها باستمتاع وهي تنتقل من موضوعٍ غير شيق إلى آخر من دون أن يجرؤ على مقاطعتها، فمن تجلس أمامه هي الوحيدة التي يشعر معها بالأمان.

وهذا البيت، نظر خلفها ليتأمل كل ركن فيه. تُرى ما السرُ الذي يجعله يشعر بهذه الراحة النفسية في هذه الشقة البسيطة ؟

حتى الطعام له مذاق مختلف، كأن المُكوّنات نفسها ظلت محتفظة بجودتها التي تعوّد عليها في صِغَره. أما البَرَكة فحدّث ولا حرج، فالميزانية الهزيلة التي تنفقها أمه على احتياجات البيت لا تكاد تكفي عصفورًا بمقاييس هذا الزمن. نظر إلى القهوة، ففي أي مكانٍ آخر لا تكفيه ثلاثَ ملاعق من السكر على قهوته، أما هنا فملعقة واحدة تكفيه.

ما سرُك يا أمي؟ لماذا فشل الضيف في اقتحام حياتك؟

زفر بحُرقةٍ فتسأله أمه عمّا ينوء به صدره، هذا الذي جعل وجهه مُصفرًا كأن النوم قد توقف عن زيارته تمتم لها بعبارات مُطَمئِنة ثم طلب منها ألّا تقلق ابتسم لها فى حنان قبل أن ينهض ويقبّل رأسها ثم يغادر.

ترك ثروت أمه وترك معها شعوره بالقلق عليها من دون أن يعرف لهذا سببًا.

لكنه لو تسلل عائدًا إليها وربض ساكنًا في أحد الأركان...

لو أغمض عينيه وترك نفسه يلتحم مع الموجودات...

وأنصت...

لسمع دقًا خافتًا، أصواتَ طبولٍ بعيدة.

ولتمايَل رأسه مع ذلك الإيقاع الذي يُذكّره براقصي التنُّورة.

هناك وجود آخر في بيت أمه، وجود هادئ مُطَمئِن. لهذا لم يعُد ثروت يشعر بالقلق على أمه.

بل على كلّ شيءٍ عداها.

والمكان الذي يجب أن يذهب إليه هو الأخطر على الإطلاق.

*****

(٥)

خرج السؤال من مدير الأمن الذي كان يجلس على رأس المائدة الطويلة يتصفّح أحد الملفات العديدة المتراكمة فوقها:

- يعني عيلة القَطّان كانوا طول الوقت ده في إسكندرية؟

هز لواء قمحي اللون ذو وجه مثلث دقيق الملامح رأسه موافقًا، ووضع ساقًا فوق الأخرى ليظهر طوله الفارع حتى وهو جالس، ثم أجاب:

- ودلوقتي هُمّ في بَرّ الضيف. أنا قلت لسيادتك إنهم هيرجعوا.

- وتوحيدة القَطّان، كانت فين؟ الست دي بتختفي بتروح فين يا راشد؟

- مَحدّش عنده فكرة، ولا حتى ولاد أخوها عارفين لو سيادتك تتذكّر هي اختفت تلات أيام وقت بدء الأحداث من ست أشهر وبرضه مَحدّش يعرف كانت فين.

أطرق مدير الأمن للحظة مفكرًا قبل أن يستطرد:

- والنقيب سعيد حالته إيه دلوقتي؟

- زيُه زيَ سميّة الدهشوري ودكتور شريف عبد الباقي والعشرات اللي في عنبر "د" في مستشفى الشرطة. بعد الضيف ما بيفرض سيطرته على التصرفات والسلوك تبدأ حالة جمود غريبة وتزيد مع الوقت، لغاية ما يتحولوا حرفيًا إلى جثث عايشة. السرطانات تضرب في كل حتة

في جسمهم زيّ ما يكون في حاجة سحبت الإرادة منهم جسمانيًا ونفسيًا.

رجع مدير الأمن ليستند بظهره على كرسيه، ونظر من النافذة للسماء التي أحالتها الغيوم لِلَوحةٍ كئيبة، ثم التفت إليهم:

- حد فاهم إحنا بنواجه إيه؟ حد فاهم الضيف ده إيه وعايز إيه بالظبط؟

جال ببصره في وجوهٍ تفادت النظر إليه ثم أردف:

- بقالنا قد إيه في المشكلة دي؟ الحاجات اللي ملهاش تفسير وبتحصل في البيوت والشوارع كترت والبلاغات كل مدى بتزداد بشاعة وعنف. التعتيم اللي كنا عاملينه كان جايب نتيجة لغاية الصحفي اللي طلعلنا في التليفزيون من كام يوم وفضح كل حاجة. إحنا لازم نتخلص من الكارثة دي قبل ما تكبَر عن كده وتطربق على دماغنا كلنا.

بعنف أمسك بالملف السميك مرة أخرى وبدأ يقرأ بصوتٍ عالٍ:

- أدي ملف القضية، أغرب مجموعة أحداث شفتها في حياتي:

• تلاتة هجّامين ظهروا على حدود القاهرة في حالة جمود أقرب للشلل الكلي. يقوم إيهاب بيه (متهكمًا) مأمور القسم، اللي هو في نفس الوقت أحد أطراف المشكلة، يتحفّظ عليهم ويصرّ إنه يحلّ اللغز لوحده. وده علشان البيه يثبت إنه أحسن من أبوه، أبوه اللي تعامل مع نفس المشكلة من تمانية وعشرين سنة.

بس طبعًا زيّ ما هو واضح لينا كلنا إن اللي عمله يسري الدَّمَاطي مجبش النتيجة اللي عايزنها. مجرد هدنة بينّا وبين الشيء اللي اتحبس في أرض القَطّان، هدنة انتهت بكل بساطة لمّا واحد من الوَرَثة فتح الأرض. وفي النهاية إيهاب اختفى زيّ أبوه وفي نفس المكان. بيروحوا فين يا راشد؟ إحنا فتّشنا أرض القَطّان بالأقمار الصناعية وأحدث أجهزة التتبُّع ومفيش ليهم أثر. فيه حاجة بتبلعهم ولّا بيطيروا في

الهوا؟

لم ينتظر إجابة، بل أخرج ورقةً أخرى من الملف واستطرد:

- اسمعوا البلاغات اللي عمّالة بتيجيلنا من كل حتّة في مصر:

• خدوش سودة بتظهر تحت عتب أبواب البيوت زي ما يكون فيه حاجة بتحفر علشان تدخل.

• أشخاص معينة كل واحد بيشوفهم بطريقة مختلفة.

• خيالات غريبة بتمشي على العمارات.

• أدوار ضلمة بتظهر وتبلع اللي يطلع فيها.

• حيوان شبه الكلب بيظهر في الشوارع الفاضية وكلاب الشوارع نفسها بتخاف منه.

• صوت رفرفة طيور من غير مصدر في الغُرَف الضَّلْمة هتجيب للناس سكتات قلبية

• علاقات أسرية بتنهار وناس بيتشقلب حالها زيَ سُميَّة الدهشوري ودكتور شريف عبد الباقي

رفع عينيه ليرى وَقْع كلامه على جلسائه ثم استطرد:

- أكمّل ولّا خلاص؟؟ وفي النهاية، اختفت العيلة اللي جابتلنا الكابوس ده لشهور علشان تظهر من تلات أيام في القرية الي طلع منها. كل ده وإحنا قاعدين بنتفرج ولا فاهمين حاجة ولا عارفين نعمل حاجة لحَدّ ما بقى عندنا دور كامل في مستشفى الشرطة مليان ناس منعرفش هُمّ عايشين ولّا ميّتين!

ثم ضرب بقبضته على المائدة وصاح:

- فين الدكاترة والمهندسين والعلماء؟ إزاي لغاية دلوقتي مَحدَّش عنده فكرة إزاي نتغلب على المصيبة دي؟ ولّا عايزيني أنزل ألِفّ في الشوارع

وأخبّط على البيوت بنفسي؟

هبط الصمت على الجالسين قبل أن يتكلم راشد بصوتٍ رزين:

- سيادتك الحل في بَرّ الضيف وعيلة القَطّان راحت علشا...

قطع جملته بغتةً ونظر بجوار مدير الأمن، فالتفت الأخير للحائط المصمت خلفه وحدَّق فيه لجزءٍ من الثانية لكنه لم يجد شيئًا، فالتفت لراشد صائحًا:

- إيّاك تطلب إني أشيل الحصار من عليها، ده إحنا ما صدّقنا العيلة دي ظهرت وراحت هناك. أنا لو أطول أحُطّ حواليها جيش مش فرقتين أمن مركزي كنت عملت كده. الناس دي مش هتطلع من بَرّ الضيف إلا لمّا الكابوس ده يخلص.

وكأنه لم يسمع ما قاله مديره، تلفّت راشد حوله باحثًا عن مصدر ذلك الظل الذي رآه يمشي على الحائط، بينما قال أحد اللواءات ضخم الجثة عريض المنكبين بنبرةٍ عنيفةٍ خشنة:

- اديني الضوء الأخضر بس سيادتك، وأنا همسَح بر الضيف دي من على الأرض.

انتبه راشد إليه بعد أن اختفى الظلّ، وقال بنبرةٍ هادئةٍ لا تخلو من القوة:

- وبعد ما تمسحها يا عمر، الموضوع هيتحَلّ؟ اللي بيحصل هنا في القاهرة وفي كل المحافظات هيقف لوحده؟

قطع مدير الأمن النِّزال الكلامي بين الضابطين الكبيرين قائلًا:

- معاك لغاية آخر الأسبوع يا راشد، وبعد كده هبعت قوات الاقتحام تدُكّ القرية على اللي فيها.

شبّك راشد أصابعه أمام وجهه وصمتَ لحظةً قبل أن يقول:

- لو تسمحلي سيادتك القرار ده هيضُرّ ومش هيصلّح حاجة.

- تقدر تقولّي نستنّى إيه؟ هو إنت عارف اللي اسمها توحيدة القَطّان دي كانت فين ورجعت تعمل إيه بالظبط؟؟ إيه اللي ممكن يعمله شخص واحد قَصاد كابوس زي ده؟

هز راشد رأسه نفيًا فلم يكن لديه أجوبة لأسئلة مديره، فقط إيمان قوي بتوحيدة القَطّان. زفر مدير الأمن بحنقٍ وقال:

- يعني الحاجة الوحيدة اللي معتمدين عليها منعرفش هي إيه؟ فيه فشل أكتر من كده يا راشد؟

هذا جعل اللواء عمر يتدخل مرةً أخرى:

- عيلة القَطّان دي هي سبب المصايب كلها سيادتك. مش ابن العميد يسري الدُمَاطي متجوّز بنتهم؟ أهي سلمَى القطان دي نفسها عرفنا إنها دخلت بيت جيرانها في إسكندرية وعملت نفسها أمّ البنت وصاحبة البيت. العيلة دي كلها مجاذيب.

طرق أحدهم الباب. لحظة سريعة أمضاها مدير الأمن استعاد فيها هدوءه قبل أن يأذن للطارق بالدخول. فُتح الباب ليدخل عسكري البوفيه ومعه صينيّة عريضة عليها مشروبات مختلفة. خلفه دخل ضابط برتبة عقيد وهمس في أذن اللواء راشد. استأذن الأخير مديره وهو ينهض:

- خمس دقايق وراجع لسيادتك لو تسمح.

غادر المكتب لكن ليس قبل أن يتبادل مع اللواء عمر، صديق عمره، نظرةً يملؤها التحدي. لكنه تسمّر للحظةٍ قبل أن يغلق الباب، لقد رآه ثانيةً، ذلك الظل الذي يشبه سيقان شخص من دون نصفه العلوي يتحرك على الحائط. جال بعينيه في المكتب الفسيح وهو يغلق الباب ببطء ويحاول استيعاب ما رآه، فلم يكن هناك مَن يتحرك في الغرفة

على الإطلاق.

* * *

- اقتحام إيه سيادتك؟ سيادتك لو اقتحمنا بَرّ الضيف دلوقتي هتبقى كارثة.

قالها ثروت للواء راشد الذي جلس معه في صالة الانتظار. تجاهل الأخير سؤاله وقال:

- إيه اللي رجَّعهم يا ثروت؟ إشمعنى دلوقتي بعد الدنيا ما اتقلبت بالمنظر ده؟ وكانوا فين ده كله؟

- كل اللي أعرفه سيادتك إنهم كانوا بيستعدُّوا لحاجة وكان لازم يفضلوا بعيد، وغالبًا الحاجة دي وقتها جه. وده سبب أدعَى إننا نسيب توحيدة القَطَّان تنفِّذ اللي رجعت علشانه.

كانت إجابة ثروت الذي قالها بوجه محتقن؛ مما جعل راشد يقول:

- مش بإيدي يا ثروت، مش هقدر أمنع القرار أكتر من كده. على أقصى تقدير عندنا لغاية نهاية الأسبوع.

ثم تلفَّت حوله قبل أن يهمس من بين أسنانه:

- هُمَّ بيعملوا إيه في بر الضيف؟

- كُلّ واحد ليه دور سيادتك، وإحنا كذلك.

أضاف راشد بنفس النبرة الهامسة:

- دور إيه يا ثروت؟ الدنيا هتنفجر في وِشّ الكل. أنا حاسس بالضيف في كل حتة. ومدير الأمن على آخره.

جاء دور ثروت لينحني للأمام هامسًا:

- إحنا مش عايزين نفَكّ الحصار سيادتك، اللي إحنا عايزينه إننا نِدّي

عيلة القَطّان الفرصة إنها تستعد.

- تستعد؟ لإيه؟

صمت ثروت وظل راشد يُحدّق في وجهه قبل أن يستطرد:

- طيب مفيش أخبار عن إيهاب الدماطي؟ لسه مش عارفين تلاقوه في جنينة مِيت متر في مِيت متر؟

- الوحيدة اللي عارفة مكانه هي عمّته سيادتك، بس اللي فهمته إنه في حتّة صعب نستوعبها.

- وسلمى مراته، ساكتة؟ إزاي محاولتش تدوّر على جوزها؟

- ما تسألنيش سيادتك عن سلمى القَطّان لأنها لغز زيّ عمتها بالظبط، نسخة مُصغّرة منها. الوحيدة اللي بتتعامل مع حدّ غير سكان بر الضيف هي ليلى مِرّات يوسف، بس حالتها تصعب على الكافر. تايهة ولايصة بابنها وسط قصة هي مش طرف فيها. حتى يوسف جوزها انعزل تمامًا عن العالم كأنه استسلم بالفعل. أينَغم سيادتك عيلة القَطّان دلوقتي في بَرّ الضيف بس كل واحد في دنيا لوحده.

أنهى ثروت كلامه ليُطرق راشد رأسه مفكرًا قبل أن يقول:

- يبقى هل من الحكمة إننا نراهن بكل حاجة عليهم بعد اللي قلته ده؟

- يعني سيادتك فاكر إن اقتحام بر الضيف هو الحل؟ ولا أي تحرك أمني غيره؟ مش سيادتك بنفسك جرّبته قبل كده ومنفعش؟

أخذ راشد نَفَسًا عميقًا ورجع بظهره للوراء لينظر من النافذة. لكن ما لبث أن قطّب حاجبيه وقد انتبه إلى تلك الغمامة الدّكناء التي بدأت تتكون في السماء، تلك السحابة العملاقة التي ظلت ثابتة منذ أن ظهرت قبلها بأيام. أخذ نَفَسًا عميقًا والتفت إلى ثروت ليقول:

- والمطلوب؟

- عايز تصريح إنّي أدخل شقة توحيدة القَطّان في القاهرة.

تجهّم راشد وتأمّل وجه ثروت الأحمر آرِيَ الملامح لوهلةٍ قبل أن يقول:

- وليه المجازفة دي؟ إحنا عارفين الشقة دي ممكن نلاقي فيها إيه؟

- معلش سيادتك، ده طلب توحيدة القَطّان. وقالتلي إنها بتفكّر سيادتك...

- بتفكّرني؟ بإيه؟

- بتفكرك بـ "ليلة القَطّان".

سرح راشد مفكرا فهمس له ثروت:

- راشد باشا؟

انتبه إليه الأخير ثم نهض قائلًا: "استنّاني هنا".

* * *

لحظات صامتة مشوبة بالتوتّر قضاها عسكري البوفيه في توزيع المشروبات، ثم توقف بعد أن وضع لكلّ لواءٍ مشروبه أمامه وبدأ يتلفّت حوله في حيرة.

- فيه إيه يا ابني آدم؟

سأله مدير الأمن فانتفض الجندي مذعورًا، ومد يده المرتعشة بعبوّة عصير ووضعها على المائدة الطويلة بين ضابطين.

- لمين دي يا ابني؟

هكذا سأل اللواء عمر العملاق بصوته الجَهْور الخَشِن. تلعثم العسكري وطفق يجول ببصره في الموجودين في رعبٍ وحَيرَة، فاستطرد عمر بغلظة:

- إحنا عشرة وأنت حظّيت حداشر. خد الأخيرة دي وامشي.

مدَّ العسكري يده ليلتقط العبوة لكن الضابط الذي كان يجلس أمامها كان أسرع منه فأخذها قبله ونظر له شَزرًا. اعتذر العسكري وهمَّ بالتقاط عبوة أخرى ففعل الضابط الذي كان يجلس أمامها نفس الشيء.

هنا صاح مدير الأمن بنفادِ صبر:

- خلّصنا بقى من موضوع العصير ده. اتفضل مع السلامة. متشكرين.

استدار العسكري مغادرًا بخطوات سريعة، وهو يتلفّت بعد كل خطوةٍ لينظر إلى الطاولة ويهزّ رأسه من دون فهم.

التفت مدير الأمن إلى اللواء عمر قائلًا:

- عمر، الموضوع ده بدايته عند راشد ونهايته عندك، وأنت عارف أنا قصدي إيه. اختار مجموعتك بدقة. عايزين ظبّاط نضيفة من جوّاهم، مش عايزين نقدم للضيف هدايا تانية. أول ما يجيلك قرار الهجوم هتنسّق مع اللواء تيسير من الأمن المركزي و...

قطّب اللواء عمر حاجبيه وهو ينتقل بعينيه بين عبوات العصير ثم في وجوه الجالسين.

- عمر!

ناداه مدير الأمن لكنه رفع يده كي يعطيه فرصة للتفكير قبل أن يقول:

- هو احنا كام واحد؟

- نعم؟؟

كانت إجابة مدير الأمن.

- معلش يا فندم، إحنا كام واحد على الترابيزة؟

زفر مدير الأمن بضيقٍ لكنه أجاب:

- عشرة.

- طيب ليه فيه حداشر علبة عصير.

- عمر، هنضيّع وقتنا في العصير؟

- يافندم أنا شايف عشرة معاهم علبة العصير ومش شايف ولا واحدة على الترابيزة. ممكن تحطّوا العصير قُصادكم؟ معلش استحملوني.

امتثل الجميع لطلبه العجيب وقد بدأ التوجُس يتسلل إليهم؛ وكذلك فعل مدير الأمن على مضض. عمر:

- دلوقتي فيه حداشر علبة عصير على الترابيزة.

صمت الجميع وهم يحدقون في عبوات العصير أمامهم، وبدءوا يجولون ببصرهم في وجوه بعضهم. حكّ أحد اللواءات ذقنه وقال:

- عجيبة جدًا. لما أبص حواليّا وأعدّ اللي قاعدين ألاقيكم عشرة. بس لما أبص في حتة تانية بشوف بطرف عيني حداشر واحد.

انتفض آخر بغتةً ليثير أعصاب الجالسين لأقصى حدّ وقال:

- فيه حد معانا هنا زيادة. بَشوفه بطرف عيني على أقصى شمال الرؤية أو أقصى اليمين. هو قاعد وزا...

حرّك إصبعه لينتقل من المساحة الفارغة بين أحد الجالسين وجاره إلى مساحة أخرى، ثم قال:

- هو مش ثابت.

نهض ضابط آخر وهو يفتح عينيه عن آخرهما قائلًا:

- أنا شايفه أنا كمان. خيال مش قادر أحدّد تفاصيله.

- بس!!!

هكذا صاح مدير الأمن قبل أن يضيف:

- اتفضل اقعد يا سيادة اللوا أنت وهو لو سمحتوا. مفيش...

صمت فجأة وجحظت عيناه وهو يحرّكهما بين الجالسين، ثم قال ببطءٍ وحذر:

- ولّعوا أنوار المكان كله. وافتحوا الشباك على الآخر.

هبّ عمر ليضغط جميع الأزرار وذهب آخر ليفتح الستائر ليضيء المكان بنورٍ قوي. ثم انتفضوا واقفين حين وقعت عبوةَ عصيرٍ على الأرض بين أحد الجالسين كأنها كانت معلقة في الهواء.

- إيه اللي بيحصل يا فندم؟

سأل أحدهم.

التفت مدير الأمن إلى عمر الذي دار حول المائدة لينضمّ للجمع المحتشد حول العبوة. تردد للحظةٍ قبل أن يرفع عينيه لمديره ويجيب:

- سيادتك عارف إيه اللي بيحصل، دي مش أول مرة نشوف الكلام ده. اللي بيحصل دلوقتي ده هو اللي حصل من تمانية وعشرين سنة في الجلسة المُغلقة بتاعة بَرّ الضيف.

تبادل الجميع النظرات القَلِقَة ثم التفتوا إلى مدير الأمن ليجدوه في منتهى التركيز. عيناه تتحرّكان ببطءٍ ناحية الكرسي المقابل له حيث الإضاءة أضعف من بقية الغرفة، قبل أن يقرر أن يُنهي الموقف قائلًا بنبرةٍ باردةٍ كالثلج:

- سيبوني.

أطاعه الضباط جميعًا إلا اللواء عمر الذي حدّق في الركن المظلم، قبل أن يفرد جسدَه المُكتظّ بالعضلات ويقول بقوّة:

- مش هسيب سيادتك.

- نفّذ الأوامر يا سيادة اللوا!

تقهقهر عمر بظهره خارج الغرفة دون أن يرفع عينيه عن مدير الأمن الذي ظل كما هو، مُحدقًا في الكرسي الخاوي في الطرف المقابل له في تَحدٍّ.

تذكر انك حملت رواية الميراث بر الضيف الجزء الثالث حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك

* * *

أراح ثروت رأسه على الحائط خلفه في محاولةٍ بائسةٍ للحصول على قدرٍ من النوم بعد ثلاثِ ليالٍ طويلة من القلق. لكن قبل أن يُغمض عينيه المرهقتين أثار انتباهَه وصولُ أمين شرطة ضخم.

وقف الرجل أعلى السُلَّم دون أن يتحرك.

لماذا أثار انتباهه؟

لا يدري.

ربما حجمه الهائل أو هيئة رأسه الغريبة الذي يشبه عرائس أوبريت الليلة الكبيرة، أو حتى شعره الرَّماديّ الطويل. أو ربما بسبب أنه لا يبدو على أيٍّ من الموجودين ملاحظة وجود ذلك الزائر الصامت، الذي كاد رأسُه أن يحتكَّ بالسقف من فرط طوله. حتى من يعبرون بجواره، بدا لثروت أن أمين الشرطة هذا غير مرئيّ لهم. يراقبهم العملاق الستيني وعلى وجهه غائر الملامح ذي البشرة إسمنتيَّة اللون تعبيرٌ أقرب إلى البرود.

اعتدل ثروت ليراقب الرجل باهتمامٍ ليُفاجأ بالأخير يحول نظره إليه، ثم بكل وقارٍ يومئ برأسه مُحيِّيًا إيَّاه. وجد ثروت نفسه يبادله التحية

على الرغم من الحيرة والتوتر اللذين تملّكاه. إنه يعرفه بكل تأكيد. نظر الغريب أمامه مُجدَّدًا وتقدم بهدوءٍ وسط الطابق المزدحم دون أن يعترضه أو ينتبه إليه أحد.

يا لها من طريقةٍ غريبةٍ للحركة!، تعجَّب ثروت، إنه يمشي كأن نصفه السُفلِي في الماء. ثم وقف الغريب في وسط الصالة وأخذ ينقل بصره بين الممرّات حتى اتخذ قراره وسلك الممر الأيسر.

في اتجاه مكتب مدير الأمن.

لماذا لا يعترضه أحد؟

تساءل ثروت، ورغم يقينه بصعوبة حدوث عمل إجرامي أو إرهابي في مديرية الأمن، فإنه وجد نفسه ينهض ويتتبّع هذا الغريب. ثم أشار لأحد الضباط كي يأتي معه لكنه وضع إصبعه على شفتيه كي يلتزم الأخير الصمت. انتبه باقي رجال شرطة الواحد تلو الآخر لما يحدث وبدأت الأنظار تتابع ثروت الذي سلك الممر الأيسر خلف الشرطيّ العملاق. استلّ أعضاء الموكب الصامت الذي كان يتبع الغريب أسلحتهم وصاح أحد الضباط:

- أنت يا جدَع أنت، أنت رايح فين؟

لكنه لم يُذعن.

توقف الجميع عن الحركة وتقابلت العيون عند أمين الشرطة الغريب، ثم سأل أحد الضباط:

- سامعين؟ إيه صوت الطبول ده؟

تبادل الجميع النظرات مذهولين، إنه بالفعل دَقُّ طبلةٍ خافت.

وصل الزائر العملاق إلى مكتب مدير الأمن حيث كان اللواء عمر يقف على مقربةٍ منه مع بقية رؤساء القطاعات. ثم ظهر اللواء راشد في نهاية الممر وهو يسدّد سلاحه للغريب:

- وقّف عندك وإلّا هضرب بالنار!

بسرعة البرق أخرج اللواء عمر سلاحه هو الآخر وسدده إلى أمين الشرطة الغامض وكذلك فعل جميع الضباط؛ حتى صار هناك ما لا يقل عن عشرين فوهة مُسدَّس مصوَّبة إليه. وكأنه لا يشعر بهم ولا يسمع تهديداتهم، وقف الأخير أمام غرفة مدير الأمن دون أن يحوِّل عينيه عن بابها، وفي اللحظة نفسها صار صوت الطبول أكثر وضوحًا. لم يعُد هناك شكّ، أنه يأتي من عند هذا الزائر.

ثم بهدوءٍ شديدٍ خَطَا ناحية الباب فتقدم اللواء عمر منه مُحذِّرًا بصوته الجهور:

- لو لمست الباب هفجَّر نافوخك!

التفت الشرطيُ العملاق إليه ومد يده للمقبض كأنه يختبره:

- أنت حُرّ!

صرخ عمر ونزل على ركبته كي يُحكم التسديد بينما ظل العملاق يتبادل معه نظرة طويلة. بعد لحظةِ صمتٍ كانت قادرةً على تدمير أعصاب الجميع أخفض راشد سلاحه وغمغم:

- هو أنت؟

- راشد باشا؟

كان هذا النداء من ثروت لكن راشد ظل محدقًا في الغريب الذي حوَّل إليه نظره.

- راشد باشا!

ضغط ثروت على حروف ندائه هذه المرة فأجابه راشد دون أن يحيد ببصره عن هدفه:

- في إيه؟ ما تتكلّم!

- بُصّ سيادتك، عند عتبة الباب.

حوِّل راشد بصره إلى عتبة باب مكتب مدير الأمن وصُعق مما رآه: خدوشًا سوداء يعرفها جيدًا ويعرف من يصنعها. دون أن يحيد راشد ببصره عن الخدوش صاح:

- هو مدير الأمن لسّه جوّه؟ رُدُّوا عليّا، مدير الأمن جوّه؟؟؟؟

أجابه اللواء عمر الذي لم يُخفض سلاحه:

- لسّه يا راشد، ومش لوحده.

استمرَّ الزائر هائل الحجم في التحديق في وجه راشد بعينيه الغائرتين الخاويتين، بينما تعالى صوت الطبول حتى صار يهزُّ وجدان الجميع.

- مش لوحده؟ أومّال مين معاه؟

سأل راشد ليبادره ثروت: قناة التيليجرام : @alanbyawardmsr

- سيادة اللواء، أعتقد سيادتك تسيبه يدخل.

- نعم؟

- سيادتك اللي واقف قُصادك أول مرة يظهر بالشكل ده، أول مرة يتدخل بطريقة مباشرة. وهو مش جاي علشان مدير الأمن.

التفت إليه راشد وقال:

- أومّال علشان مين؟

أجابه ثروت وهو يشير لباب المكتب:

- علشان اللي جوّه معاه سيادتك

حدق راشد في العملاق الذي ارتفع رأسه فوق الباب هو يعلم أن ثروت مُحقّ، يعلم أن ذلك الزائر لا يُضمر شرًّا فقد تراءى في ذهنه مشهد مضى عليه ثمانية وعشرون عامًا، مشهد رآه بنفسه.

إن مَن يقف أمامه الآن هو آخر من رأى يسري الدماطي.

التفت الزائر مرةً أخرى للباب وفتحه ببطء، بينما تحول المشهد حوله إلى لوحةٍ ثابتةٍ بعد أن احتبست الأنفاس وجحظت العيون. نظر الغريب لمحتوى مكتب مدير الأمن لوهلةٍ قبل أن يتجهَّم وجهه الطويل، وبهدوءٍ شديدٍ يدلف إلى الغرفة.

* * *

اقتحم اللواء راشد واللواء عمر مكتب مدير الأمن بصحبة الرائد ثروت وأكثر من عشرة ضباط، ليجدوا المدير على نفس وضعه. جالسٌ على رأس الطاولة يُحدِّق في الكرسي المقابل له، دون أن يبدو عليه أنه انتبه إليهم أو إلى ذلك الشرطي الضخم الذي دخل قبلهم واتجه إليه.

- سيادة اللواء؟

هكذا هتف اللواء راشد مناديًا مدير الأمن. لم يُعطهِ الأخير أيَّ رَدَ فعل، فقط ظل مُحدِّقًا في نهاية الطاولة التي يصل إليها ضوء النهار بصعوبة. هنا أشار طاهر إلى الضباط فصوَّب كلٌ منهم سلاحه إلى تلك البقعة المظلمة قبل أن يكرر نداءه:

- سيادة اللوا، في حَدّ مع سيادتك هنا؟

تحركت عينا مدير الأمن ناحية الغريب هائل الطول الذي عبَرَ بجواره وتخطاه، حتى بلغ النافذة ليفتحها على مصراعيها. استدار بعدها ووقف خلف مدير الأمن؛ مما جعل اللواء عمر يصوِّب سلاحه إليه مرة أخرى. هنا همس ثروت:

- سيادتك سيبه، هو الوحيد اللي يقدر يقف قَصاده.

التفت اللواء عمر لما أشار إليه ثروت، إلى الكرسي المقابل لمدير الأمن، الكرسي الفارغ.

الذي اهتزَّ من دون أن يقترب منه أحد.

فجأةً؛ انقلب الموقف من الحذَر والتوجُس إلى التوتر والعصبية.

- يقف قَصاد مين؟ مين اللي قاعد على الكرسي ده يا ثروت؟

سأل راشد بعد أن حوَّل سلاحه إلى الكرسي الفارغ الذي اهتزَّ لتوَّه.

قبل أن يُجيبه ثروت، انتبه راشد إلى أمين الشرطة العملاق، الذي أمسك بكتفَي مدير الأمن وانحنى ليصبح وجهه في نفس مستوى وجه الأخير. ثم حدَّق في الكرسي الذي يربض في الطرف المقابل من الطاولة ونقر بسبَّابته مرتين برفق على كتف مدير الأمن.

- هو بيعمل إيه؟

سأل اللواء عمر في نفس اللحظة التي شهق فيها مدير الأمن كأنه أفاق لتوَّه من حلمٍ ما تبادلوا نظرات حائرة بينما تقدم راشد إلى المدير الذي نظر إليه كأنه يراه للمرَّة الأولى لكن قبل أن يسأله عمَّا حلَّ به جفلوا جاء صوت رفرفة من ناحية الكرسي الفارغ، ليهتزَّ بعدها مرةً أخيرةً قبل أن تخمد حركته.

حرَّك الشرطي الغريب عينيه الغائرتين مع صوت الأجنحة غير المرئية. وفي اللحظة نفسها، حدث تغيير طفيف في إيقاع ونغمة الطبول، ليزداد قوة. هنا انتفض أحد الضباط مبتعدًا حين سمع الرفرفة فوق رأسه. صوَّب الضباط أسلحتهم إلى تلك النقطة قبل أن يسمعوا صوت رفرفة الطائر الخفي يتحرك مرةً أخرى ويسكن فوق مكتب مدير الأمن.

- هو فين؟

هنا زمجر اللواء عمر صائحًا بينما قال راشد:

- اقفلوا الباب.

أغلق أحد الضباط باب المكتب بيدٍ مرتعشةٍ قبل أن يصيح:

- أمين الشرطة راح فين؟

التفت الجميع حيث كان الغريب يقف منذ ثوانٍ فلم يجدوه.

كل ما سمعوه كان صوت الرفرفة المزعج يخرج من النافذة، بعده دوَى الرعد في السماء. انطلق اللواء عمر كالسهم لينظر من النافذة، حيث الصوت، ليجد السُحب الدَكناء جهة الغرب قد بدأ حجمها يتضاعف. بحث عن الشرطي الغريب فلم يجد له أثرًا.

التفت اللواء راشد إلى مدير الأمن وعلى وجهه أعتى آيات الحيرة:

- سيادة اللوا...

كان هذا نداء راشد الذي هتف به وهو يتقدم إلى مديره مردفًا:

- أعتقد سيادتك دلوقتي صدَقتني.

التفت اللواء عمر إليه وقال بصوته الأجَش:

- يصدقك في إيه يا راشد؟ إيه اللي حصل قُصادنا ده؟

حدَق راشد مباشرةً في عينَي عمر ثم التفت إلى ثروت كي يجيب. تنحنح الأخير وقال:

- سيادة اللوا، لازم سيادتك تعرف إن اللي بيحصل دلوقتي هو الفصل الأخير من صراع أكبر وأقدم ممَا يمكن تخيُله. مدير الأمن سيادتك كان قاعد بيتكلَم مع أول كيان عاقل عاش على كوكب الأرض.

تذكر انك حملت رواية الميراث بر الضيف الجزء الثالث حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك

*****

الفصل الثاني

١٧٩٨

(١)

أنا الآن عند حافَة العالم، عند نهاية كل شيء، حيث لم يصل أحدٌ قبلي. أرفع عينَيَّ كي أنظر من فوق التل إلى ليل الصحراء، الذي أصبحت أخشاه كالموت ذاته، باحثًا عن البداية المناسبة لوصف ما مررتُ به.

أدرك الآن حكمة الخالق في وضع حدود لعقولنا، في كبح جماح خيالنا، فهناك أشياء لو فقط تصورتها لأصابتك بالجنون. وربما سيكون هذا مصيري في النهاية. فليَكُن، فهذا كله من صنع يدي.

ما يهمُّ أن الوقت لم يعُد في صالحي... ولا صالحك.

أشعر به بمنتهى القوة فترتعد أوصالي حين أتخيَّل مصيري القادم بثباتٍ وتُؤدَة، مصيري الذي ينتظرني أسفل هذا التل المظلم. فإن كان كل ما مررت به وكنت شاهدًا عليه هو مجرد نذير بقدومه، فلا يمكنني تخيُّل ما الذي سيحدث حين يصل إلينا. وكل ما أتمناه هو ألَّا أكون على وجه هذه الدنيا حينها. لكنه سيأتي، إن آجلًا أم عاجلًا سيأتي. في هذا الزمان أو بعده بقرون، سيأتي ولن نكون مستعدين له... إلا لو نجت هي.

لكن كيف أصف لكِ ما أراه أمامي الآن؟ كيف وأنا في وسط كل هذا الجنون؟ لأبدأ إذًا بما هو بديهي.

اسمي چوزيف كوتون، وفي عام **1798** قابلت "الضَّيف" في صحراء مصر الغربيَّة.

*****

(٢)

خريف ...1798

أحد عشر عامًا قضيتها في هذ البلد الساحر بحثًا عن السراب... حرفيًا. فمَهمَّتي التي تم تكليفي بها من قِبَل البارون داميان، والتي أجزم أنها قادمة من إمبراطور فرنسا شخصيًا، كانت أن أنقّب في الصحراء الغربية بحثًا عن الأنهار الجافة. وذلك في بَعثةٍ رسميّةٍ في إطار تعاون فرنسي – مصري، من ضمن العشرات من البعثات الشبيهة.

والغرض دائمًا واحد: العثور على ثروات مصر الدفينة.

لكن ما المقابل؟

لم أعرف أبدًا ما الذي ستجنيه فرنسا من مساعدة مصر بهذا الشكل، ولم يكن يعنيني في شيء، طالما أن كل ما أطلبه كان يُجَاب. لكن مجرد أنهم استعانوا بمكتشفٍ إنجليزيٍّ مثلي لا يعني سوى شيءٍ واحد؛ أن هناك أكثر من طرف اتفقوا على الهدف واختلفوا في النوايا.

وبالفعل حققت بعثتي نجاحاتٍ عدَّة وتوصلنا إلى أنهار جوفيّة وجيوب مائيّة، ستساعد على ازدهار الزراعة مرةً أخرى في مناطقها. لكن كان يبقى دومًا حُلمي الأكبر بعيد المنال، وهو أن أعثر على مسار نهر النيل القديم، ذلك الذي كان يخترق الصحراء الغربية صوب البحر المتوسط. على أعتابِ هذا الاكتشاف كان ينتظرني المجدُ الحقيقيّ، وهو ما كنتُ أسعى إليه سرًا دون أن أشاركه مع أحد، حتى أقرب الناس إليّ.

أحد عشر عامًا قضيتها في أكثر بلدان العالم وضوحًا وأجملها غموضًا، أطولهم عمرًا وأقواهم شوكة، أعمقهم معنًى وأشدهم تمسكًا بالتقاليد. وكم كنت ساذَجًا حين اعتقدت أن حضارتي الأوروبية المستنيرة هي مَن سيطبع على من حولي من المصريين. يكفي أن تلاحظي كَمْ أصبحتُ متمكنًا من اللغة العربية من خلال كلماتي هذه، لتعرف من كان أكثر تأثيرًا على الآخر.

بالإضافة إلى أنني قد أصبحت مُسلمًا كي أتزوَّج من مصرية بها كل ما ذكرته آنفًا: الوضوح والغموض، الجمال والقوة، والبساطة والعمق. بها من الإباء والحزم والرقّة ما يجعلها مركزًا للكون دون أن تطلب. بل إنها تفعل ما بوسعها كي لا تصبح كذلك، لكن في النهاية يرتكن عليها الخائف ويهتدي بنورها التائه.

زوجتي "فاطمة".

لا تمرُّ ساعةً من دون أن ألتفت لأملأ عيني منها وهي جالسةً في الهودج، لأجد عينيها الواسعتين الكحيلتين تطلّان عليّ من فوق اليشمك الأبيض لحظتها أشعر بما شعر به أنطونيوس حين كانت تنظر إليه كليوباترا، تلك القوة التي جعلته يحارب العالم أمضي بعدها قُدُمًا وقد تجدَّد إيماني بما أفعله سأخرِجُ ما أخفته مصر عن العالم مهما كان الثمن.

***

بلغنا تلًا يميزه وجود شجرة في أعلى نقطة به، شجرة وحيدة جافة جذعها محنيّ. هنا صاح الشيخ ياسين الذي كان يقود رحالنا أننا قد وصلنا وجهتنا. بحثت عن إبراهيم، رفيق رحلتي ضابط الإيالة ضخم الجثة شديد الإخلاص، لأجده قد صعد التلّ بحصانه ليقف بجواري بصرامته المعهودة وحسّه الأمنيّ العالي. تخلل ذقنه الرَّماديَّة التي تلتحم بشاربه المهذب بأصابعه وتفقَّد سريعًا الواحة الصغيرة التي تتوسّط التلال. بادلَني نظرةً سريعةً وهزَّ رأسه ليُطمئنني.

ابتسمتُ بارتياحٍ ووجهت بصري للكوخ الخشبي المقام في أحضان الواحة. هنا، كما أخبرني الشيخ ياسين، يقطُن من لديه السرُّ الذي أسعى خلفه.

اتسعت ابتسامتي وأنا أرمي الصحراء القاسية التي تفصل الواحة عن بقية المناطق المصرية المُكتشفة خلفي. لم أعرف السبب الذي يجعل هذا الجزء من الصحراء يستمر مجهولا حتى هذه اللحظة، كأن ذلك

المكان هو نهاية دنيانا. بحثت عيناي عن أيّ دليل يشير إلى حُلمي؛ نهر النيل الجاف، لكني بالطبع لم أرَ إلا صحراءَ باردةً كثيفةَ التلال. ابتسمتُ في استمتاع، لن يكون العثور عليه بتلك السهولة لكنني كنت أعشق التحدّي.

لكزتُ حصاني بكعبي وبدأت في نزول التلّ، ظانًا أني قد اقتربت مما استأثرَتْ به مصر لنفسها. ظننتُ أن لحظةَ انتصاري على التاريخ قد اقتربت، أن المجد قد صار عند أطراف أصابعي.

وكم كنت ساذَجًا!

*****

(٣)

توقف ركبنا المُكوَّن من تسعة عشر فردًا مع عشرة جِمال وحصانين على أطراف الواحة الدائرية التي لا تتعدى المائة مترٍ عرضًا. أنزل العمال الهودج الذي استقرت فيه زوجتي مع جاريتها الشابّة، وفكّوا رحالنا كي تستريح الجياد والإبل. ثم دار القَزَم نوح بيننا بقِربَة الماء ونحن في انتظار نتيجة محادثات الشيخ ياسين مع ساكن الواحة. ذلك الأعرابي الذي لم ألمح منه سوي هيئته الضخمة وهو جالس القرفصاء داخل الكوخ.

"القبودان"، كان الاسم الذي أطلقه الشيخ ياسين عليه والذي لم أتمكن من استنتاج سببه، فالكلمة معناها باللغة التركية لا يتماشى إطلاقًا مع المكان.

كم كان لقائي الأول مع القبودان غريبًا.

حين التقت عينانا عبر فتحة باب الكوخ.

لم أذرِ لِمَ شعرت لحظتها أن المسافة بيننا قد بدأت تتقلص واقترب وجهه الطويل مني دون بقية المشهد من حوله. تُهت في عينين

عميقتين غائرتين فوق وجنتين بارزتين، ثم أفقت حين هُيِّئ إليّ أن هناك طبولًا تدق. نفضت هذا الشعور بسرعة وابتعدت عن مجال رؤيته بعد أن نجح في بَثّ القلق فيّ. كنت موقنًا أنها لتكن المرة الأولى التي يرى فيها "خواجة" أحمر الوجه بُنِّيّ الشعر والشارب، فلم يكن الفضول هو ما طلّ من عينيه، بل شعرت به يتسلل إلى روحي.

مع مرور الوقت بدأت أتحرك بعصبية في دوائر فوق الرمال الناعمة، غير عابئ بالهواء المحمل برمال كانت كرؤوس الدبابيس. ظلت عيناي عالقتين بباب الغرفة المستتر خلف الشَّجيرَات حيث تدور المحادثات. فلم يكفِ أننا قد أتينا سعيًا خلف أسطورة يحرس سرَّها ناسكٌ نفى نفسه خارج حياة البشر، بل زاد على هذا قرب انتهاء الشهور التسعة على حمل فاطمة كان الوقت المتبقي أمامنا بالكاد يكفي عودتنا إلى طريق القوافل ثم إلى القاهرة كي تلد هناك، وهذا لو بدأنا رحلة العودة خلال أيام قليلة في النهاية انتقل توتّري إلى رفقاء رحلتي الطويلة.

- اهدَى يا قَطّان أومَال. توترك ده مفيش منه رجا.

قالها لي إبراهيم الذي جعله طول المدة التي قضيناها معًا يرتقي من مجرد ضابط مكلف بحمياتنا إلى صديقٍ وفيّ. هذا بالإضافة إلى شغفنا المشترك بكل ما هو مصري قديم. توقفت عن الحركة وأخذت نَفَسًا عميقًا مجيبًا إيّاه:

- بقالهم كتير يا إبراهيم والراجل حتى ما طلعش يرحّب بينا.

امتدت مفاوضات ياسين مع ساكن الواحة لساعاتٍ حتى وصلت الشمس لأعلى نقطة وبدأت الحرارة بعدها في النزول. سمحنا للجِمال العشرة بالتجول بحريّة بين حشائش الواحة الكثيفة؛ فسكنت وهدأت حركتها. تركت فاطمة الهودج وهي تتهادى بحملها الثقيل، وذهبت لتستند على جذعٍ مائلٍ لشجرةٍ قصيرة تشبه تلك التي تُزيِّن قمة التل.

لكن ما إن فعلَت حتى انتفضت من فوقها كالملسوعة.

هرَعَت جاريتها الشابَّة لتطمئنَّ عليها بينما راقبت أنا المشهد من بعيد. ذرت بعيني في الواحة لأجد أن هناك العديد من جذوع أشجار جافة تشبه أشخاصًا ينحنون إجلالًا منتشرة في المكان وعلى الكثبان المحيطة، أشجار لم أعرف نوعها. كنت على وشك أن أذهب إلى زوجتي لولا أني لاحظت خروج الشيخ ياسين من الكوخ وقدومه إلينا. تسارَعت نبضات قلبي وأنا أتخيَّل نتيجة المفاوضات، لكن تجهُّم وجهه الأسمر المثلث حادّ الملامح كان دليلًا واضحًا عليها.

- لازمن نتحرك لو عايزين نوصل طريج الجوافل جَبل الليل ما يچي.

قالها الشيخ ضئيل الحجم قوي البنية وهو يقترب مني فلم أتمكن من التحكم في أعصابي أكثر من هذا.

- نعم؟ بعد كل ده ورفض إنه يدلنا؟ ليه يعني؟ هو ما يعرفش مين اللي باعتنا؟ I answer to the emperor himself.

كان صياحي غاضب قبل أن يمسك إبراهيم بذراعي ليحُثَّني على الهدوء، ثم سأل الشيخ الذي استقر معنا على الرمال خارج الواحة الخضراء:

- ممكن نعرف سبب الرفض؟

حدق الشيخ ياسين في وجهي بعينيه الضيقتين الثاقبتين، وأجاب وهو يشير إليَّ:

- علشان اللي هو جاله ده.

صحت فيه:

- علشان اللي قلته؟ اللي هو إيه؟

- علشان اللي باعتينك هنا، القبودان شاكك في نواياك. ويلا بينا علشان نلحَج نتحرك.

أفلَتُّ ذراعي من يد إبراهيم واعترضت الشيخ ياسين الذي ذهب تجاه

الجمّال قائلًا له:

- إحنا مش هنرجع من غير ما نوصل لهدفنا. لو الراجل ده مش هيدلّنا يبقى نشوف غيره.

بهدوء أجابني ياسين:

- مَحدّش يجرؤ يدخل الناحية دي غيره.

- دي صحرا زيها زي غيرها دخلنا وطلعنا من عشرات زيها. وعلى فكرة، أنا أعرف أوصل للي أنا عايزه لوحدي، إنت اللي مصمم نستعين بالدليل ده. بس إحنا مش محتاجين إذنه.

ببرود أقرب إلى الصقيع أجابني ياسين:

- لأ محتاچين إذنه. ودي مش زي أي صحرا.

سكتُ عن الكلام فتقدمت لأمسك بذراعه وضغطت عليها بكل قوتي قائلًا:

- ليه يعني؟

ما كان منه إلا أنه أومأ برأسه للركب من خلفي وقال:

- روح شوف زوچتك يا خواچة.

التفتُ ناحية فاطمة لأجدها ما زالت تحدق في جذع الشجرة المائل وهالني تعبير وجهها الغريب. تركت الشيخ ياسين واقتربت منها لأسألها لماذا تحدق في الشجرة الميتة هكذا، راجيًا إيّاها ألا تُشتّت تركيزي عن المشكلة التي نواجهها.

التفتَتْ إليّ كأنها استيقظت لتوّها من حُلم وقطّبت حاجبيها وهي تقول:

- زيّ ما يكون... مش عارفة يا جَطّان. شعرت إن الشجرة دي شفتها

جبل اكده...

قطعت جملتها لتمسك بطنها المنتفخة وتأوَّهت؛ فأسرعت الجارية لتساعدها على الوقوف بينما أتى لها إبراهيم بحجرٍ ضخم لتجلس عليه. ثم جاء دوري لأنتفض مذعورًا؛ وكذلك فعل كل من حولي، بمن فيهم ياسين وإبراهيم، حين صدر من مكانٍ بعيدٍ صوت مُدوٍّ كأنه مزيج من خُوار بقرة عملاقة وهدير جمل لا يقل عنها حجمًا.

تبادلت النظرات القلقة مع إبراهيم الذي أمسك مِقبَض سيفه بحركة غريزيَّة، ثم أسرعنا بالخروج من الواحة صعودًا على التل لننظر في الاتجاه الذي جاء منه ذلك الصوت. استقبلتنا لوحة صمَّاء صفراء من الرمال اللانهائية قبل أن تحجب التلال البعيدة الرؤية أبعد منها. كان هناك أيضًا حاجز صخري كأنه سور بالغ القِدَم.

- صوت إيه ده؟

كان سؤالي الهامس لصديقي وحارسي الذي هزّ رأسه نفيًا، ومطَّ شفتيه دون أن يعطيني إجابة. لكن يده التي كانت تعتصر مِقبَض السيف كانت أبلغ رد.

- يا خواجة!

استدرتُ ناحية النداء لأجد الشيخ ياسين يُهرع للركب ويأمر الرجال بالتحرك سريعًا. ثم هتف بي لألحق به:

- لازمن نمشي بسرعة.

- هو إيه اللي نمشي؟ أنا مش هتحرك من هنا.

هنا فقد هدوء أعصابه وصاح في وجهي للمرة الأولى منذ معرفتي به:

- بجولّك لازمن نمشي!

لفت انتباهي حركةٌ خلفه. نظرت لأجد من يعتلي الكوخ. التفت الشيخ

ياسين لما أنظر إليه وقال:

- ده طلع من الكوخ. يا ستَّار.

- فيه إيه؟

قالها إبراهيم الذي انضمَّ إلينا قبل أن يشير الشيخ ياسين لساكن الواحة، الذي اعتلى سُلَّمًا خشبيًّا منصوبًا فوق الكوخ وصعد ليراقب الصحراء، سلم لا يقود لشيء.

لثوانٍ طويلة مكثنا في أماكننا كالتماثيل ونحن نراقب الرجل -الذي كان يرتدي أغرب زي رأيته في حياتي- وهو يرمي بصره للأفق الفيروزي جهة الغرب.

... الجهة التي جاء منها الخُوَّار الهادر.

- يا ستَّار.

كررها الشيخ ياسين فالتفتُّ إليه وسألته بنبرةٍ خافتةٍ يملؤها التوجُّس لا تتناسب مع الجدال المحموم الذي دار قبلها بدقائق:

- فيه إيه يا شيخ ياسين؟

أغمض الأخير عينيه وسكت للحظة قبل أن يفتحهما وينظر في عينَيَّ مباشرةً قائلًا:

- هنبات الليل هنا. الوَحْت فات.

تأملته وهو يتحرك مبتعدًا بخطوات متثاقلة ويصيح في الرجال أن يستعدوا للمبيت. تبادلت مع إبراهيم النظرات الحائرة قبل أن يقول:

- مش ده اللي إنت عايزه؟ مش كنت عايزنا نقعد؟

حولت بصري للكوخ لأجد ساكنه قد نزل من فوق السلم وانكبَّ على الرمال وبدأ يحفر. هنا أجبت إبراهيم بشرود:

- مش عارف.

تركني واتجه ليباشر الاستعدادات الأمنية مع عساكره الخمسة وهو يقول:

- أدِيك هتعرف.

هنا سمعت فاطمة، التي عادت لتحدق في جذع الشجرة المائلة كأنها لا تشعر بما يحدث حولها، غمغمت بما جعل ثقتي بما أفعله تهتزّ للمرة الأولى:

- إحنا مش هنطلع من هنا يا جَطّان.

*****

(٤)

لم يكن المسكن كبيرًا، فقط كوخٌ مكوّنٌ من ثلاث غرف. ولم يكن ساكن الواحة في استقبالنا، وهذا لانشغاله المفاجئ بالحفر في أماكن متفرقة من الواحة؛ لذلك قام الشيخ ياسين بدور المُضيِّف ووزّعنا على الغرف.

- وصاحب المكان؟

قالها إبراهيم وهو ينزع نطاقه ومعه غِفد سيفه من حول وسطه ويدور ليتأمل تفاصيل المكان. كانت الشمس على وشك المغيب؛ لذا لم يساعد نورها الباهت على الرؤية الجيدة.

- مالناش دعوة بصاحب المكان وما تسألونيش هو بيحفر وبيدوَّر على إيه لأني معرفش. هو في حاله وإحنا في حالنا وفي الأغلب مش هنجابله. كفاية إنه سمحلنا نبات سواد الليل. لكن من الفجر لازمن نمشي.

رد ياسين وهو يرمقني منتظرًا رد فعلي. لولا انشغالي عنه بزوجتي التي دخلت لتوّها غرفتها لكنت انخرطت معه في الجدال مُجدَّدًا.

لم تستغرق تجهيزات المبيت سوى القليل وسرعان ما استقر كلّ منا في غرفته، بينما انتشر العمال والحرس في الواحة. منهم من افترش حول عين الماء الصغيرة أسفل الشجيرات، ومنهم من اتخذ مجلسه بين الحشائش الطويلة حولها.

شردتُ ببصري عبر نافذة غرفتي متأملًا الصحراء التي كانت على وشك أن تغرق في الظلام وانشغل عقلي في تقييم الموقف. قد بات الأمر واضحًا؛ لقد فشلت محاولات الشيخ ياسين في إقناع القبودان أن يكون دليلَنا في هذا الرَبع المجهول. لكن لا يهم، به أو من دونه سأجد غايتي فأنا لا أحتاج من يقودني في الصحراء. لن يقف شيء في طريق مجدي بعد أن كدت ألمسه بيدي.

ثم جال بخاطري هاجسٌ في صورة أربعة أسئلة:

ما المميز في هذا الربع من الصحراء؟ ما الذي جعل ساكن الواحة يدعونا للمبيت بعد أن كان على وشك أن يطردنا؟ وما كان هذا الصوت الذي سمعناه وكاد يصيبنا بالهلع؟

أما آخر وأهم سؤال كان: ما الذي طرأ على فاطمة؟

في طريقي لغرفة زوجتي، لمحت الشيخ ياسين يُضرِم النار في شعلات منتشرة ومغروزة في الأرض بين الشجيرات، ولاحظت وجود صفائح معدنية على جوانبها الغربية. تجاهلت الأمر وطرقت الباب ثم دخلت قبل أن يُؤذَن لي. ما إن فعلت حتى خرجت الجارية الشابّة وأغلقت الباب خلفها دون أن تُعيرني بالًا. لم أعطِ للأمر أهمية كبيرة، فلم أكن أطِيقها أنا الآخر، ثم التفتُّ إلى فاطمة التي كانت شاردة في ليل الصحراء وذراعها مستندةٌ على إطار النافذة.

- إيه اللي إنتي قولتيه برّه ده يا فاطمة؟ يعني إيه مش هنطلع من هنا؟

أخذت نَفَسًا عميقًا وأجابتني دون أن تحيد ببصرها عن المشهد

بالخارج، الذي تحول مع إضاءة المشاعل المنتشرة إلى لوحة مُقبِضة:

- سيبني في حالي يا جَطّان. مش چيت ورا حلمك؟ سيبني بجَى.

- من إمتى وإنتي مش راضية عن اللي بَغمِله يا فاطمة؟

التفتت لتحدّق بقوة في عينيّ وتقول:

- كنت راضية لما اللي بتعمله كان علشان البلد اللي أنيتك وعطيتك كل اللي تتمناه. إنما إحنا هنا علشان حاچة تانية.

خرج ردّي ضعيفًا كعادتي أمام حُججها القوية، ووضعت يدي على بطنها المنتفخة كأني أستعين بابني على أمه:

- حاجة تانية إيه بس؟ إنت هتصدّقي المهبول اللي عايش هنا ده؟ هو هيعرف نواياي منين؟ كل ده علشانك وعلشان اللي جاي.

- مش حاسّة إكده يا جَطّان. إنت بتسعى ورا حاچة تانية.جلبي بيجُولّي إن فيه حاچة اتغيرت فيك من ساعة ما چينا الصحرا دهي.

فتحت فمي لأرد عليها لكنه ظل مفتوحًا دون أن يخرج منه حرف واحد.

انطق يا غبي! انطق قبل أن تؤكد لها ظنونها.

ثبّتت عينيها الواسعتين الكحيلتين مباشرةً على وجهي الذي أصبح فجأة كأنه صُبّ من الحجر. هربت ببصري من النافذة واستسلمت لمنطقها؛ وكذلك فعلت هي.

كان هناك بالفعل شيءٌ يناديني. لكنه لم يظهر عند دخولي تلك الصحراء، بل في اللحظة التي وَطئت فيها قدمي رمال مصر، ففي بلد بمثل تاريخها توجد فرصة لا تُعوض لصنع مجدٍ لا يُمحَى لكن ما كان يناديني قد تضاعف بكل تأكيد مئات المرات لحظة وصولنا هذا الربع، آخر المناطق التي لم تُكتشف بعد. إنه قريبٌ مني... قريبٌ للغاية.

(٥)

بعد راحةٍ قصيرةٍ التقى الجمع حول راكية النار في وسط شُجيرات الواحة وأعشابها. وما إن خرجت من غرفتي حتى صدمتني رائحة طعام. لم يكن غريبًا أن يقوم أهل المكان بذبح شاةٍ أو ماعز احتفاءً بضيوفهم، لكني لم أتوقع ذلك من ساكن الواحة الغامض والأهم من هذا أن ما كان على النار لم يكن شاة أو ماعزًا، لم يكن حيوانًا في الأساس جذبتني الرائحة الغريبة فتقدمت لأنظر لما جاد به علينا ساكن الواحة، وصُدمت مما رأيته ينضج في الآنية.

هل هذا دقيق وسمن؟

ذهبت لأجلس بجانب الشيخ ياسين الذي كان يكسر الأغصان الجافة استعدادًا لإلقائها في النار، ورميتُ إبراهيم بنظرة سريعة لأجده مستند على جذع إحدى الشجرات الميتة المائل جذعها وهو مغمض العينين. يصعد صدره الضخم ويهبط بإيقاعٍ بطيء منتظم.

أشرت للآنية التي تصاعدت منها رائحة طيبة لتُلهب أحاسيس الجنود والعمال وسألت:

- هناكل دقيق وسمن؟

- وسُكّر.

كانت إضافة الشيخ حاد الطباع التي قالها دون أن يحيد ببصره عن النيران. لمحت القَزَم نوح وهو يدور بين العمال والحرس بقربة الماء، حتى بدأ الحرس بمضايقته بالألفاظ والتلميحات وشاركهم العمال بالضحكات والسخرية من هيئته. اضطر القَزَم المسكين أن يجاريهم كي لا يجلب لنفسه المزيد من المتاعب، حتى خرج صوت إبراهيم كبركانٍ ثائرٍ صائحًا بهم أن يتوقفوا فورًا.

التفتُّ إليه لأجده يحكُّ شعر ذقنه الملتحم بشاربه، وهو ينظر إلى حرسه شَزْرًا كي يتركوا القزم في حاله. في النهاية نهضوا متثاقلين

والتقطوا أسلحتهم ليتخذوا أماكنهم حول الواحة. حدقتُ في النار مجددًا وسألت ياسين:

- قولّي بقى إيه حكاية القبودان ده. ليه ده مش عايز يدلّنا؟ مش أكّدتلي إنه هيساعدنا؟

- أكّدتلك إنه الوحيد اللي يجدر يساعدنا. إنما هو اللي هيجُول إذا كان يساعدنا ولا لاه.

- أنا مش قادر أفهمك يا ياسين. هو مش دليل بياخد مقابل؟

- بياخد مُجابِل بس مش زيّ ما إنت فاهم. في حاجات لسّه صعب عليك تفهمها يا خواچة.

كانت إجابة ياسين قبل أن يرجع بظهره ليستند على سور خشبي قصير بين الحشائش، لا يتعدى المتر طولًا ولا مبرر لوجوده. شردتُ ببصري في السور عديم الفائدة وحاولت عدم إظهار حنقي من نعت ياسين لي "بالخواجة".

كم كنت أكره هذا الاسم. يُشعرني بالعار من أصلي، وهو ما كنت أظنّه مستحيلًا. احتفظت بوجهي جامدًا وبيّتُ شيئًا في نفسي، لكن لا بُدَّ أن إبراهيم قد شعر بي فقد مال عليّ قائلًا:

- مصر ليها تقاليد يا چوزيف، والعواقب هتبقى وخيمة لو كسرناها. إحنا منعرفش الصحرا دي فيها إيه، وإيه اللي مخلّي حواليها كل الغموض ده.

- حَدسِي بيقول إني هلاقي اللي أنا عايزه في الربع ده يا إبراهيم.

ثم رسمتُ ابتسامة خشبية وأردفتُ:

- وبعدين ما إحنا كسرنا قواعد كتير يا أخي العزيز، وفي كل مرة بتقول كده وبتعدّي على خير.

فتح إبراهيم عينيه وابتسم لي لكنه لمح وجه ياسين الرفيع، الذي

عبس بسبب ما قلته لتؤي واحتقن حتى انتفخ ليصبح كالجدي الغاضب. اتسعت ابتسامة إبراهيم وقال:

- مش كل مرة تسلَم الجرَّة يا مستر كوتون، ومش كل مرة هلحقَك قبل الأهالي ما تاكلك.

- زيّ اللي حصل في دمياط؟

قلتُها وأنا أضع ذراعيّ خلف رأسي محاولًا التظاهر باللامبالاة. ثم نظرتُ لياسين الذي تذكّر الحادثة الشهيرة لأجده يقاوم الابتسام وهو يقول:

- لمَّا إبراهيم طلَعك من البيَّارة؟

- هي دي تتنسي؟

قالها إبراهيم فاسترجعت الموقف وأنا أنظر إلى السماء السوداء:

- كان بقالي يوم كامل محبوس بعد ما تجار الجِمال رموني فيه.

لفت انتباهي تجمعٌ غريبٌ من السُحُب في جهة الغرب، لكن ياسين جذبني مرة أخرى للحديث:

- جَطَّان، أوعاك تعمل حاجة إهنا. الصوت اللي سمعناه ده مش ديب ولا سبع. الصحرا دي مَحدَّش عايش فيها ولا بيچيها؛ لأن فيها مكان اللي بيروحله لحالَه مبيرجعش منه.

قالها بعد أن استعاد جدّيَّته فجأة فابتسمت باستخفاف أثار حنقه. صرفت نظري عن السُحُب إلى الصحراء المَعنيّة وقد نجحت كلماته في إثارة فضولي. تُرى ما الذي يوجد في ذلك المكان الذي لا يعود منه أحد. ثم ذابت ابتسامتي بغتةً حين سطعت ومضةٌ لجزء من الثانية في جهة الربع الغامض قبل أن تختفي. إنها تناديني، تلك الصحراء التي لم يسبُر أغوارها بشر. التفتُّ إليه وربَّتُّ على ساقه قائلًا:

- ما تقلقوش.

نهضت متجهًا إلى كوخي الخشبي ووقفت على عتبة بابه، ثم التفتُ لأنظر إلى وجوه أفراد البعثة المتعبة. أومأت برأسي لإبراهيم بالتحية وأشرت له بالمكوث، بعد أن استشعرت أنه سيأتي خلفي ليطمئنَّ بنفسه. تأكدت من وجود الجميع في الواحة ثم بحثت عن القبودان، فوجدته على أطرافها يصنع حفرة جديدة بكل همَّة. طمأنت نفسي لانشغال الجميع ثم ناديت على نوح. جاءني الشاب القصير كبير الرأس بساقيه المُقوَّستين وعلى فمه الكبير ابتسامة عريضة.

- نَخَم يخوچة. (نعم يا خواجة).

أجابني بنبرته الخنفاء فأشرت له كي يلحق بي وتقهقرت داخلًا غرفتي، لكن ليس قبل أن أرمي نظرة خاطفة على غرفة فاطمة لأتأكد أن بابها مغلق. ثم انحنيت عليه قائلًا:

- ركِّز معايا يا نوح، عايزك تشغل الناس عني الليلة دي، يعني اللي يسأل قوله نايم. اشغلهم بأي طريقة.

ازدادت ابتسامته عرضًا حتى ظهرت أسنانه البيضاء وضيق عينيه مُتفهِّمًا، لكنه سألني:

- والتِّيف؟

- نعم؟

أشار للصحراء جهة الغرب وكرر:

- التيف.

حاولت فهم ما يقوله لكن لم يكن لديَّ وقت لأضيعه فجاريته قائلًا:

- مش فاهمك. المهم تعمل اللي تقدر عليه وتُشتِّت انتباههم.

لم يسألني نوح عمَّا أخطط له ولم أحتَج أن أشرح أكثر من هذا، فهو

كان دومًا حامل أسراري وذراعي الذي أعبث به في الظلام. لو أردت أن أفعل شيئًا خبيثًا كان هو مَنْ أستعين به، والمقابل كان أبسط مما تتخيّلين. مجرد الاستعانة به في خفايا الأمور كان يُسعده بشدة، كأن اللؤم والخبث يعطيانه نشوةً ما.

التقطتُ حقيبتي الجلدية ووضعت المعول على ظهري، ثم تسللت من النافذة إلى الجهة الخلفية. خطوتُ بهدوء فوق الحشائش الطويلة واستعنت بضوء النجوم حتى خرجت من الواحة في جهة لا يحرسها أيٌ من رجال إبراهيم. زدتُ من سرعتي وأنا أعتلي التل المظلم متجاهلًا رماله الناعمة شديدة البرودة التي اقتحمت حذائي الجلدى بمنتهى الوقاحة.

ما إن وصلت للقمة حتى استدرتُ للواحة لأتابع الضحكات والمزاح. تأكدت أن أحدًا لم يرَني بعد أن ساعدت الحواجز الطبيعية على عدم وصول ضوء المشاعل لهذا الجانب من الوادي، بالإضافة إلى الصفائح المعدنية المثبتة على جوانبها. أمرها كان عجيبًا، تلك الصفائح، فقد بدا لي أن من وضعها قد تعمد أن يكون هناك ما يمنع ضوءَها عن الانتشار في اتجاه الغرب. وهذا جعل مشهد الواحة أمامي مظلمًا لا يُرى منه إلا أشكالٌ ذوات حوافٍ منيرة. حتى راكية النار، فقد اختبأت خلف حاجز صخري يمنع نورها من السطوع غربًا.

لمحتُ نوح يسير بين أفراد القافلة يحثُّهم على اللعب والمشاركة في مزاحه كما أمرته، حتى وصل إلى صاحب الوجه المثلث الأسمر القاسي. تأمله الشيخ ياسين لوهلة قبل أن يسأله شيئًا ليصيح القَزَم:

- العبوا معايا!!

ضحك الجميع وناداه أحد العمال بينما حوَّل إبراهيم بصره لكوخي. دقَّ قلبي بشدة فلم أكن أتمنى أن يكتشفوا غيابي بهذه السرعة. لكن سرعان ما عاد لمعدله الطبيعي، حين تركت عين إبراهيم الكوخ لينهر العامل الذي قذف القزَم بحجر ارتطم بساقه فينكفئ على وجهه في

الرمال. نهض نوح ممسكًا بالحجر ليهدد به من قذفه به ويصيح مرة أخرى بنبرته الخنفاء:

- العبوا معايا.

ثم بصعوبةٍ دحرج الحجر ليستقر أمام أحد العمال الذي التقطه ليدحرجه بدوره في اتجاهه، وهكذا اخترع القزم الذكي لعبة استطاعت أن تستحوذ على انتباه الجميع.

حسنًا، كل شيء يسير كما خططتُ له. كلّ في مكانه والأهم من هذا أن فاطمة لم تخرج من غرفتها؛ فهي الوحيدة التي يمكنها أن تسبُر أغواري وتكشف المستور. يبقى أن ألتزم بالجدول الزمني وأعود قبل الفجر.

قبل أن أستدير لأنزل من التل خارجًا من الوادي جهة الغرب لمحتُه، ذلك الرجل فارع الطول ذو الرداء العجيب. بخطواتٍ طويلة، كأنه يمشي وسط مياه، ترك الحفرة التي صنعها لتوّه واتجه إلى التل الذي يحدُّ الوادي من جهة الغرب... صوبي مباشرةً.

نظرت حولي باحثًا عن ساتر أختبئ وراءه لكني لم أجد حلًا سوى أن أركض بكل سرعة متوغلًا في الصحراء جهة الغرب؛ حتى أصل إلى تلك الصخور التي تراصّت بجوار بعضها كأنها حاجز طبيعي. وبالكاد وصلت وجهتي قبل أن يصل القبودان لقمة التل الغربي للوادي، وما إن فعلتُ حتى اختبأتُ خلف الحاجز الصخري. انتظرت حتى التقطت أنفاسي قبل أن أمد عنقي لأخطف نظرة على المشهد المثير للفضول فوق التل. فهناك رأيته يجلس على ركبتيه فوق الرمال ويحفر فيها.

كانت المرة الأولى التي أراه فيها واضحًا في ضوء القمر وأرى تفاصيل زيّه العجيب. كان يرتدي جلبابًا أبيضَ فوقه تنُّورة بها خيوط عريضة باللونين: الأبيض والأسود خِيطَت معًا حول وسطه. لكن لم يكن ملبسه فقط هو أغرب ما في ذلك المشهد، بل ما فعله بعد أن عثر على ضالّته.

وضالته كانت شيئًا أسود اللون بحجم كفّ يده كبيرة الحجم، أخرجه

من وسط الرمال ووضعه على قمة التبَّة في إجلال.

فقد نهض بمنتهى الهدوء وفرد ذراعيه إلى جانبيه على مستوى كتفيه. ثم بدأ يدور حول نفسه. كان دورانه بطيئًا في بادئ الأمر ثم ازدادت سرعته، حتى بدأت التنُّورة ذات اللونين: الأبيض والأسود ترتفع وتترك جسده.

تلك الطبول ثانيةً. من أين تأتي؟؟

سواء أكنتُ أهذي أم كان ذلك الإيقاع العميق حقيقيًا، فقد قررت أن أستغل الوقت الضيق المتاح لي كي أستكشف الصحراء المُحرَّمة من خلفي. فلم يكن أمامي الكثير منه ويجب عليَّ أن أستغل تلك الفرصة التي لن تُعوَّض.

كان آخر ما شاهدته قبل أن أترك موقعي خلف الصخور وأتوغل غربًا هو مشهد "القبودان" وهو يدور حول نفسه في دوائر، وفي الوقت نفسه حول الشيء الذي استخرجه لتوَّه. ظلت التنُّورة تدور معه حتى اختلط لونها الأبيض بالأسود وتطاير شعره الطويل المجدول وهو يحرك رأسه في دوائر.

كلَّا، لم يكن حجم تنُّورته يزداد، حتمًا كان خيالي يتلاعب بي.

*****

(٦)

لقد قمتُ بارتكاب أخطاءٍ كثيرة في حياتي. كان حماسي -الذي وصفه الكثيرون بالطمع وليس الحماس- وقودًا دائم الاحتراق يدفعني إلى كسر القواعد وانتهاز الفرص. ثم ظننتُ أن مع بلوغي الأربعين وبعد كل ما مررت به أنني قد تخطيت تلك المرحلة، مرحلة الخُفق المطلق. ربما كان زواجي من فاطمة هو ما أعطاني هذا الشعور بالنضج، فهي كان لديها ذلك التأثير، لكن في اللحظة التي كنت أبتعد فيها عن فلكها

يصيب بوصلتي الجنون وأفقد إحساسي بالاتجاهات.

واللحظة التي وقفت فيها أسفل ذلك الحاجز الصخري مترددًا بين عودتي إلى فاطمة، الثابت الوحيد في حياتي، واستمراري في مسعاي كانت إحدى تلك اللحظات فما إن أخطُ خلف تلك التلال حتى ينقطع خط الرؤية بيني وبين الواحة حينها سأصبح في صحراء لم يفضح سرَّها أحد.

هل أثق في قدراتي وخبراتي وأقبل التحدِّي؟

هل أضرب بتقاليد ومحاذير البلد التي أقف على أرضها عُرض الحائط؟

وماذا عمَّا حِيك حول هذا الربع من قصص مخيفة؟ والصوت الذي سمعناه، ذلك البكاء الشيطاني الذي سيظل يؤرِّق منامي ما حييت؟

ربما يكون قد طالني بالفعل القليل من النضج لكني كنت ما زلت مغرورًا. فقد انتهزت انشغال القبودان برقصته الدائرية العجيبة ونهضت من مكاني متسللا غربًا. وما إن اختفى عن ناظري حتى خفتت دقات الطبول، قبل أن تختفي تمامًا واختفي معها أي شعور بالذنب على ما أفعل.

في البداية سرتُ بين الكثبان الرملية والدروب التي حفرتها الطبيعة القاسية مهتديًا بضوء القمر. لكن سرعان ما تحركت تكتُلات السُحُب الرَّمادية العملاقة لتجعل كل خطوة أصعب مما قبلها، كأنها شعرت بي وتعمَّدت تضليلي. صوت الرياح الباردة المُحمَّلة بالرمال اللاذعة كان رفيقي الوحيد، وأنا أتوغل في اتجاه الغرب الذي ازداد ظلامًا مع كل خطوة.

كلَّا، لم يكن رفيقي الوحيد، فقد كان هناك ذلك الشعور أنني لست وحدي. المكان نفسه كان كأنه يرفض وجودي ويحثُّنِي على الرحيل. لكني مضيت قُدُمًا مُذكِّرًا نفسي أني لن أتوغل بعيدًا، فقط بما يكفي كي أضع معلوماتي وخبراتي أمام أكبر اختبار لها. صعدت صخرةً بحجمِ

بيتِ صغيرٍ لأتأمل الصحراء البيضاء التي تخللتها الظلال وليدة السحب الغاضبة، باحثًا عن شيءٍ بعينه. ثم لاحظت مجموعة من التلال، كانت تبدو مناسبة، فبطن المرتفعات الرملية هي المكان المثالي للبحث عن التجمُّعات المائية وبالأخص في نهاية مُنحدَر. ناهيك أنه بناءً على إحساسي بالميول والارتفاعات، فهناك احتمال كبير أن تكون تلك البقعة هي أعمق مكان في هذا الربع.

توقفت في منتصف المسافة التي تفصلني عنها. ما هذا الظل العجيب الذي أسقطته السحب عليها، ذلك الظل الذي جعل من كل شيء أذكنَ مما كان إلا بقعة بعينها أسفل أحد التلال هناك؟ بقعة لا تتعدى مساحتها بضعة أمتار تعمَّد ضوء القمر السقوط عليها وحدها. رفعتُ عيني للسماء متوقعًا أن أرى سحابة ثابتة تصلح لأن تكون مصدر الظلال العجيبة، لكني فوجئت بما هو أعجب.

ليس فقط أنني لم أجد السحابة، لكنني لم أجد أيَّة سُحُب على الإطلاق.

لحظتها وجدت نفسي أمام التساؤل المنطقي: إذًا ما مصدر هذه الظلال التي انتشرت بشكلٍ مُطَّرد في دقائق قليلة حتى أحالت الليلة القمرية إلى لوحةٍ كئيبة؟ وبالأخص ذلك الـ...

عجبًا أين ذهب الظل العجيب؟

بحثت عنه لأجده فوق تلّ مختلف. تأملت فيه للحظة باستغرابٍ شديدٍ؛ فقد كان يشبه لحدً كبير الـ... الرأس والكتفين.

وتلك... أهذه أذرع؟

هذا خيال للنصف العلوي لكائنٍ عملاق. رفعت عيني مجددًا للسماء

فالمصدر المنطقي الوحيد لهذا الظل كان السحب. وللمرة الثانية استقبلتني لوحةٌ سوداء مزدانة بنجومٍ وقمرٍ، لوحة خالية من السحب. صرفت بصري مرة أخرى للتلّ الذي رأيت عليه الظلّ قبلها بلحظات

لكني لم أجده. تلفّتُ حولي بحركةٍ لا إراديّةٍ لينتفض قلبي بين ضلوعي حين رأيته على تلّ أقرب.

ثم طرأ لي خاطر مخيف.

إن هذا الظل يقترب مني.

هنا ارتكبت الخطأ الثاني: تجاهلته تمامًا.

ما هذا السَّخَف؟ قلت في سريرتي وأنا أمدُّ الخُطَا إلى قاع المنحدر حيث البقعة المنيرة. إنه مجرد ظل صنعه ضوء القمر بطريقةٍ ما. لا تسألِيني كيف لم أرتَبْ في كل ما يحدث، فقد كنت مدفوعًا برغبات لا قِبَل لي بوأدها.

سرعان ما تناسيت تلك التفاصيل المُؤرّقة وبدأ الحماس والإثارة يتسللان إليّ وأنا أجمع عينات من التربة من تلك البقعة. شرعت في فحص تكوينها قبل أن أضعها في قنّينات صغيرة. كانت عينات مبشرة بالفعل؛ لذا فقد قمت بترتيب مجموعة من الصخور على شكل حرف الـ × فوق علامة + في قاع المنحدر لأحدد مكانها في حال عودتي. ثم أنزلت المِغوَل من فوق ظهري وانكببت على الرمال أحفر فيها بكل حماس.

بعد ما يقرب من الساعة توقفت مصعوقًا. هذه تربة طينية، هناك ماء بالأسفل. زدت من سرعة حفري ثم توقفت بغتة. ففي تلك اللحظة جاءني هاجس جعلني أنظر خلفي.

لا شيء.

فقط لوحة ذكَنَاء بدرجات الرمادي الممتزج بالأزرق، لوحة ثابتة يتخللها صفير الرياح الباردة ودوامات الرمال الراقصة. ثم ظهر الظل من جديد على تل قريب.

"ارجِع".

انتفضتُ واقفًا وتلفَّتُ حولي... جاء هذا الصوت متخفيًا وسط صفير الرياح. نظرت إلى التل فوجدت أن الظل قد اختفى فصرفت بصري مرة أخرى للحفرة الصغيرة التي امتلأت بالطين الرطب، وترددت للحظةٍ قبل أن أنكبّ عليها مُجددًا.

لم أكن مخطئًا إذًا. فالمجد كان ينتظرني هنا بالفعل.

سيُخلَّد اسمي في التاريخ: جوزيف كوتون، مكتشف ينابيع النيل الجافة و...

تجمَّدت الفكرة في رأسي وأنا أتصور الكيفية التي سيستغل بها الفرنسيون هذا الاكتشاف. حتمًا لن يكون كما يقولون، بالتأكيد ليس لخدمة أهل مصر.

مستعمرون جشعون، ليس مثلنا نحن الإنجليز، بُناة الحضارات.

في تلك اللحظة لمحته بطرف عيني... الظلّ العملاق، والذي انطبع على التل الملاصق لي تمامًا.

جفلتُ ملتفتًا إليه.

هل تحرك الرأس لتؤه؟ هل أصبح ينظر إليّ؟ والأذرع؟

"ارجع".

لم يعُد هناك مجالٌ للشك، هذا صوت فاطمة.

ثم جاء الظلام.

تلَفَّتُ حولي كالملسوع لأجد أن ضوء القمر والنجوم لم يعُد ينير الصحراء. نظرت للسماء لأجدها صافيةً بينما يطل عليّ القمر والنجوم كأنه رسمة بلا حياة ولا نور.

ما الذي يسبب هذا الظلام؟

كأن هناك سُحُبًا خفية تقف بيني وبين ضوء القمر الأزرق الدافئ.

تحسَّستُ الأرض حولي لألملم أشيائي وأضعها في الحقيبة، لكنها كانت منتشرة في المكان بشكلٍ عشوائي. وبما أنني لم أكن لأترك العيّنات الثمينة قمت بارتكاب ثالث الأخطاء، وأكثرها فداحة.

*****

(٧)

كان لا بُدَّ أن أفعلها، فالظلام كان مخيفًا، كأنه قد أصبح حيًا يتنفس. لم أجد بُدًا من أن أخرج الشعلة الجافة من حقيبتي وأتحسَّس حولي باحثًا عن صخور تصلح لإضرام النار بها.

"لا تفعلها".

كأني سمعتها تهمس بها في أذني. هذا ليس وقتك يا فاطمة فأنا هنا غارقٌ في بحر من السواد.

تششكك.

شرارة ضعيفة تكفي، لكنها لم تكن الوحيدة.

ففي اللحظة نفسها سطع وميضٌ مشابهٌ من بعيد، من جهة الغرب الذي كان ظلامه أكثر سوادًا مما كنت فيه.

بالتأكيد خدعني بصري.

تششكك.

شرارة أخرى كادت أن تفعلها لكن الشعلة ظلت صامدة.

وللمرة الثانية سطع هذا الوميض من بعيد، كأنه صدًى مرئي للشرارة التي صنعتها.

لكن، ما هذا البرد المفاجئ؟

والأدهى من هذا، ما هذا الصمت؟

وأين ذهبت الرياح؟

لا بُدَّ أن أشعل النار قبل أن أتجمد بردًا أو خوفًا

نعم كنت خائفًا، كنت أرتعد. من الظلام، من البرد ومن الظِّلّ العملاق الذي سقط فوق التل الذي كنت أجلس أمامه كأنه سيبتلعني. تلك أذرعُه تتحرك فوق رمال الصحراء حولي وقد تضاعف حجمه، واحتلَّ رأسه الكثبان التي أرقد أمامها بينما امتد باقي ظله للتلال المحيطة.

تشششكك.

أمسكت النيران في الشعلة لأتنفس الصُعدَاء ويبدأ جسدي يهدأ ويكفّ عن الارتعاش. دقائق قليلة يدفأ فيها جسدي ثم ألملم أشيائي المبعثرة وأستكشف طريق العودة.

شردت في النيران وأنا أفكر فيها. هل اشتقت لفاطمة لهذه الدرجة وبهذه السرعة حتى بدأت أسمعها تناديني؟ أم أن ضميري قد بدأ يؤنّبني.

ولماذا يؤنبني؟

عنّفتُ نفسي قبل أن أذكّرها: أنا مستكشف، أسعى لإزاحة الستار عن أقدم الأسرار وأهمها. مستكشف يخدم ثلاث دول عظمى. لا أظن أن هناك في التاريخ القديم أو الحديث من كان في مهمة أنبل من هذه. وفي هذا الربع يرقد أقدم الأسرار.

دعني إذًا من التشكّك والتهيؤات التي...

ثم تذكّرت الوميض. رفعت عيني عن النيران لينتفض قلبي بين ضلوعي، وأنا أحدق في الضوء الذي لا زال ساطعًا أسفل ذلك التل البعيد. ليس لأنني كنت متأكدًا من خلوّ هذا الربع من البشر، فحسب ما أكد الشيخ ياسين فإن الواحة التي تركتها منذ ساعات قليلة هي آخر

مكان مأهول بالسكان.

ليس لأن ذلك الضوء يشبه الشعلة التي أمسكها في يدي.

وليس بسبب ذلك الشعور القوي الذي سيطر عليَّ كأن زوجتي تصرخ وتناديني.

لكن ما كاد يصيبني بسكتة قلبية هو من كان يُمسك بالشعلة الأخرى.

دققت النظر في الشعلة البعيدة محاولا استنتاج هُوِيَّة من يحملها. ثم رفعتُ يدي بالشعلة ولوَّحت بها. هنا شعرت أن قلبي قد قفز من بين ضلوعي حين رفع يده بالشعلة ولوَّح لي بها. تحوَّلت لحظتها إلى تمثالٍ غير قادر على الحركة، حتى شعرت أنه يقترب. لا لم يكن يقترب، بل كان المشهد بأكمله يقترب مني.

حسنًا، حان وقت مغادرة المكان، قلت لنفسي وأنا آخذ آخر جرعةِ دفءٍ من النار وأقف مستعدًا للرحيل. لكن ما إن فعلت حتى مادت بي الأرض وترنّحت حتى كدتُ أن أنبطح أرضًا. لا، ليس دُوَارًا، بل إن الأرض نفسها كانت تتأرجح أسفل مني.

لمحت حامل الشعلة وقد غيَّر مكانه ليصبح أسفل التل الملاصق، لكن محاولاتي للحفاظ على اتزاني منعتني من متابعته.

ثم عاد الصوت دفعة واحدة كأن أذني كانت مسدودة وانفتحت لتؤها. لكن ما سمعته لم يكن أصوات الصحراء ولا الرياح وهي تجري فوق سطحها الخشن لتصطدم بالصخور.

كان صوتَ بحر.

استطعت بأعجوبةٍ أن أستعيد توازني وانتهزت اللحظة لأغرس المِعوَل في الرمال وأستند على ذراعه الخشبية. كان أول ما انتبهت إليه هو الشعلة الغريبة التي غيَّرت مكانها للمرة الرابعة، لتصبح مغروسةً في الرمال على بُعدِ أقلَ من ثلاثين مترًا مني.

لكنه لم يكن بجوارها، ذلك الشخص، بل شيء آخر.

هل هذا كلب؟ تساءلت محاولا الاحتفاظ برباطة جأشي.

لا، لم يكن كلبًا، يشبهه لكنه ليس كذلك. دققت النظر في الكائن الذي جلس بجوار النار وفكّه شديد الطول تمساحيّ الهيئة مفتوح بمقدار إصبعين، يلهث بصوتٍ مسموعٍ رغم صوت الأمواج.

تحرك يا أبله!!

قلت لنفسي ثم استندت على عصا المعول ونظرت حولي.

كيف أجد طريق العودة في هذا الظلام؟

إن الشعلة التي أحملها تكاد تنطفئ والشعلة الأخرى لا يصدُر منها ضوء، مثلها مثل القمر والنجوم من فوقي، كأن الضوء نفسه يخشى السقوط على هذه الرمال.

النجوم، هذا هو الحل، سأسترشد بالنجوم.

جفلتُ حين تحرك الكائن ناحيتي، سيقانه طويلة حقًا، بعكس رقبته التي لم يكن لها وجود، فقط رأسٌ تمساحيُّ التكوين ذو فكٍّ طويل للغاية، رأس ملتصق بكتف ضيقة. كائنٌ في منتهى القبح.

تحركت مبتعدًا عنه محاولا الاحتفاظ بتوازني بعد أن استمرت الأرض في الاهتزاز كأنها أمواج. أمواج؟؟ نعم هذا هو ما يحدث. إن الأرض تتصرف بالضبط مثل الأمواج التي أسمع صوتها.

نظرت خلفي فوجدت الكائن يتحرك ناحيتي وهو على نفس وضع الجلوس، يزحف على بطنه وأطرافه الأربعة بينما يتدلّى لسانه الأسود من جانب فمه الطويل.

يا إلهي، ما هذا الشيء؟

بدأت في صعودِ التلّ بصعوبة وقد بدأ شعور بالغثيان يتملكني لكني

تجاهلته ونظرت فوقي. لا تفقد طريقك الآن يا چوزيف، ليس في هذا المكان، ليس وهذا الكائن المخيف يزحف ناحيتك. ليس و...

ما هذا؟

ما هذه التكوينات النجمية؟

سنون طويلة قضيتها في البريّة جعلتني أحفظ خريطة النجوم كما أحفظ كف يدي، لكن ما كنت أنظر إليه كنت أراه للمرة الأولى. كأنها سماء عالم آخر.

حسنًا، دعنا من النجوم الآن، فلم أكن في حالة تسمح بدراسة ما رأيته فوقي. أغمضت عيني محاولًا السيطرة على أعصابي وقد عدت لأرتجف من جديد.

"مش هنطلع من هنا يا جطّان".

كانت جملة فاطمة التي تذكّرتها في تلك اللحظة. ثم أتى بعدها ما قاله الشيخ ياسين: "البلد دي ليها تجاليد يا خواچة، ولو كسرتها هندفع كلنا التمن".

فتحت عيني لأنظر خلفي.

لقد بات شبيه الكلب على بُعد خطوات مني. بصعوبةٍ أبقيت عيني مفتوحة وارتكنت على ذراع المعول أتأمل الكائن الخرافي، بعد أن نجح الدُّوَار في أن يُضعف عزيمتي ويُثنيني عن محاولة الهروب. كان يشبه كثيرًا وصف المصريين القدماء لأتباع الإله "سوبيك"، بلمسته التمساحية التي لا يمكنك الخطأ فيها. حوله هالة سوداء فاسدة غير مرئية جعلت قلبي ينقبض وصدري يختنق، له وجود روحاني عفن. لكن بالرغم من هذا فلم أسمع له صوتًا إلا اللّهاث.

ثم جاء العويل الأسطوري.

هنا خانتني ساقاي لأقع جالسًا على ركبتيّ دون أن أحاول حتى معرفة

مصدر الصوت الذي رجَّ الصحراء. ما استطعت تمييزه هو أنه كان مزيجًا من خُوار بقرة تُذبح وهدير جمل لكن بقوة ألف حيوان.

كأن الشيطان نفسه يبكي، زئير كدت أفقد السيطرة على مثانتي بسببه، بل إن شبيه الكلب نفسه انتفض حين سمعه.

إذًا لم يكن هو مصدر الصيحة الكابوسية، بل شيء أبعد وأكبر و... أقدم.

ما الذي يحدث؟

ما الذي وضعت نفسي فيه؟؟

"فاطمة...".

ناديت بصوتٍ مرتعش منهك وأنا أستلقي على ظهري مستسلمًا لمصيري ونظرت للسماء. حركت رأسي يسارًا لأجد شبيه الكلب يتشمَّم الهواء باحثًا عني.

يرفع رأسه ليعوي من دون صوتٍ ويقترب.

هذا هو الثمن إذًا. كم كنت أحمقَ مغرورًا.

ما الذي أيقظته في الصحراء؟

"الصحرا دي مَحدّش عايش فيها ولا بيجيها؛ لأن فيها مكان اللي بيروحله لحالَه مبيرجعش منه"، هكذا حذرني ياسين، وهكذا هزأت به. دون أن تتوقف الرعدة التي سيطرت تمامًا على أوصالي، أغلقت عيني وبدأت مقاومة جسدي للبرد والرعب تخور. لكن أذني ظلّت تتابع اقتراب الكائن القذر مني.

إنه على بعد أذرع.

لنذعُ أن تكون أسنانه حادة بما يكفي لإنهاء الأمر سريعًا.

إنه يتشمَّمني الآن. صوت لَهاثه العالي يكاد يطغي على صوت الأمواج

المتلاطمة.

يا لرائحتك العفنة!

يعَضُّ على ردائي. يجذبني بعنف.

هذه أسنانه تنغرس في كتفي.

يا للهول!

ما هذا الألم؟

مهلًا.

لقد توقف.

أشعر به واقفًا بجواري بلا حراك، أسمع صوت لَهاثه الأجَشّ وأشتمُّ رائحته العطنة.

فتحت عيني لأجد أن الأرض قد توقفت عن التمايل لكن صوت الأمواج ظل مستمرًا. أما شبيه الكلب فقد كان فوق كتفي تمامًا ينظر في اتجاه الشرق.

فتح فكّه الطويل عن آخره وزأر من دون صوت قبل أن ينتفض مبتعدًا.

آلام كتفي لم تعُد تُحتمل.

لم تكن تلك عضّة حيوان.

بل عقاب لا يحتمله بشر، عقاب من قلب الجحيم.

هناك خطوات أخرى تقترب، أشعر بها تصارع الرمال.

كتفي!! ما هذه النيران التي تسري في جسدي وتكوي روحي؟

كادت جفوني أن تنغلق وكاد جسدي أن يستسلم، لكني تمكنت من رؤية شخص يقف بيني وبين الوحش الكابوسي. ثم رأيت وجهًا أعرفه

جيدًا.

سقطت جفوني وأنا أردد جملة واحدة:

"وَدِّيني لفاطمة يا إبراهيم".

انحنى عليَّ ليفحص جرحي والقلق مُتجلّ على وجهه بأعتى صوره. ثم انتفض واقفًا حين وقعت عيناه على الحيوان الخرافي الذي وقف على مقربة منّا. لم يبدُ على الكائن المخيف أنه يهاب السيوف لكن بالرغم من هذا لم يهاجم.

بدأت الخيالات تتحرك حولنا بجنون ثم خرجت منها ظلالٌ لأرجل بشريّة. ليست ظلالًا كاملة لبشر بل الأنصاف السفلية فقط، تحركت في اتجاهنا وأحاطت بنا. لم يجد إبراهيم حلًا سوى أن يرفع سيفه ويلوّح به في دائرة.

- اجري يا إبراهيم!! سيبني. متدفعش تمن غلطة أنا عملتها.

ابتسم هازئًا من محاولتي للتخلص منه لكن اقتراب الظلال منعه من التعليق. تسمَّر مكانه والتفت باحثًا عن ذلك الصوت العجيب.

هل هذا... هل هذا صوت طبول؟

نعم، كان كذلك.

وهناك من يقف على التل.

شخص ضخم طويل الشعر أجربُه في جلبابٍ أبيض وتنورة مزدانة بخيوط بيضاء وأخرى سوداء.

يراقبنا.

أغمضت عيني وتشبَّثت بساق إبراهيم بكل قوتي، في نفس اللحظة التي ركضت ظلال السيقان باتجاهنا وانحنى الأخير ليحيطني بجسده. يا لي من أبله! لقد كان معي كنز مصر الحقيقي لكني لم أرَهُ.

انتظرت النهاية الكابوسية لكنها لم تأتِ بينما ظل إيقاع الطبول يعلو. فتحت عيني لأرى صاحب التنُورة وقد بدأ يدور حول نفسه.

إنه هو، ساكن الواحة... القبودان.

توقفت الظلال، التي كانت تبدو كأنصاف سُفلية لبشرٍ في بُعدٍ آخر، عن الاقتراب منّا وركضت باتجاه القبودان.

ما هذه الأنوار المتقطعة التي تأتي من ناحيته؟

هل يسطع اللون الأبيض من ردائه كلما مرَّ خيط أبيض ناحيتنا ثم يُظلِمَ مرة أخرى حين يمرُّ خيطٌ أسود؟... إني لا أفهم ما أراه.

نزل ساكن الواحة من فوق التل وبدأ يدور حولنا دون أن يتوقف عن الدوران حول نفسه، كأنه يخلق جدارًا خفيًا يمنع شبيه الكلب وأنصاف الظلال من الاقتراب منّا. مع كل دورة يكملها القبودان حولنا يزداد حجم تنُورته حتى صارت بحجم الوادي الذي كنا فيه.

ثم سقطت فوقي أنا وإبراهيم.

وحينها فقط فقدتُ وعيي من الألم.

*****

(٨)

أفهمتِ الآن سبب حيرتي في كيفية وصف ما مررت به؟

فقط ما جاء بعد ذلك هو ما أكّد لي أنه لم يكن حُلمًا. ما حدث بعد ذلك كان أقوى دليل على أن ما أخفته مصر عن الدنيا سيكون ثمن كشفه باهظًا. أقوى دليل أن النوايا لها ضَيّ لا يمكن إخفاؤه. كم كنت أحمقَ يا "خواجه"!

***

فتحت عيني لأجد نفسي في غرفتي الخشبية على فراشي غير المريح،

بينما سقطت إضاءة الشعلة المتراقصة على وجه زوجتي. قطّبت فاطمة حاجبيها وهي تستمع لجاريتها السخيفة التي كانت توسوس في أذنها:

- هتكوني أهم عنده من المَيّة اللي بيدوّر عليها زيّ المجذوب؟ يعنى سابنا وسط الصحرا وراح وراها في إنصاص الليالي زي اللي بيعمل عاملة. بكره لما يسيبك...

- بس يا بتّ. إنتِ إيه؟ مش بتتهدّي؟

لمحت إبراهيم خلفهما يستند على إطار باب الغرفة وهو يتابع حوار زوجتي مع جاريتها في صمت. لاحظت أن الأخيرة لم تتخلَ عن زينتها وتبرُجها رغم شدة الموقف، لكنه لم يساعدها في الظهور بجانب جمال زوجتي الطبيعي. أو هكذا ظننته هدفها.

- يا ستي أنا عايزة أوعّيكي. الخواجات مش زيّينا.

- اخرسي خالص ونجّطينا بسكاتك.

كالعادة تلعب إعتماد، الجارية المخلصة، دورها على أكمل وجه. فهي، كما أوصتها حماتي العزيزة بكل تأكيد، لا تترك فرصةَ إلّا وتحاول الوقيعة بيني وبين زوجتي. في بادئ الأمر كان لديها كل الحق، أتحدث عن حماتي، فقد كان زواجي من فاطمة لغرضٍ في نفسي غير ما كنت أبدي. وكيف كنت أضمن تعاون المصريين الكامل معي بطريقة غير المصاهرة؟ لكني الآن، وبكل ثقة، أعترف أني أعشق التراب الذي تمشي عليه زوجتي.

وكيف لا وهي في نظري كل نساء العالم... وأكثر.

لولا فاطمة لبقيت البريطاني العنيد الذي يشعر أن العالم بأكمله قد خُلق لخدمة مصالحه. كنت سأظلّ مقتنعًا أنه لا يوجد شيء اسمه إرث وطني يخص أهل البلد دون غيرهم. لولا فاطمة لظللتُ أعمى كسيحًا.

ثم جئت لهذا المكان لأعود كما كنت، أعمى كسيحًا.

- طيِّب أجَهِّز حاجاتنا علشان نمشي؟

سألت اعتماد لتجيبها فاطمة:

- ماجولنا مش هنمشي في سواد الليل. لازمن في نور ربنا وادعي بس إننا نلحَج نوصل طريج الصعيد قبل ليل بكره ما يهِلّ.

- ليه؟ هيحصل إيه يعني لو الليل دخل علينا وإحنا في الصحرا؟

قبل أن تجيبها فاطمة قررتُ أن أدخل في الحوار. وأول ما نطقت به، بعد أن اعتدلتُ جالسًا، كان شيئًا في منتهى الغباء:

- فين الكيس الجلدي؟

التفتت فاطمة لترمق إعتماد التي ابتسمت منتصرة كأنها تقول "ألم أقَل لك؟" فنهرتها فاطمة قائلة:

- امشي يا بت من هنا.

استدارت الجارية مغادرةً لينزاح وجودها الثقيل عن صدري، لكن ما إن حولت بصري إلى فاطمة حتى علمت أني ما زلت في مأزق. انتظرت الأخيرة حتى ابتعد صوت الخلخال الذي ترتديه الجارية قبل أن تسألني:

- ممكن تفهِّمني إيه اللي عملته ده؟ ليه انسلَتّ إكده ودخلت الربع؟ ليه ما سمعتش كلام الشيخ ياسين؟

رميت إبراهيم بنظرة خاطفة لأجده قد عقد ذراعيه أمام صدره وهو ينتظر إجابتي، التي جاءت مهزوزة:

- فاطمة، أنا سمعت صوتك. وأنا في وسط كابوس ربنا وحده يعلم كان إيه، سمعتك بتنادي.

اختلجت ملامحها للحظة لكنها تمسكت بتعبيرها الجامد وقالت

- أنا ما زعَّجتش عليك.

- بس أنا سمعت صوتك.

تجاهلت جملتي وقالت:

- هو أنا غلطت لما صدَّجتك يا جَطَّان؟

وكأني لم أسمعها بحثت بعيني عن الكيس الجلدي، لكن آلام كتفي منعتني من التحرك بِحُريَّة.

- يعني البت إعتماد كان عندها حَجّ.

ضغطت على شفتيّ مغتاظًا وقلت من بين أسناني:

- عندها حق في إيه؟ البتَ دي بتحقد علينا يا فاطمة وعايزة تخرب بيتك. متسمعيش اللي بتقوله.

جاء صوت إبراهيم الرزين:

- أنا مستنِّي إجابتك على سؤال زوجتك يا قطَّان.

تحسست آثار العضَّة الجهنميَّة وأجبته:

- هيكون عملت إيه يعني؟ أنا هنا لمهمة محددة. ولو اللي اسمه قبودان ده مش هيساعدني هوصَلّه لوحدي.

تأملت في ملامحهما لوهلةٍ لأجد لومًا وعتابًا لا يُوصَفان قبل أن يستدير صاحبي المخلص ويغادر.

- إبراهيم!

ناديته ليقف عند الباب قبل أن قول:

- أشكرك.

- ده واجبي.

قالها وتركنا دون أن ينظر إليّ.

- صاحبك ده كان هيموّت نفسه علشانك. هتجدّر نِعَم ربنا عليك إمتى؟ مش راضي ليه باللي جَسَمه ليك ربنا؟ اللي عندك مش كفاية؟ إحنا إكده مش كفاية؟ لسّاك بتجرى ورا اللي في دماغك.

قالتها فاطمة لتجعلني أسترجع ما حدث في الصحراء، لقد أنقذ هذا الفارس حياتي. لكن من ماذا؟ ما الذي كان معي في الصحراء؟ ما الذي نجوتُ منه لتوّي؟ والأهم هو... كيف نجوت؟

صوت فاطمة و... التنُّورة... نورها المتقطع كأنه تعاقُب ليل ونهار.

أطرقتُ مفكرًا ولاحظَتْ زوجتي شرودي لكنها ظلت ترميني بنظرة اتهام قاسية. تيقنت لحظتها أنني قد استنفدت جميع أجوبتي الغبية وجاء الوقت كي أعالج ما كسرته. مرت الثواني بطيئةً شعرت فيها أني طفل مذنب يبحث عن تبرير ليُرضي أمه. تأوَّهت وأمسكت كتفي متعمّدًا لعلها ترأف بي، لكن أحدهم طرق الباب لينجدني من نظراتها الثاقبة. نادت دون أن تحول عينيها عن وجهي:

- ادخل!

دخل علينا الشيخ ياسين ليقف على طرف السرير وعلى وجهه تعبير أقرب للاحتقار منه للغضب. انحنى عليّ وطلب منّي هامسًا أن أصف ما رأيته بالضبط ففعلت بقدر ما أسعفتني به ذاكرتي. استمع بوجهٍ مُكفَهِرٍّ لكن ما إن ذكرت له شبيه التمساح ووصفت هيئته العجيبة حتى هرب الدَّمُ من وجهه.

- رُحماك يا ربّي. إنت عارف إنت عملت إيه يا خواجة؟

قالها ياسين لأحثَّ عليه قائلًا:

- تاني السؤال السخيف ده؟ اسمحولي أقول إن **This is nonsense** .

إحنا هنا لسبب واضح واللي حصل...

ثم تذكّرت ما حدث فرفع الشيخ ياسين حاجبيه وابتسم قائلًا:

- ها؟ إيه اللي حصل چنابك؟ ما تكمل يا خواچة؟

- بقولّك إيه يا ياسين، بلاش "خواجة" دي. أنا مصري زيّكم.

- لأ يا مستر جوتون، إنت إنكليزي بتشتغل لحساب الفرنصاوية. إنت خدعت الكل واللي عملته دَهُوَن عَرَّضنا كِلّاتنا للخطر. يعني فكرك مَحدَش بيدخل الربع ده ليه؟

استجمعت نفسي بسرعة وفركت جبهتي مفكرًا قبل أن أقول:

- خلاص، زيّ ما بتقولوا مش هيفيد البكاء على اللبن المسكوب. كل اللي أنا عايزه دلوقتي هو الكيس الجلدي بتاعي. هو فيه العيّنات...

قاطعني الشيخ ياسين قائلًا:

- مَحدَش هيهوّب ناحية الصحرا دِيَّة تاني يا خواچة. كفاية اللي إنت ناديته من چواها. إنت چيت علشان تلاجي مَيَّة، ولاجيتها خلاص. كَمّل تجريرك بجَى وابعته لسِيدَك.

استدار بعدها مغادرًا وخلفه فاطمة التي رمقتني بنظرةٍ كلها لوم قائلة:

- الكيس برضك؟

ثم أخذَت نفسًا عميقًا وقالت:

- أول ما النهار ما يطلع يا چوزي يا سندي هنمشي من إهنَى. ولما نرچع البلد هيبجَى لينا كلام تاني. واحمد ربنا إن صاحب المكان ما طردناش.

- القبودان؟

قلتها هازئًا لكني مسحت الابتسامة الساخرة بغتةً حين لمحته خارج الغرفة يربض بين الشجيرات. سقط ضوء المشاعل على وجهه الطويل

ذي العظام البارزة لأجده يرمقني بمنتهى القوة. ثم سمعت آخر ما قاله ياسين قبل أن يغلق الباب:

- اللي مش عاجبك ده هو السبب إنك لسه عايش يا خواجة. وجُلنالك ماسمُوش قبودان، دي شغلانته. صاحب المكان ده اسمه "هارون".

*****

(٩)

إذا كان هو السبب في نجاتي، ذلك البدوي الغريب، ذلك الـ"هارون". والطبول التي سمعتها كانت حقيقية وكذلك رقصته الدائرية، رقصة التنورة المصرية التي يخاطب بها الراقص عالم الروحانيّات وهو يدور حول نفسه كما يدور الكوكب في الفلك. والتنورة نفسها، التي ازداد حجمها لتحتويني أنا وإبراهيم، كل هذا لم يكن هذيانًا من فرط الألم.

هارون هذا وراءه سرٌّ رهيب، هذا المكان كله وراءه سرٌّ رهيب.

ويجب أن أعرفه.

أمسكت كتفي وتحسّست الضمادات متوجعًا، لم يكن ذلك ألمًا طبيعيًا. اخترق أنفي رائحة البنّ القوية واستنتجت أنهم قد وضعوا البعض منه على مكان العضّة. ثم انتبهت لصوت الشيخ ياسين الذي ارتفع بأذان الفجر وأسندت ظهري على الحائط لأنظر خارج النافذة، فوجدت استعدادات الرحيل على أشُدّها.

لقد كانوا يعنون ما قالوا إذًا. لا بأس، لنرحل، سوف أعود هنا ومعي أضعافهم رجالًا فرنجة وعَرَبَويّة لاستخرج "كَنزي".

تحاملتُ على ألمي وخرجت من الغرفة متجهًا لركن مستتر خلفها كي أغتسل. هناك وجدت الجنود والعمال يتوضئُون بينما وقف إبراهيم منتظرًا. أومأت برأسي مُحيّيًا إيّاه ففعل المثل ثم صاح بجنوده أن يسرعوا. ذهبت لأقف بجواره ودرت ببصري في التلال المحيطة التي

بدأ سواد الليل يعلن انسحابه من فوقها.

- إنت عارف إني هاجي تاني، مش كده؟

هزَّ رأسه بالإيجاب وهو يمطُّ شفتيه فاستطردت:

- وعايزك تيجي معايا.

- أنا مش هاجي هنا تاني يا خواجة.

سنوات طوال قضيتها مع الفارس المصري قليل الكلام، جعلتني أعرف متى يكون الحوار معه بلا طائل؛ خصوصًا حين يناديني بهذا اللقب. عندها يصبح الكلام رسميًا وخاليًا من الوُدّ.

- طيب ما إحنا هنا يا إبراهيم، خلّينا نقضي النهار هنا. منها أستكمل المهمة اللي جينا علشانها ومنها نمشي في الليل، والقمر طالع وهيدلّنا.

أشار للقمر في السماء ثم للتلال المظلمة المحيطة بالواحة وقال:

- إنت شايف ضوء القمر؟

قالها وانصرف. لم أنظر لما يشير إليه ولم أكن بحاجة لأن أفعل؛ لأنني كنت أعلم أن القمر لم يعُد يجود بنوره علينا.

أخذت نَفَسًا عميقًا وذهبت لأتوضأ، لكن ما إن بدأت حتى شعرت بحركة فوق الغرفة. رفعت رأسي فوجدت هارون على قمة السلم الخشبي الذي يمتد للسماء ولا يقود لشيء.

ما الذي يفعله؟ سألت نفسي وأنا أراه ينظر جهة الشرق تارةً قبل أن يحول نظره جهة الغرب، كأنه ينتظر شيئًا ما. ثم انتبهت إلى أسراب الحمام التي جاءت لتطوف حوله قبل أن تستقر على أفرع الأشجار. كيف وصل طائر برقّة الحمام إلى هذا المكان الموحش المُتطرّف؟ وبهذه الأعداد؟

شعرت برذاذِ ماءٍ في وجهي، لكنه كان مالحًا. انتبهت للماء الذي يصبُّه

لي نوح وأنهيت الوضوء سريعًا.

في تلك اللحظة لاحظت الحركة، عند أطراف الواحة، شيءٌ ما كان يقترب.

جفلتُ متراجعًا حين لمحت ظلًا عملاقًا يُناهز النخل طولًا. لم أرَ له معالم تساعدني على استنتاج ماهيّته، فقط كتلة مظلمة هائلة استقرت على حدود الواحة بينما مالت قمتها واقتربت من هارون فوق السلم المنصوب فوق سطح الكوخ، كأنها تنحني حتى تصبح في مستواه. لكن البدوي لم يغير وضعه، بل ظل مستندًا على إفريز السلم بقبضته الحديدية.

لحظتها شعرت أن هارون هذا له قوة عجيبة، فقد ظل مُحدِّقًا في قمة الظِّلّ الهائل دون أن يهتز، كأنه يقيم معه حوارًا غير مسموع. ما كان مسموعًا هو صوت رفرفة أجنحة غير مرئيّة تملأ الواحة، وتلك الطبول، دقات يتماشى إيقاعها مع انقباضات الظِّلّ وحركات أطرافه العملاقة.

كأن الظلّ... يرقص عليها.

نظرت حولي لعلّي أجد مَن يشاركني تلك اللحظة المجنونة، لكني لم أجد سوى ذلك القزم الصغير الذي وقف كالتمثال جاحظ العينين، وهو يحدق في المشهد الرهيب وفي يده دورق المياه. تحاملت على ألم كتفي وأزحت أغصان الحشائش التي حالت بيني وبين مساعدي الضئيل، ثم همست: "نوح".

انتفض مكانه والتفت إليّ مذعورًا وهو يشير للظل العملاق:

- الثيف!

أردفت بنفس النبرة الهامسة:

- روح نادي إبراهيم.

تراجع الرجل القصير بظهره لكن ليس باتجاه صلاة الفجر المقامة، بل

ناحية الشعلة المغروزة في الرمال والتي منع وصول ضوئها لجهة الغرب وجود تلك الصفيحة المعدنية. همست مناديًا عليه مرةً أخرى، حاولت أن أثنيه عمَّا ظننته خطأً جسيمًا، دون جدوى. وكانت النتيجة حتمية.

فقد أمسك القزَم الشعلة وأدارها ليسقط ضوؤها على اللقاء الأسطوري الذي لم يكن مقدرًا لبشرٍ أن يروه.

*****

(١٠)

ما الذي كان يسكن في هذا الرَبع؟ ما الذي أيقظته؟

انعتيني بالسذاجة، بالطمع، بالكِبر أو بالغرور، بأي شيء يروق لكِ، فأنا لن أجادلكِ فقد كنت كل ذلك، وأكثر لكني أؤكد لكِ أن في اللحظة التي سقط فيها ضوء التي سلَطها نوح على هارون أعلى السلم ورأيت فيها الكيان العملاق الأسود كالليل الذي خُلقَ منه، حتى علمت حجمي الحقيقي. عرفت لحظتها ما الذي يعنيه أن تكون على رمال أقدم أرض وَطئها بشر، أن تكون في حضرة تاريخ ظَلَ بعيدًا عن أطماعنا حتى جئت أنا لأعبث به بمنتهى الحمق.

حمدت ربي أن أنوار عالمنا لا تُظهِر ما يعيش في غيره، لكن بالرغم من هذا، بالرغم من أنني لم أرَ تفاصيله جيدًا، رأيت ما يكفي. دخان أذكَن انساب فوق السور الصغير الذي كان يحدُّ الواحة ليلتف حول القزَم الذي أسقط الشعلة رغمًا عنه، فتبتلع الرمال نارها وينهار هو على ركبتيه يرتعد ذعرًا. الذعر الذي انتقل إليَّ بكُلَ قوةٍ حتى ظننتُ أني لن أتمكن من الصياح، ناهيك عن الهرب، لو انتبه لي هذا الشيء.

كانت لحظةً قصيرةً تلك التي صرخ فيها نوح بعد أن احتواه الكيان المظلم ورفعه كأنه عملاق يمسك فأرًا. ثم سمعت إبراهيم يصيح:

- الكل يدخل البيت!!!

لكني لم أستطع الحراك. ليس وأنا أرى نوح يطير في الهواء ويرتطم بإحدى النخلات ليسقط بلا حراك. ثم يهجم عليه الكيان المبهم ويرفعه مجددًا، ليقذفه بكل قسوة ليتحطم رأسه على إحدى الصخور.

المرعب في الأمر أن نوح لم يصرخ، بل أخذ يضحك.

كيف يضحك وهو يتمُّ عقابه بتلك الطريقة الدموية؟

كلما طار خارجًا من وسط الظلام ليرتطم بصخرة أو نخلة، ارتفعت ضحكاته لتغطي على صوت تكسير عظامه.

- يا قطّان!!!

كان نداء إبراهيم الذي لم ينجح في صرف انتباهي عن المشهد المرعب. ثم جاءت تلك الجثة التي ألقِيَت أمامي مهشمة، وقد برزت عظامها من أماكنها واخترقت الجلد لتجعلني أتجمد في مكاني جاحظ العينين. لحظات قصيرة مرعبة مرت عليّ وأنا أحدّق في بقايا نوح الذي رقد مبتسمًا، لحظات انتهت بما أقرَّ أنه كان أكثر ما سمعت في حياتي هولًا.

"العب معايا".

كلمتان سمعتهما ولم أصدق أذني.

كيف لم أفقد وعيي أو يتوقف قلبي ذعرًا وأنا أحدق في رأس نوح المهشم، وقد تحركت ملامح وجهه إلى اليسار بفعل القوة الارتطام الغاشمة؟ كيف وأنا أرى فمه الذي أصبح في نصف وجهه الأيسر وبرزت أسنانه وعظام وجهه من حوله، يتحرك من نفسه وينطق بتلك الكلمات اللعينة:

"العب معايا".

ربما بسبب إبراهيم الذي تجاهل هتافات ياسين وجاء ليجذبني من

ذراعي. أو ربما بسبب ذلك الذي دار حول نفسه بتنُّورته فوق السُلَّم والحمَام يخفق حوله بجنون، ليشتت انتباه الضيف الأسود العملاق.

أو بسببها هي.

فقد فتحت فاطمة نافذة غرفتها التي تطلّ على المشهد الكابوسي وصاحت بي كي أفيق. حوَّلتُ نظري بصعوبةٍ عن جثة نوح ونظرتُ إلي وجهها لأجد فيه هلعًا لا وصف له. هنا أفقتُ من حالتي واستسلمت ليد إبراهيم التي أمسكت بذراعي كي نقفز معًا من النافذة ونغلقها خلفنا .

*****

(١١)

عرفت لحظتها حجم خطئي.

لم يكن هناك ما يمكنني قوله كي أبرِّر ما حدث، ولم ينتظر أحدٌ مني تبريرًا. مكثت مع فاطمة في غرفتها، مع ياسين وإبراهيم. صوت الرفرفة الهادر الذي كان يطوف حول الكوخ كاد أن يصمَّ آذاننا. ثم وضعت فاطمة كفَّيها على أذنيها صارخة:

- كفايااااة!!!

هنا سكت كل شيء.

فتحت عينيها وتلفتّت حولها وكذلك فعلنا جميعًا.

لا شيء، لا صوت ولا حركة.

- إيه اللي حصل؟؟

كان سؤالي بنبرة مرتعشة قبل أن يقول إبراهيم:

- أنا لازم أطلع أشوف الجِمال والخيل.

- إنت مكنتش سامع؟ تطلع إيه؟

كان سؤال ياسين مستنكرًا ليجيب عليه إبراهيم:

- الرفرفة وقفت. لو عايزين نمشي من هنا يبقى لازم أشوف اللي حصلهم

- مش بس الرفرفة اللي وجفت، كل حاجة وجفت.

قالها ياسين محذرًا فأنصتنا جميعًا بكل تركيز لنجد ما قاله صحيحًا؛ لقد سكنت الصحراء تمامًا كأن كل شيء بالخارج قد صار عدمًا. تقدم إبراهيم لينظر من بين فتحات خشب النافذة ويده تعتصر سيفه.

- إبراهيم!!

حذّره ياسين مرةً أخرى ليشير إليه إبراهيم بإبهامه كي يحثّه على السكوت، قبل أن يمدَّ يده ويفتح القماشة ذات اللونين: الأبيض والأسود التي أسدلت على النافذة والبيت كله.

- حد يفهّمني حاجة!!

صحت فيهم بكل توتري وخوفي ليُسدل إبراهيم الستارة بعنف ويلتفت إليّ بوجه محتقن قائلًا:

- إنت اللي عملت كده يا چوزيف!!

- أنا؟ نوح... نوح هو اللي...

بترت ردي الذي خرج مني يائسًا فلم أتوقع هجومًا منه بالأخص، ثم نظرت إلى زوجتي لأجدها هي الأخرى تنظر إليّ بقوة منتظرةً كلماتي.

- رحت لساكن البَرّ التاني برچليك، رحت تخبّط على باب الضيف.

التفتنا لمصدر هذه الجملة لنجد الشيخ ياسين يُحدّق بي بمقت:

هنا هتف إبراهيم بعصبية:

- باب إيه؟ حد يفهمنا حاجة!

لم يُجِب الشيخ ياسين، وتبادل مع فاطمة نظرة خاطفة لكن إبراهيم أصرَّ قائلًا:

- قولَنا يا شيخ ياسين، إيه اللي عايش في الربع ده؟ ليه المنطقة دي مُحرَّمة؟ إيه الضيف ده؟

- تُجَصُد اللي كان عايش إهني، اللي الخواچة سمع نداه وراح وراه زي المجذوب. ممنُوش عازة الكلام ده يا براهيم، في حكاوي تتحكي وحكاوي لازمن تموت. والحكاية دهيَّة لازمن تتنسي. والمكان اللي حفر فيه ده كَماني، لازمن يتنسَي.

تأمله إبراهيم مفكرًا قبل أن يمنعني من النطق بأن قال:

- هنمشي من هنا، موافق، بس لما نوصل القاهرة هيبقى ليَّا كلام تاني معاك يا ياسين. وساعتها هفهم منك ليه خبِّيت عنّنا الكلام ده.

- أنا كنت زيِّي زيَّك، معرفش ليه الربع ده ممنوع علينا، لغاية ما هارون جالِّي ساعة ما چينا، لما رفض يساعد الخواچة علشان عارف نواياه الصحرا دي بتجرا الجلوب ادعي ربنا بس إننا نوصل لنَصّ الطريج جَبل نص النهار إبراهيم أفندي. لأننا لو ملحجناش لازمن نرجع هنا تاني.

كان تعقيب ياسين ليجعل إبراهيم يستدير إليه ويستفسر:

- ليه؟

- لأننا بعد اللي حصل ما ينفعش نكون في الصحرا لما الليل يچي. لو ما وصلناشي لنص الطريج جَبل نص النهار ساعتها الليل هيچي علينا في الصحرا. لو ما لحجناش يبجَى لازمن نرجع نجضِي الليل إهني. لأنه لو دخل علينا الليل...

لم يُنهِ ياسين كلامه ولم يكن في حاجة لأن يفعل، فقد شهدنا مصير نوح، كنّا نعلم جميعًا أننا في عالم مجهول لا نعرف قواعده ولا ثوابته. التزمت أنا الصمت تمامًا في هذا المشهد المصري حتى النخاع، وفكرة

واحدة تصرخ في ذهني وأنا أسترجع ما حدث لنوح وكل ذنبه أنه كان يعينني في خططي الخبيثة.

لقد كنت أنا من أيقظه.

فما سيكون مصيري؟

*****

(١٢)

كان مشهد القافلة كلوحة زيتيّة ثابتة، لا يتحرك منا أحدٌ ولا يُصدر صوتًا. حتى الجمال العشرة والحصانان التزمت الهدوء كأنها شعرت بما يحدث وفهمته. ظللنا نراقب الشَّفَق وننتظر اللون الأصفر كي يضيء السماء، بينما أطرقت أنا مفكرًا ووجداني كله موجَّهٌ عكس الاتجاه الذي كانوا ينظرون إليه، إلى جهة الغرب، إلى مكان حددته بصخرتين عليهما علامتا × و+.

ثم انتبهت إلى هارون الذي اعتلى السُلّم الذي لا يقود لشيء. وقف كالتمثال لا يتحرك منه غير تنُّورته ذات الثنايا البيضاء والخبايا السوداء والتي كانت تتلوى فوق جلبابه الفَضْفَاض. يطير شعره الرَّمادي المجدول مع الرياح المحملة بالرمال دون أن يعبأ بها. أسفل السلم، وقف الشيخ ياسين يقيم حوارًا مع البدوي المُتصوِّف.

ثم سمعنا الطبول، دومًا الطبول. كأن هناك طبلةً خفيَّة تطوف في فلك هارون.

- ما تتعبش نفسك في التفكير، مش هنرجع هنا تاني.

التفتُّ لإبراهيم الذي قال جملته تلك وهو جالس على حصانه بجواري شاخصًا جهة الشرق. تحسَّستُ موضع العضّة متعجبًا، فلم أعُد أشعر بالألم نهائيًا، ثم قلت:

- إنت هيبقى ليك جزء كبير من الفضل لما اكتشافي ده يتعرِف.

رمقني بنظرة جعلتني أشعر بسخافة ما قلته قبل أن يشيح بوجهه بعيدًا. حوَّلت بصري للهَودَج الذي جلست بداخله فاطمة لأجدها تُسدل الستار عليها بعد أن أعطتني نظرةً مماثلة، كأنّي قد خذلتها بالفعل.

- هو إحنا منتظرين إيه؟ كان ممكن نتحرك أول النور ما طلع.

- تعليمات القبودان.

أجابني إبراهيم قبل أن يسألني دون أن ينظر إليّ:

- أخبار كتفك إيه؟

- مش شاعر بالجرح. بس مش التعليمات برضه هي اللي بتقول إننا لازم نوصل مكان معين قبل نص النهار؟ ليه ضيَّعنا الوقت ده كله؟

التفت إليّ الفارس الصارم وتنهَّد قائلًا:

- مش عارف، ولا فاهم يا قطّان. كل اللي أنا عارفه إن اللي بنعمله ده هو الطريقة الوحيدة للنجاة من المصيبة اللي إنت صحّيتها في الصحرا.

- الضيف؟

حدَّق بي دون أن يعلق فهربت بعيني بعيدًا وغمغمت وأنا أرمي هودج فاطمة بنظرة خاطفة:

- الضيف ده شعَر بينا في لحظة بعينها يا إبراهيم، لحظة ما فاطمة سندت على الشجرة الميتة دي.

- متضحكش على نفسك يا خواجة، ممكن يكون شعر بيها لحظتها بس إنت اللي چبته علينا بطمعك وجشعك.

التفتنا لقائل تلك الجملة، للشيخ ياسين الذي نزل وخرج من الواحة وانضم إلينا عند طرفها الشمالي. هممت بالاعتراض على تلك المعتقدات التي تنافي العقل والمنطق. أومأ إبراهيم إليّ بأن لا طائل من الجدال

بينما استطرد ياسين وهو يعتلي ناقته:

- إحنا اللي غلطانين إننا صدَّجناك. الخواجة دايمًا طمَّاع. من أول ما ربنا خَلَج البشر وبلدنا مطمَع لِلّي يسوَى واللي ما يسواش.

لم أستطع أن أكتم غيظي فصحت فيه:

- إنت نسيت نفسك ولا إيه؟ أنا البلد دي مديونة لي بحاجات كتير. مش بس ليَّا، لبريطانيا كلها. حتى فرنسا، ليها أفضال عليكم.

لمحت وجه إبراهيم الذي احتقن غضبًا بينما رمقني الشيخ بنظرةٍ كلها احتقار، قبل أن يحوِّلا عينهما لمن كان يمشي خلفي. التفتُّ لأجد هارون يخترق الواحة متجهًا إلينا. راقبت البدوي الذي كان طوله يناهز المترين أو يزيد وهو يتحرك بطريقته العجيبة، التي توحي بأنه يمشي عكس ريح عاتية أو تيار نهر قوي. فقد مال بنصف جسده للأمام وهو يحرك ذراعيه حول صدره بحركة دائرية أثناء سيره البطيء.

هنا قال الشيخ ياسين ما أكَّد لي التشبيه الثاني لتزداد حيرتي من كل شيء أضعافًا:

- خلاص هانت. الجذر ابتدى والشمس هتطلع أهَه.

- جذر إيه؟ هو إحنا في بحر؟

سألته مستنكرًا لكنه تجاهل سؤالي وصاح في الرَّكب:

- استعدوا يا رجالة!!!

لكز العمال الجِمال لتنهض وتأرجح الهودج حتى استقرَّ به الجمل واقفًا. كان لا بُدَّ أن أسأل وأنا أتبادل مع إبراهيم النظرات لأجده في نفس حيرتي:

- هو فيه مَدّ وجَزْر في الصحرا؟ وإيه علاقة الشمس باللي بيحصل ده؟

بطبيعة الحال لم أجد من يُجيبني وقد بدا لي أني قد استنفدت

رصيدي كله مع الجميع. هممت أن ألِحَّ بالسؤال لكني سمعت ما منعني.

صوت الطبول.

مع كل خطوة اقترب بها القبودان منّا صار الصوت أكثر وضوحًا.
نظرت لإبراهيم لأجده منتبهًا إليّ بشدة فسألته:

- سامع؟

هز رأسه بالإيجاب وهو يحدق في وجهي بارتياب. أشفقت عليه، فهو حتمًا يشعر أنه بلا حيلة مع كل ما يحدث حولنا. وبمعرفتي به كان هذا كفيلًا بجعله في قمة التوتر. سرعان ما التفتنا لساكن الواحة الذي اخترق صفوفَنا ليقف أمام الهودج. قطّب إبراهيم حاجبَيه متعجبًا بينما تقدمت أنا خطوةً ناحية هارون الذي وقف بأدبٍ جمّ.

ما الذي يفعله؟

فوجئت بزوجتي تزيح الستار وهي تمسك باليشمك الأبيض على وجهها بيدها الأخرى وبدأت في الاستماع لهارون. ظل الموقف على هذا الوضع للحظةٍ طويلةٍ حتى بدأت فاطمة في البكاء وهي تهزّ رأسها لتنفي أمرًا ما. ثم أخرج القبودان من جعبته شيئًا أسودَ استنتجت أنه ما أخرجه من الرمال. اقتربت حتى بتُّ خلفه بأمتار قليلة وصُعقت حين رأيت قوقعة سوداء ضخمة في يده. للحظةٍ تبادلت فاطمة النظرات مع هارون قبل أن تُنهي ترددها وتأخذ منه القوقعة ثم تسدل ستارة الهودج. بعدها التفت الأخير إليّ ليجفّ حلقي بغتةً وأفقد إحساسي بمن حولي، وأنا أحدق في عينيه الغائرتين وملامحه الفرعونية الصارمة.

في تلك اللحظة سمعت الطبول مرة أخرى، خافتة، كأنها جزء من ترنيمة تهمس لي:

"أنت لست أول من يخطئ، ولا آخرهم. لكنها أخطاء من كثرتها... نَسِيتُها".

بعدها نظر هارون للشيخ ياسين الذي كان في حَيرَة هو الآخر. ثم بمنتهى الهدوء اخترق ساكن الواحة الحشد الصامت مرةً أخرى عائدًا ليصعد السلم الخشبي العجيب. ما إن وصل لقمَّته حتى جاءت أسراب الحمام كأنها ظهرت من العدم لتطوف فوقه، قبل أن تستقر على الأشجار والنخيل.

هنا أومأ هارون برأسه للشيخ ياسين بالموافقة ليهتف الأخير في الركب أن ينطلق.

* * *

لن أصف لكِ رحلتنا بالتفصيل فأنا لا أذكر معظمها. قد يبدو لكِ هذا غريبًا لكن منذ اللحظة التي غادرنا فيها الواحة توقفت ذاكرتي عن تخزين معظم ما رأيته. كنت في حالةٍ عجيبة، شاردٌ في الرمال أسفل أقدام حصاني معظم الوقت، إلا من لحظاتٍ قليلةٍ أنظر فيها خلفي باحثًا بعيني عن بقعة بعينها في الصحراء تركت فيها جزءًا مني.

وسبب شرودي كان بسيطًا للغاية، فما كنت أراه على الرمال كان عجيبًا: أضواءٌ براقةٌ تتلاعب بانسيابيَّة فوق الرمال التي أصبحت كأنها قاع بحيرة ضحلة صافية المياه. ولو أضفنا لها صوت الأمواج التي داعبت أذني بِرِقَّة لاكتمل المشهد.

كانوا يشعرون بي بطبيعة الأمر، أتكلم عن رفقائي وزوجتي بالأخص. فالأخيرة كانت لا تنفكُ تزيح جزءًا من ستار الهودج لترمقني بنظرة لم أفهمها. لكن لسببٍ ما لم أعُد آبَه.

لم آبَه بكلمات إعتماد التي ظلت توسوس بها في أذن زوجتي. لم أهتمَّ بهمسات العمال والجنود ونظراتهم المرتابة إليّ. ولا سهام الكراهية التي أطلقها الشيخ ياسين على ظهري. ولا حتى إلحاح إبراهيم المستفز عليّ وهو يمد يده إليّ بقربة المياه للمرة العاشرة.

ما الذي قاله؟ تساءلت كاظمًا غيظي، لا أسمعه ولا أريد أن أشرب. لم

أعد أشعر بالجوع ولا بالظمأ ولا التعب.

ومع اقترابنا من وجهتنا ومتابعة الشيخ ياسين لقرص الشمس، حتى فقد أفراد القافلة اهتمامهم بي وصبُّوا كل تركيزهم على الوقت الذي قارَب على النفاد.

اقترب منَّا الشيخ ياسين بناقته وقال مخاطبًا إبراهيم:

- لازمن نِسرِع يا إبراهيم أفندي. الوقت جَرَّب يخلص.

رفع الأخير عينيه للسماء وأجابه:

- ده مجرد اجتهاد. هنعرف المهلة بالظبط ازاي؟ مفيش قُصادنا غير إننا نكمِّل.

سألني إبراهيم عن سبب الابتسامة التي ارتسمت على شفتيَّ لكن

الشيخ اقترب منه ليهمس بشيء. استدار إبراهيم بفَرَسه لينظر للتلال والرمال اللانهائيَّة خلفنا واستغرق في التفكير.

أفقتُ وهو يسألني:

- محتاجين رأيك يا قطَّان. هنلحَق نوصل طريق القوافل ولَا نرجع؟

- مش هنلحق.

كان ردي دون أن أتخلَّى عن ابتسامتي. لا تسألني كيف عرفت ولا عَلَامَ كنت أبتسم لكني كنت أشعر بنشوة غريبة من فكرة العودة إلى الواحة، ثم إلى بقعة بها علامة على شكل + و×.

- ما هو أكيد هيجُول إكده. هو عايز يرجع بأي طريجة. القبودان جالَي إكده، جالَي إن الخواجة مكنش المفروض يچي إهني لأنه لما هيچي مش هيعوز يمشي.

كان هذا تعليق الشيخ ياسين، والذي جاء كما توقعته تمامًا. وربما كان

هذا سبب ابتسامتي، فأنا كنت أعلم مصير الرحلة قبل أن تتحرك.

تسألينني كيف عرفت؟ لأنه لم يكمل لي حكايته.

لا، لا أتكلم عن أيٍّ من رفقائي، ولا حتى هارون ساكن الواحة.

لم يقُلْ لي كيف سُلب منه مُلكه وورثناه نحن البشر. لم يقُلْ لي حقيقةَ ما كان في الحفرة التي تركها لنا، أعمق بقعة في الصحراء. ولا ما يختبئ تحتها.

كان هذا وقت اتخاذ القرار المصيري الذي وقع على عاتق إبراهيم: هل نمضي قُدُمًا آملين أن نصل إلى نصف الطريق قبل انتصاف النهار، وهو التوقيت الذي كان أقرب مما يظنون، أم نعود بسرعة للواحة حتى لا يهبط علينا الليل بجبروته ونحن في وسط الصحراء؟ حينها سنكون لقمةً سائغة للأهوال التي تعيش في هذا الربع المحرَّم، الأهوال التي أيقظتها في البرّ الثاني، أيًّا ما كانت حقيقته.

راقبت الفارس المصري الأصيل وهو ينظر أمامنا، إلى خط الأفق، ثم يستدير لينظر إلى الجهة التي جئنا منها. الحَيْرَة تقتله، وكلما نظر إليَّ طالبًا العون ابتسمت وأشحت بوجهي بعيدًا.

ومضينا قُدُمًا.

*****

(١٣)

انتصف النهار ولم ينتصف الطريق.

وكان القرار صادمًا للجميع، لكنهم تقبَّلوه في صمتٍ وانكسار: سنعود من حيث أتينا. زادت ابتسامتي وازدادت معها المسافة بيني وبين من حولي حتى شعرت بالانعزال التام. حتى الرمال القاسية، لم أكن أشعر بها ولم ألتفح بالغُطرَة اتقاء وخزها لوجهي.

لكنني لم أعُد محور اهتمام مَنْ حولي، بل سباقنا مع الزمن بأحصنة

وجمال تَعبة. فما لم يضعه إبراهيم، قائد المسيرة الهُمام، في الحسبان هو أن الوقت الذي سنستغرقه في الرجوع سيكون أطول من ذلك الذي أخذناه للوصول هنا. وهذا لسببٍ بسيط: لقد أرهقوا البعير كي ينتصروا على العدّ التنازلي الوهمي الذي خلقوه لأنفسهم.

كدت أضحك.

كلّا، لقد أطلقت بالفعل ضحكاتٍ قصيرةً متقطعةً متجاهلًا الغضب المُعلَن وغير المعلن الذي شعر به رفقائي. الشيء الوحيد الذي اخترق السد المنيع الذي أحاط بمشاعري هو عيون زوجتي التي لم تتركني لحظة. كم تمنيت أن أوقِف الرَّكب كي أذهب إليها وأسألها...

عن ماذا؟

عن كل شيء؟

أحقًا أنا كما وصفتني أمُّها؟ كما وصفني الشيخ ياسين الذي تأكّدت أني فقدت صداقته تمامًا؟

أحقًا أنا استعماري جَشِع؟

ما الذي يعيب في أن أبحث عن ثروات مصر وأستخرجها؟ هل لأنها في النهاية ستئول لفرنسا أو بريطانيا؟ أم لأنه كان من أجل مجدي أنا؟

هل رأى هارون كل هذا حين نظر إليّ؟

انتبهت لهتاف إبراهيم وهو يحثُّ الرَّكب على الإسراع، فما كان مني إلا أن أهتف به أنا الآخر أن يرأف بالبعير إن كان يريد أن يصل إلى الواحة بكامل عددهم. ويبدو أن أحد الجنود قد استبدَّ به الغضب لأني سمعته يصيح بسِبابٍ غليظٍ بما معناه أني أنا السبب.

شعرتُ في تلك اللحظة أن صُحبتي لتلك المجموعة قد قاربت على الانتهاء.

لولا زوجتي التي كانت في الهودج فوق أحد الجمال وابني الذي كان

في بطنها، ولولا إبراهيم الذي كاد أن يجلد الجندي بالسوط من أجلي، لكنت تركتهم لمصيرهم.

وذهبت أنا لقدَري... إلى مَنْ يناديني.

* * *

قارَبت الشمس على المغيب ومعها ازدادت سرعة الركب وتوتر الجميع.

لَهاث الخيل والجِمال وانخفاض سرعتها رغم السياط كان إشارةً واضحةً للجميع أنني كنت مُحقًا.

سياط...

لَهاث...

هُتاف...

وضحكاتي...

يا لجمال تلك الأضواء المنكسرة على الأمواج الخفيَّة والتي تترقرق على الرمال.

لماذا كنت أضحك؟

لقد كنت أكثرهم خوفًا، فأنا من رأى هذا الذي عثر علينا، أنا من سمع وسوسته. تحسَّست مكان العَضّة، وأنا من ترك خادمه علامته عليَّ.

الشمس تكاد تلامس قمَم الجبال.

لهاث...

صيحات مذعورة تعلن أننا لن نصل وجهتنا قبل المَغِيب.

إعتماد تصرخ أنني السبب.

الشيخ ياسين يسبُّ الخواجات كلهم.

الجنود على وشك أن يلوذوا بالفرار على ظهور جمالهم.

إبراهيم يومئ إليّ ليطمئنني أنه لن يتخلى عني.

فاطمة تبكي...

ثم اختفت الشمس خلف الجبال.

بعدها جاء الصوت، الخُوار الأسطوريّ الممزوج بالهدير الرهيب والنَّفِير الحاد، ليشقُّ سكون الصحراء ويصيب الجميع بالذعر.

هنا توقف إبراهيم وأشار للركب أن يفعل مثله. أخذ يبحث في التلال حولنا عن مصدر الصوت الهادر، ثم نظر إليّ وصاح بشيءٍ لم أسمعه. للحظة أفقت من الخدَر الذي تسلل إلى وجداني والتفتُّ لهودج فاطمة، لأجد الذعر على وجهها قد تبدَّل بالألم قبل أن ألاحظ أن الجمل الذي يحمل الهودج على وشك الانهيار، مثله مثل باقي البعِير.

أومأتُ برأسي لإبراهيم بما معناه أني قد أفقتُ، ثم لكزتُ فَرَسِي منطلقًا إلى فاطمة. أنزلتها بسرعة من الهودج ورفعتها لتجلس خلفي على الفرس. ثم التفت إبراهيم ليأمر الركب بترك كل ما ثقُل وزنه وانتقاء الجمال التي احتفظت ببعض الصحة.

حين جاءت الصيحة الثانية، التي كانت أقرب، كنَّا ننطلق بسرعة مضاعفة موقنين تمامًا أننا لن نصل بكامل عددنا، وإن فعلنا فلن تخرج البعير من هذا الاختبار حية.

أقدام الخيل كانت تُصدر في أذني صوتًا كأنها تجري على مياه شاطئ ضحلة. ملحوظةً كادت أن ترسلني مرة أخرى في إحدى نوبات انفصالي عن الواقع، لولا صياح أحد الجنود بأن هناك شيئًا يركض على التلال بجوارنا.

نظرتُ هناك لأجد هجين الكلب والتمساح يتبعنا بساقيه الطويلتين التي تفتقد وجود الركبتين، كأنه زرافة من دون رقبة. عادت العضّة

تؤلمني لكني تجاهلت الألم حتى اختفى عن أنظارنا خلف أحد التلال. صرخ إبراهيم في الجميع أن يعطوا أقصى ما عندهم.

ثم لمحنا شيئًا آخر.

خيالٌ لأرجُلٍ تركض على أحد التلال بجوارنا. ثم ظهر خيال آخر خلفه وواحد على التل في الجانب الآخر من مسيرتنا. كلها ظلال أرجل وسيقان وجلابيب لأنصافِ أناسٍ ينزلون من فوق التلال كالشلال ويركضون بمحاذاتنا، يقتربون منّا مع كل خطوة. لَم تمضِ دقائق حتى حاصرتنا الأطيافُ النصفيّة المخيفة من كل صوب، وتقلصت المسافة بيننا كلما اقتربنا من وجهتنا.

نظرت أمامي لأجد مساحة الصحراء المفتوحة التي كنا نسابق الزمن والكائنات الخرافية فيها تنتهي بأخدودٍ ضيقٍ. فوق إحدى القمتين ظهر خادم الضيف مرة أخرى ورفع رأسه تمساحية الشكل، ثم فتح فكّيه الطويلين كأنه يعوي بلا صوت. وكانت النتيجة أن ظلال أنصاف البشر زادوا من سرعتهم ليصلوا للأخدود قبلنا. لقد سمعوا نداءه الصامت.

صاح الشيخ ياسين الذي كان يعاني مع ناقته مثل باقي الجنود والعمال، أننا لن نعبر الأخدود قبل "الشياطين ذُول" كما أطلق عليهم.

لكني كنت أعرف ماذا الذي كنت أفعله تمامًا.

سوف يكون هناك ضحايا، هذا أكيد، فلن نستطيع كلنا عبور الأخدود في نفس الوقت، لكني سأنجو وستنجو معي زوجتي. نظرت إليها لأجدها تعضّ شفتيها من الألم دون أن تطلق صرخةً واحدةً، وهي تمسك بطنها بيدٍ وبالأخرى تحتضنُني بكل قوة.

أميرتي المصرية سليلة الفراعنة، لديها جَلَد أقوى من أعتى الرجال.

ثم جاء الليل بغتة، وهربت الشمس من المشهد.

بعدها لمحت الظل.

ذلك الخيال العملاق، كأن التلال ملاءات شفافة يعيش تحتها الكائن الأسطوري. يحرك رأسه كأنه يعوي ألمًا وغضبًا من محاولتنا الهروب منه.

عواءٌ صامتٌ يماثل ما يطلقه تابعه الكلبيّ.

انتبهت لصراخٍ عند ذيل الركب، صراخ آدمي مع غرغرة ناقة تُذبح.

نادى علينا الجندي المسكين.

كاد إبراهيم أن يقف لولا صياح الشيخ ياسين أن الأوان قد فات.

نقترب من الأخدود.

تمكّن الخوف مني تمامًا وتمنيت أن يعود إليّ تبلّد المشاعر الذي تركني منذ برهة. ثم لمحت بطرف عيني أحد الظلال التي كانت تجري حولنا وقد تقلصت المسافة بينه وبين حصاني، حتى ظننت أنه سيصل إليّ في أي لحظة. لكني رأيت حدقتَي عين الحصان تتسعان ذعرًا ويضاعف من سرعته، ليجد خيال السيقان المخيف نفسه مضطرًا أن يختار فريسةً أخرى.

نظرت خلفي لأجد الظلّ ينعطف يسارًا ويسقط على ناقة أحد العمال لتنكسر ساقها وتنهار أرضًا، كأن الظل نفسه له ثقل مادي ما. لم نرَ ما الذي حدث لراكبها بعد ذلك لكننا تجاهلنا جميعًا صراخه، والصراخ الذي صدى بعده.

الواحد تلو الآخر تساقط أفراد البعثة لم يبقَ في النهاية سوى ناقتَي ياسين واثنين من الحرس وحصانين امتطيناهما أنا مع فاطمة وإبراهيم مع إعتماد بصعوبة بالغة حافظ الشيخ ياسين على سرعته معنا حتى وصلنا الأخدود وتراءت لنا الواحة من خلاله

في اللحظة نفسها شعرت بشيء دافئ أسفل مني وبيد فاطمة ترتخي من حولي ثم مال جسدها لليمين. التفاتة خاطفة مني جعلتني أرى أنها

قد أغشِيَ عليها ألفا ولمحت الدماء التي لطخت ملابسها. حاولت الإبقاء على وضعنا فوق الحصان لكنه كان شبه مستحيل مع سرعتنا العالية. صرخت في إبراهيم الذي كان يتقدمنا أني لا بُدَّ أن أتوقف، فهتف هو بدوره في راكبي الناقتين أن يكملوا واستدار راجعًا إليّ. أطاعه الجنود بينما توقف ياسين.

جذبت زمام الحصان بكل قوتي لأجد منه مقاومة في غاية الضراوة وقد سيطر عليه الذعر تمامًا. لكنه استسلم في النهاية ليقف عند مدخل الأخدود وهو يصهل وينتفض. ترجَّلت من فوقه وأمسكت بلجامه كي لا ينطلق مرة أخرى ثم أنزلت زوجتي بحذر. أرحتُها برفقٍ على الرمال الباردة التي لم تعُد الأضواء المنكسرة تتلألأ عليها. ترجَّل إبراهيم هو الآخر بينما ظلت إعتماد على ظهر الحصان تتابع احتشاد الظلال حولنا في ذعر ذاب كحل عينيها واختلط بالبودرة التي لطخت بها وجهها حتى صار مشهدها مخيفًا خيالات تلتف حولنا وتحاصرنا كأن هناك المئات من البشر يقفون في صمت، لا يظهر منهم إلا أنصافهم السفلية.

كانت لحظة غريبة، تلك التي تأملت فيها وجه زوجتي المغشيّ عليها وحبّات العرق تلمع عليه رغم برودة وجفاف الجو. و"غريبة" هو التعبير المناسب لما كنت أمرُّ به. فبداخلي كانت تتصارع مشاعر شتى، مشاعر يصعب مزجها، بل يكاد يكون مستحيلًا.

الذعر ممن يقتربون منّا.

الخوف على أغلى ما أملك وهي راقدة بين يدَيّ.

اليأس من الهروب من هذا الكيان الشيطاني الهائل الذي يسكن التلال.

الشعور بالذنب، فعليّ يقع اللوم كله.

الخَدَر العجيب الذي يغلّف كل شيء ويمنعني من الصراخ أو الانهيار كأني مخمور بلا خمر.

وأخيرًا هذا النداء الداخلي الجارف الذي يجذبني للصحراء... إلى حفرةِ

يرقد فيها كيس جلدي به كل ما أبغي.

رفعت عيني لأنظر لإبراهيم الذي انحنى ليضع يده على كتفي مواسيًا، لم يكن هناك ما يُقال فلو كان ما مررنا به قد عجّل بميعاد نزول وليدي فحتمًا لن ينتهي الأمر على خير انتبهنا للصرخات التي جاءت من نهاية الأخدود والتي تشي بعدم نجاة من سبقنا.

ثم جاء صراخٌ آخر، صراخ أنثى.

التفتنا لنجد إعتماد تقع من فوق الحصان وسط مجموعة من الظلال، يبدو من خيالهم الذي لا يظهر منه إلا النصف السفلي أنهم نسوة في جلابيب فلاحي. استلّ إبراهيم سيفه وهمَّ كي يلحق بها لكن ياسين صاح فيه:

- مَمنُوش فايدة!!!

وكأنه لم يسمعه تقدم إبراهيم ناحية إعتماد لكن ما حدث بعدها كان من القوة أن جعله يتسمَّر مكانه.

فقد التفّت ظلال النسوة النصفية حول إعتماد وهي تصرخ كما لم تصرخ امرأة من قبل. ومن دون إنذار أطلقن زغرودة جهنميّة رجّت الصحراء وجعلت الدم يهرب من عروقنا، ثم هجمن عليها والتصقن بها كأنهن يضممنها بكل عنف إلى صدورهن. رنّت أصوات قبلات عنيفة كادت أن تكسر عظام وجهها. ظلت ظلال النسوة يتناوبن تهشيم عظام إعتماد ويبتعدن بها إلى عمق الصحراء حتى اختفين واختفت صرخاتها.

أما بقية الظلال التي ظلت حولنا فقد جاء دورها لتقترب منا. طاف إبراهيم حولنا وهو يطوّح بسيفه كي يهشّ أنصاف الظلال التي تحتشد حولنا وتتزاحم في صمتٍ مزعج. يضيق علينا الحصار ببطءٍ مُدمّرٍ للأعصاب.

الموقف كله كان مُقبضًا مثيرًا لليأس لأقصى درجة، فقد ضنّت علينا

النجوم بنورها وامتنع القمر عنّا، بينما ظل مشهد إعتماد وهي تُسحق أمامنا يعيد نفسه في مُخيّلتنا.

ثم تأجّج غضب الظلال وهجمت علينا على حين غِرّة. لوّح إبراهيم بسيفه فوقهم، لو كانوا مكتملي الهيئة لشقّهم نصفين، بالرغم من هذا فقد جعلتهم محاولته يتوقفون.

نظرت للسماء داعيًا ربي أن يرحم زوجتي، ليستقبلني القمر بوجهه الأزرق البارد.

لماذا لا تضيء؟ أين نورُك أيها اللعين؟

سمعت الشيخ ياسين يرتل آياتٍ من القرآن بصوت مرتعش مُتهدّج، قبل أن يبتر الآية في منتصفها حين سمعنا:

- إزيّك يا حبيبتي، أنا چدتك.

التفتُّ لزوجتي حين سمعتها تنطق بهذه الكلمات.

- دي بتخطرف.

هكذا فسّر ياسين ثم جاء بعدها أعجب ما يمكن أن أسمعه في تلك اللحظة: صوت فتاة تضحك.

من تلك الفتاة التي أرى طيفها خلف جحافل الظلال؟ فتاة شكلها مُميّز للغاية.

ولماذا توقفت الظلال عن الاقتراب منّا؟

والتفتوا إليها، هل...

نعم، هم يراقبونها في فضول ويتهامسون فيما بينهم لكننا لا نرى أعلى من بطونهم.

فتاة لا تتعدى الخمسة عشر عامًا ذات شعر فضّي قصير تسير وسط

الظلال وتقترب منا. حتى وصلت إلى دائرتنا.

وانحنت.

مدت يدها إلى القوقعة السوداء التي أعطاها هارون إلى زوجتي والتي ظهرت واضحةً في كيس متاع زوجتي. ضوء خافت يخرج منها، ضوء أزرق دافئ كأن القمر قد سُجنَ فيها. فتحتها الفتاة لتُخرج منها قطعة دائرية تبرق بضوء لؤلؤي دافئ. وقعت منها على الرمال فلاحقتها الفتاة بعينيها قبل أن تلتفت لفاطمة وتقول:

- جومي يا چدتي.

تلاقت أعيننا، أنا وفاطمة، لأجدها تبكي في صمتٍ وألمٍ، ثم التفتت فاطمة للفتاة مخاطبةً إياها:

- توحيدة... إنتي يا بنَيْتي الوحيدة اللي هتجدر توَجْفُه، إنتي الأجوى. اوعديني يا بنيْتي. اوعديني إن المعركة دهيَّة تكون أهم حاچة عندك. يمكن تصلحي اللي إحنا عملناه. اوعديني إنك متجبيش عيْل للدنيا ديْه جَبل ما تنضفيها من دنسه.

أمسكت الفتاة بطنها ثم حلَّ الوجوم على ملامحها الباسمة. أطرقت للحظةٍ ثم رفعت عينيها كي تنظر لجدتها، وهي تدمع وتهز رأسها بالموافقة قبل أن تختفي.

مددتُ يدي وأمسكت بالعملة المنيرة كأنها قمر في حجم الكف لأجد لها ملمس معدني عجيب قبل أن تنتبه المخلوقات الجهنمية إليَ.

هتف بي إبراهيم ألا أفعلها. لكني نهضت، لأسمع عويلًا من بعيد يشيب له الوِلْدان.

ثم هجم عليَّ أحدهم.

لكنه لم يكن من أتباع ساكن التل.

بل كان إبراهيم.

الذي اختطف العملة المعدنية من يدي وحدق في عينيّ بقوة.

نظرت لزوجتي التي فقدت الوعي مرةً أخرى وهي تمسك بطنها ألمًا.

اللعنة على الاختيار، اللعنة.

لمحتُ هارون من بعيد، أعلى السُلّم في وسط الواحة، يظهر واضحًا رغم الظلام.

لماذا لا ينقذنا كما فعل من قبل؟

أدركت أنه كان ينتظر أن نختار.

وقد كان اختيارنا واحدًا، أنا وإبراهيم.

تركت له القطعة المنيرة ليأخذها ويمتطي فرسه متفاديًا الظلال حتى يجذب انتباههم بعيدًا عنا. وبالفعل تحركت الظلال خلفه كطوفان أسود مخيف بينما ظلّ يلوح هو بسيفه مُتحديًا إياها.

انتظرنا حتى ابتعدت الظلال ونهضنا بحذرٍ لنمتطي الأحصنة والجمال، ثم حملت فاطمة لأضعها أمامي. التفتُّ إلى التلّ الذي صعد عليه إبراهيم وخلفه الظلال الكابوسية وقبضت يدٌ من حديد بارد على قلبي. استدار إبراهيم ليواجه الظلال وأخذ يلوّح بالنور القمري يمنةً ويسارًا ليحتفظ بانتباههم. ثم صرخ:

- انقذ مراتك وابنك يا قطّان!!!

جذبت لجام حصاني ولكزته لألحق بياسين ومن نجا من الحرس.

ما إن وصلنا للواحة حتى قفزت من فوق الحصان وأنزلت فاطمة لأهرَع بها إلى غرفتها. وضعتُها على السرير وأسرعتُ إلى النافذة وفتحتها؛ لأرى إن كان إبراهيم قد نجا أم أخذته أنصاف الظلال إلى عالم الضيف.

لكن آخر عهدي بأنبل من عرفت كان تلًا خاويًا تتحرك خلفه ظلال عملاقة كالدخان.

سمعت صوت دقّ فالتفتُّ لأجد أن هارون قد نصب لافتة على طرف الواحة ثم صعد فوق غرفتنا مرة أخرى، إلى سُلَمه العجيب.

قبل أن تنسدل التنُّورة العملاقة فوق البيت وتسد النوافذ سطع ضوء القمر أخيرًا. وقرأت المكتوب على اللافتة:

"بَرّ الضِّيف".

تذكر انك حملت رواية الميراث بر الضيف الجزء الثالث حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

*****

(١٤)

لم تمرَّ لحظةٌ دون أن نشعر به حولنا، مَنْ كان يسكن تلال هذا الربع المجهول وتخدمه الظلال الكابوسية وهجين التماسيح، ينتظر أن يخطئ أحدنا ويخطو خارج البيت. حتى لو لم يفعل، يكفي أن يضيء نورًا أو يشعل نارًا دون ساترٍ يمنعها من السطوع غربًا. فهو قد شعر بنا، شعر بضعفنا وأخطائنا، شعر أننا لا نستحق وأصبح قاب قوسين أو أدنى من أن يعثر علينا، وحينها سيعبُر إلينا. سيصل إلينا من طريقٍ غير مادي، من خلال أنفسنا.

وكان كل هذا خطئِي أنا، فقد راهن الضيف على ضعفي، وانتصر.

قضينا الليلة في الكوخ الخشبي، في الظلام، وانسدل على النوافذ والأبواب ستار من قماش باللونين الأبيض والأسود لم ندري من أين جاء. نسمع أصواتًا رعدية كأن هناك عاصفةً خفيَّةً ترجُّ الصحراء دون

أن يسطع برقٌ أو يبلل الرمال مطر، عاصفة ليست من عالمنا... لا، ليست عاصفة من الأساس، بل غضب عارم يرج وجداننا ويهتز له الواقع.

فهو كاد أن ينجح، كاد يخطو فوق عالمنا، لولا إبراهيم.

أما بالنسبة إليّ، فأذكر صمتي وقد انزويت في ركن الغرفة الخشبية لأختلي بشياطيني... وعاري. راقبت رفقاء رحلتي وهم في حالة هيستيرية من الذعر، بينما لم تُفِقْ فاطمة إلا لحظاتٍ قليلةً تسأل فيها عني قبل أن يُغشى عليها ألمًا. تدريجيًا بدأت الأصوات تخفُت والإضاءة في الغرفة تضعف لتقتصر على ومضات تأتي من النافذة، وهذا فقط في اللحظات الخاطفة التي تتطاير فيها القماشة التي أسدلها هارون فوقها.

ثم توقفت عن الشعور بما حولي حتى أصبحت وحدي تمامًا. لم أعُد أشعر إلا بها هي، فاطمة. يعود إليّ إدراكي للحظات أرى فيها وجهها وهي فاقدة الوعي على السرير، قبل أن أغرق مرة أخرى في الحالة الغريبة التي كنت عليها طيلة اليوم. يأتي بعدها خوفي عليها ليجعلني أفيق قبل أن أغرق مرةً أخرى في حالة الانفصال والخدَر كأن آدميتي تُسلب مني، كأني أريد الاستسلام لشيءٍ لا أعرفه. ثم يبدأ وجهها في الاختفاء هو الآخر.

وهكذا ظللت أتأرجح بين العالمين حتى سقطت في ظلامٍ دامس، في صمتٍ مزعجٍ وأمانٍ مرعب، حتى شعرت أن هكذا يكون شعور... العدم.

***

حين عادت إليّ حواسّي مرةً أخرى عادت مختلفة لا لم تكن أحلامًا، تلك التي بدأت أراها، بل واقع آخر وكأن الحجاب قد نُزع عن عينيّ كلما تطايرت القماشة التي كانت تستر النافذة من الخارج رأيت مشهدًا مختلفًا تمامًا عن الواقع هناك.

بالخارج... في الصحراء القاحلة حولنا... كان هناك بحر. بحر هائج

تحت سماء سوداء تظهر قمم أمواجه العملاقة الغاضبة من وراء التلال.

وكان هناك من يقف فوق التل الذي اختفى خلفه إبراهيم، يحمل جسد الأخير، في وسط العاصفة التي لا يراها غيري. تهتز تنُّورته ذات الخطوط البيضاء والسوداء بينما يتقافز حوله أنصاف الظلال وهم في قمة الغضب، غضب حتى الجنون. يحيطون به وهو يسير بجثة الفارس النبيل وينزل بها الوادي، يخرج من يد إبراهيم ضوء أزرق دافئ جعلني أستنتج أنه لا يزال قابضًا على القمر المصغر. شَعْر هارون الرَّمادي الطويل ظل يتطاير مع الرياح الخفية ويتلألأ على جبهته رذاذ أمطار لا وجود لها وهو يسير بينهم، لا يهابهم.

بل يهابونه.

من أنت يا هارون؟

وضع جثة إبراهيم أسفل الشجرة المُقوَّسة التي تتوسط الواحة، والتي كان منظرها كأنها تنحني إلى إبراهيم إجلالا، كأن فروعها تمتد لتعانقه. لمحت ياسين وبقية الناجين يراقبون المشهد في صمتٍ ورهبةٍ قبل أن ننتبه إلى فاطمة التي أطلقت صرخة مدوية وأمسكت بطنها. دماؤها تسيل. تمكنت من الوصول إلى فراشها بمجهود رهيب د ووقفت على طرفه، فتبتسم فاطمة لي كي تطمئنني قبل أن تلتفت إلى هارون، الذي دخل لتوِّه.

جلس بجوار فاطمة، التي تقلصت ملامحها ألمًا. انحنى ليهمس لها بشيءٍ جعلها تعتصر دموعها حزنًا قبل أن تهزَّ رأسها بالموافقة. مد يده إليها بالقطعة الدائرية التي كانت لا تزال تشعُّ بنورٍ أزرق ملائكي فالتقطتها بصعوبة ونظرت إليَّ.

في تلك اللحظة سمعت نداءً في أذني جعلني أنظر إلى النافذة...

إلى العاصفة... والتل.

ببطء تركت مكاني بجوار السرير وذهبت كالمُسَيَّر إلى النافذة حدَّقت

في الظل الذي أخذ يتلوَى على التلال؛ كأنه رأس عملاق يصرخ من دون صوت ثم عاد ألم كتفي مرة أخرى وبدأ الخدَر يتسلل إليّ مضاعفًا، لأفقد إحساسي تمامًا بما حولي

* * *

أفقتُ لأجد نفسي راقدًا أمام حفرة تميزها صخورٌ وُضِعَت على شكل + و× أقيم حوارًا مع مَنْ كان يعيش قبلنا بملايين السنين، حوارًا أخبرني فيه أنه سيأخذ منّا ما كان له أخبرني أنه الآن يُبحر في مياهنا الضحلة وأن بينه وبين شاطئنا خطوةً واحدة. خطأ واحد فقط يفصل بيننا وبين عودته.

لكنه يجب عليه أولا أن يحطم حاجزًا وضعه أمامه فارس ضحى بنفسه من أجلنا... إبراهيم كامل الدماطي. مهما ساعدنا هارون، سيحطمه، هكذا أقسم لي، ولو انتظر ألف ألف عام.

لم أذرِ لِمَ كنت راقدًا على جنبي، لكن لا يهم، ما يهم هو أن المجد...

حاولت النهوض فلا تسعفني ساقاي لأقع مرةً أخرى واتدحرج من فوق التل.

... ما هذا الضوء الذي سطع من جهة الغرب لجزءٍ من الثانية؟

وهذا الألم الذي أشعر به؟

أمد يدي لأتحسّسه.

هل هذا نصلٌ مغروزٌ في جانبي الأيمن؟

إنه سيف إبراهيم.

سقطت على وجهي في الحفرة مضرَّجًا في دمائي وقدمي معلقة في الهواء خارجها. ثم سمعت من خلفي البكاء وشعرت بمَن يرمي فوقي الرمال، يدفنُني حيًا. أدرت رأسي بصعوبة وأنا أبصق دمًا ورمالا وأعاني كي أتنفس. آخر ما رأيته كان عيونٌ كحيلةٌ تبكي فوق يشمك

أبيض ذكّرتني بما حِيك حول كليوباترا، عيونٌ جعلت چوزيف كوتون يغزو العالم. وچوزيف كوتون يا بنَتي، قد عاد إلى زوجته مهزومًا.

لا أعرف من أين ظهر، لكنه كان أمامي، هارون، أهمس له بآخر كلماتي التي أتركها أمانةً في عنقه حتى تصل إليكِ. فهذا دوره. قبل أن أصمت للأبد.

تذكر انك حملت رواية الميراث بر الضيف الجزء الثالث حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

*****

الفصل الثالث

١٩٧٥

(١)

بَرّ الضيف ...1975

تسللت دمعة من أسفل جفون مغلقة فتلمع الرموش الطويلة وتتقلص الملامح ذات الطابَع المصري الأصيل. فتحت صاحبة الشعر القصير والأعوام الخمسة عشرة عينيها الواسعتين لتنظر إلى مَن تجلس معه على التل الرملي. ابتلعت غُصّةً كادت تخنقها وسيطرت على دمعتها؛ حتى لا تترك وجنتها وتكون شاهدة على ضعفها.

لقد أخبرها أنها يجب أن تكون قوية، مهمَا كانت قوة الرؤيا التي سيجعلها تشاهدها، ومهما كان ما ستراه لاحقًا في حياتها. تحسست بأناملها الرمال الباردة قبل أن تسحبها بغتةً بعد أن شعرت بدماء جدّها فيها....|"توحيدة!!".

هكذا صدى النداء من أسفل التل. فردت ظهرها في عزّة وتحكّمت في مشاعرها بسرعة كما تعودت منذ صِغَرها. نهضت من جلستها ونفضت عن فستانها الرمال ثم ودّعت البدوي العملاق ذا الوجه الطويل والشعر المجدول الذي كان جالسًا أمامها. أومأ في هدوء وتركها تذهب لأمّها ثم أدار جلسته ليواجه الغرب.

هرولت لبيتها نزولًا من التل ثم من بين أشجار المانجو العملاقة. كانت تبكي دون صوت أو دمع، بعد أن رأت أكثر مما تحتمله فتاة في سنّها. استقبلتها أمها على باب البيت الفلاحي ذي الطابقين:

- برضك كنتي مع هارون؟

سألتها أمها وهي تتابع البدوي العملاق الذي نهض لينزل التل من الجهة الأخرى ويختفي عن ناظريها.

- يا بِتي الراجل ده هيملالك دماغك تخاريف وروايات.

عبرت توحيدة بجوارها دون أن تبطئ من سرعتها، واتجهت لتصعد السلم دون أن تجيبها أو تعير من كان يجلس في الصالة انتباهًا.

- عجبك اللي بتعمله بِتّك ده يا عبد العظيم؟ ما تقول حاجة يا شيخ خَلَف.

هكذا قالت الأم مخاطبةً الرجلين اللذين طفقا يراقبان توحيدة حتى صعدت الطابق الثاني. تبادل أحدهما، وهو رجل ثلاثيني أحمر الوجه، نظرةً سريعةً مع جليسه الشيخ الشاب فبادره الأخير قائلًا:

- هو فيه زي توحيدة يا عبد العظيم؟ ده هي الوحيدة وسط عيالنا كلهم اللي ما يتخفش عليها.

* * *

في غرفتها، وقفت توحيدة أمام المرآة. يحاول إدراكها استيعاب الرؤيا التي شاركها معها هارون. لكن، رغم أن عقلها يسبق سنّها، فقد ظل

عاجزًا عن هذا.

ثُرى ما الذي يقبع خلف هذه الملامح المصرية؟ قوة فاطمة أم ضعف چوزيف؟

تحسست بطنها وتذكّرت ما قالته فاطمة لها في الرؤيا قبل أن تنتبه إلى شيء غريب في رأسها. مدت أناملها ببطء لتُخرِج خُصلةً من بين شعرها القصير، خصلة مميزة للغاية.

خصلة فضيّة.

* * *

وهكذا، مثل بَرّ الضيف التي استمرت على مرّ السنين وحيدة، فريدة، لا يوجد لها مثيل، عاشت توحيدة. لم تكن ملامحها الفاتنة وشعرها البُنّي القصير الذي تحول إلى الفضي في سن صغيرة هو فقط ما يميزها، بل كل ما كان يتعلق بها. فمنذ نعومة أظفارها وهي أكبر من سنّها، أقرب أفراد عائلة القَطّان لأهل البلد وأكثرهم اهتمامًا بتاريخها.

بحثت كثيرًا وسألت عجائز البلد عمّا حدث بعد واقعة چوزيف، لكن فيما يبدو أن ما فعلته فاطمة لم ينمُ لعلم أحد. ومع الاحتلال الفرنسي الذي تلا تلك الأحداث ببضعة أشهر تاهت تفاصيل بعثة چوزيف كوتون مع الزمن. لم ينتبه أحد لبَرّ الضيف إلا بعدها بعقود مع ازدياد عدد قاطنيها. قرنان من الزمان استغرقتهما بر الضيف كي تصل إلى ما هي عليه. ما إن امتدت شبكة الطرق إليها حتى استقر فيها رحّالة وتجار وفلاحون وأنشئُوا بيوتًا فوق التلال المحيطة بها. ثم شُقّت الترع والفروع النيلية في عهد محمد علي لتأتي المياه إلى بر الضيف وتصبح بلدة شاطئية مرة أخرى بعد ملايين السنين من الفراق. كان هذا هو كل ما توصلت إليه توحيدة بعد أن فشلت في العثور على أية معلومات عمّا حدث في الفترة بين بعثة كوتون ووصول العمران لبر الضيف.

لم يشغل توحيدة، الفتاة حينها والمرأة بعدها، ما يشغل الفتيات

والنسوة من جيلها ولم تستطع الاندماج معهن؛ وخصوصًا بعد قرارها بعدم الزواج لم يعارضها أبوها في قرارها هذا ولم تحاول أمها، فكلاهما يعلم أن بنات القَطَّان أراضٍ جدباء لا ينبت فيها زرع لكن هذا لا يعني أنها توارت خلف الستار واستسلمت لقدرَها، بل ظلت في سعيها تبحث عن شيءٍ لم يعرف أحد ما هو، حتى والداها.

العجيب في الأمر أنه كان يؤخذ برأيها من سنٍ صغيرةٍ جدًّا، والأعجب من ذلك أن تلك الآراء كانت في معظم الأحيان صائبة. كأن توحيدة قد وُلدت امرأة كاملة وليست طفلة، كأنها اكتسبت خبراتٍ من حيواتٍ سابقة، أو هكذا كانت تقول أمها ضاحكة.

أما مشاعرها، فكانت بئرًا عميقةً لا يظهر منها شيء، إلا نادرًا. وفي تلك اللحظات، كانت ابتسامة حانية من توحيدة أدفأ من نور الشمس. لكنها ظلت وحيدة. حاول الكثيرون أن يتقربوا إليها، مسحورين بتلك التركيبة الفريدة من القوة والجمال، معظمهم من أكابر الناحية ومعارف أبيها. لكنها محاولات قوبلت جميعًا بالرفض.

حتى ذلك الضابط الأرمل، سليل عائلة الدماطي التي ظل أبناؤها يتناقلون رئاسة مركز الشرطة التابعة له قرية بر الضيف، من إبراهيم حتى يسري، لم ينجح في اختراق الأسوار التي شيَّدتها توحيدة حول نفسها. لم يلحَ يسري الدماطي في طلبه مودة توحيدة؛ لأنه يعلم أنها قد كرَّست نفسها لمهمة أكثر قدسية واكتفى بذلك الخيط الرفيع الذي كان يصل قلبيهما سرًّا.

أما أقرب الناس إلى توحيدة، فقد كان ذلك الخفير العجوز الأشبه بالناسك. ذلك الأعرابي شديد الطول والهيبة الذي كان يحرس أرض القَطَّان جيلا بعد جيل من جهة الغرب. لسببٍ ما لم يسعَ أحدٌ في معرفة حقيقة هارون الذي لا يشيخ، لكن الإشاعة تقول إن ذلك البدوي قليل الكلام هو من علَّم توحيدة كل شيء.

تمنت توحيدة أن تكون رؤياها مجرد ذكرى رفضت أن تموت، ذكرى

أرادت أن تعيش من خلالها. لكن سرعان ما اتضح لها أنها ليست كذلك، بل كانت نذيرًا. اتضح لها أن ذلك الأعرابي مجهول السن والمنشأ كان يعدُّها لمهمةٍ لا يقدر على حملها سواها.

الإشاعة تقول إن ما علمها هارون إيَّاه هو ما جعلها تشيب.

*****

(٢)

صيف ...1991

استقرت عائلة القَطَّان في كوخ القبودان الذي ظل قائمًا في جانب الواحة الغربي المطل على فرع النيل، كأن هناك ما كان يمنع الدولة من إزالته أو الاقتراب منه. بل لقد ازداد حجمه وعدد غرفه مع مرور الزمن، هذا دون المساس بالسلم الذي كان يستخدمه هارون وتوحيدة للصعود والتطلع غربًا.

ثم جاءت ليلة قمرية، ليلة قررت فيها زوجة علي ابن عبد العظيم القَطَّان الأصغر، بناءً عن تعليمات طبيب الصحة، أن تضع وليدها. بخُطًا مسرعة، سار الضابط الأسمر غليظ البنية، ممتطيًا جواده، في طريق يفصل القرية عن أرض القَطَّان من جهة الغرب. كان هذا التاريخ قبل أن يصبح البقاء خارج البيوت ليلًا محرمًا على الجميع، لكن هذا لم يمنع الرائد يسري الدماطي من الشعور بحالة الترقّب والقلق التي طلّت عليه من وراء الأبواب المغلقة والنوافذ. كانت ليلة فريدة.

فالأخبار أفادت أن عبد العظيم القَطَّان قد رُزق بحفيدةٍ أنثى. وهذا قد يبدو حدثًا عاديًا؛ خصوصًا أن عبد العظيم وولده عليّ، الأب المصدوم، كانا متعلمين لا تصيبهما خلفة الإناث بالخزي، وأن أسرتهما لديها ما يكفي من الذكور، لكنه كان بالنسبة إليهم نذيرًا مخيفًا. والسبب في هذا الخوف لم يكن معروفًا إلا للقليل.

تركت توحيدة النسوة مع زوجة أخيها وابتعدت عن الزحام الصامت

الذي تكدّس في الطابق الأول من بيتها، كأن ما يحدث هو جنازة وليست معجزة إلهية، وصعدت للسطح. كانت حانقة مما سمعته من ثرّهات العجائز حتى كادت أن تطردهم جميعًا. لكنها آثرت الانسحاب. فهي تعلم أنهم ليسوا مخطئين كليةً، فالتاريخ لا يكذب هذه هي المرة الأولى منذ أكثر من قرنين التي تُولَد فيها أنثى في عائلة القَطّان بينما لا يزال هناك أخرى على قيد الحياة ليس هذا فقط، بل إنها لم تبلغ السادسة والعشرين بعد، ليس هذا فقط، بل إنها لم تبلغ السادسة والعشرين بعد، أي أن المولودة -والتي أسماها والدها "سلمَى"- سوف تصغَرها بخمسة وعشرين عامًا فقط.

توقفت عند نهاية السلم قبل السطح مباشرةً لتستمع، هناك حوار قائم.

- إنت ما تعبتش يا شيخ خَلَف؟ ما زهجتش من الحمل التجيل اللي على اكتافنا ده؟

- مش وجته يا عبد العظيم، امسك نفسك أومّال. انبسط بخلفة ابنك، إحنا بجالنا كتير مفرحناش بيث.

- نفرح؟ دي أول مرة تحصل يا شيخنا، بنت عليّ هيبجى بينها وبين عمتها خمسة وعشرين سنة. إنت عارف ده معناته إيه؟

- معناته إيه؟ ولا حد يعرف، دي أول مرة تحصل.

- بالظبط! أول مرة، تجدَر تجولّي سلمَى دي حياتها هتبجى كِيف؟

- صلي على اللي هيشفع فيك يا كبير البلد واستغفر ربك. هو فيه حد يجدَر يحكم على اللي جاي؟

لحظة صمت طويلة استنتجت توحيدة أنهما استغرقاها في تأمل البر الثاني من النيل، البر المظلم غير المأهول. ثم تنحنح أحدٌ خلفها فالتفتت لتجد وجهًا أسمر دائريًا وعينين دقيقتين فوق جسد قوي مكدس بالعضلات، يطلّ عليها من بين عشرات الوجوه الأنثوية. احتقن

وجهها وقالت:

- إيه اللي چابك الساعة دي يا يسري بيه؟

ابتسم يسري وأمسك إفريز السلم استعدادًا للصعود، بينما ظهر وجه أمها غاضبًا من بين طوفان النسوة وهي تقول:

- يسري ضيفنا يا توحيدة، ده بدل ما ترحَّبي بيه وتجيبيله مُغَات.

- توحيدة هانم معذورة برضه. مش متعوِّدة تشوفني في الوقت ده. مبروك، حمدالله على سلامة مرات عَلِي.

قالها يسري وهو يصعد في اتجاه السطح. التقت أعين يسري وتوحيدة وهي التي لم تتعود أن يحملق فيها أحد، وبما أن وجهها كان محتقنًا منذ البداية فلم يلاحظ يسري أنه قد أصبح متوردًا خصوصًا في الإضاءة الضعيفة. لكن هذا لم يفُت على أمها التي ابتسمت وهي تمصمص شفتيها وتهز رأسها، قبل أن تدخل غرفة يخرج منها بكاء الرضيعة.

أطرق يسري للحظةٍ خاطفةٍ مفكرًا قبل أن يرفع رأسه مرة أخرى ويستكمل الصعود. ظلت عيناه ثابتتين على توحيدة حتى اضطرت أن تشيح بعينيها بعيدًا وتفسح له الطريق للسطح. توقف أمامها وأخرج من جيبه كُتَيبًا صغيرًا.

- لقيتلك كتاب قديم عن جغرافية الموقع ده وتاريخها. يمكن يساعدك في تفسير الرؤيا اللي بتشوفيها.

نظرت توحيدة للكتيب وانكسرت شفتاها عن شبح ابتسامة، لكنها وأدتها قبل أن ترى النور وقالت:

- التاريخ بجَى معروف ليَّا خلاص يا سيادة المأمور، المشكلة في تفسيره. اللي فات واللي چاي واصلين ببعض.

- يعني إنت عارفة إن المنطقة دي كلها كانت تحت البحر، وإن أعمق

حتة في الصحراء على بعد كيلو في البر التاني؟

بدا عليها الاهتمام رغم محاولتها إظهار عكس ذلك. أخفض يسري الكُتيب وضيق عينيه وهو يتأملها.

- توحيدة..

تردد في أن يبوح بما يضيق به صدره لكن في اللحظة نفسها أتاهما صوت الشيخ خَلَف عاليًا:

- والحل بجَى إنك تضحي بكل حاچة يا عبد العظيم؟ وعلشان تثبت إيه؟ هل إنت سألت أهل البلد عايزين إيه؟

- الكل عايز يخلص.

- الصبر يا كبير عيلة القَطَّان، الصبر.

- الصبر!!؟ لغاية إمتى يا خَلَف؟؟ لغاية سلمَى ما تكبَر وتبقى زي عمتها.

تلاقت عيون توحيدة ويسري مرةً أخرى للحظة خاطفة، قبل أن تستدير لتنزل السلم بسرعة.

- توحيدة!

ناداها يسري فتوقفت للحظة لكنها لم تستدِز بل استأنفت النزول وذابت وسط الحشد. ابتعدت عنه... بكل كيانها. همس يسري بكلمةٍ احتفظ بها في قلبه ولم يشاركها مع أحد، ولا توحيدة نفسها. استدار بعدها ليخرج إلى السطح.

على أريكة فلاحي قديمة جلس رجل أربعيني بدين أبيض الوجه في جلباب بُنّي أنيق، بصحبةِ شيخٍ أزهريّ ضئيل الحجم بارز عظمتَي الوجه في مثل سِنّه.

- أهوه سيادة المأمور جه، ناخد رأيه.

هكذا قال الشيخ خَلَف مستنجدًا لكن عبد العظيم نهره قائلًا:

- اللي جُلتهولك مش لحد غير أهل بَرّ الضيف يا خَلَف! أنا طلبت يسري بيه علشان حاجة تانية.

- "حد غير أهل بَرّ الضيف"؟ وكمان "يسري بيه"؟

هكذا علّق يسري مستنكرًا بعد أن توقف في منتصف المسافة بين السلم الذي يستمر في الصعود للاشيء وبين مجلسهما حول راكية النار. تدارك عبد العظيم نفسه وتخلّى عن عصبيته مُرحّبًا:

- معلهش يا أخوي، إنت سِيد البلد مش من أهلها وبس.

- أنا مش سِيد حاجة، أنا جزء من المكان ده زيّكم، لا أزيَد ولا أقل وعمري ما هَمِنّ عليه بواجبي وواجب جدودي. ولّا إيه يا شيخ خَلَف؟

هكذا ردّ يسري متحفزًا قبل أن يعاود السير إليهم. أخذ خَلَف ينقل عينيه بينهما قبل أن يستأذن ليغادر لكن ليس قبل أن يعطي يسري نظرة تحذيرية. تأمله يسري وهو يبتعد قبل أن يلتفت لعبد العظيم الذي أخرج أوراقًا من جيب الصديري، وطفق يرتبها على الطاولة الفلاحي القصيرة الرابضة أمامه.

- خير يا عبد العظيم؟ جايبني ليه في ليلة مباركة زي دي وبتحدفني بكلام زي الدبش؟

وكأن عبد العظيم لم يسمع ما قاله أو شعر بنبرة العتاب التي استخدمها يسري، أمسك بالمصباح الجاز ورفعه ليتأمل الأوراق ثم أشار إليها قائلًا:

- ده ورق أملاك عيلة الجطّان يا يسري. أنا كتبته كله باسم توحيدة. خلّيه معاك.

قطّب يسري ملامحه لكنه التقط الأوراق وسأله:

- ليه يا عبد العظيم؟

- من غير ليه!!

هكذا صاح عبد العظيم بتعبير منفعل هائج فبادره يسري بقوّة:

- عبد العظيم!! أنا مش واحد من الخَفَر بتوعك تتأمَّر عليَّا. متفهمش صداقتنا غلط.

أخذ عبد العظيم نَفَسًا عميقًا وحاول استرداد هدوئه، لكن الكلمات خرجت منه بصوت متهدج أقرب لليأس:

- لو سمحت خلّيه معاك. ممكن ولّا هترفض؟

تأمل يسري وجه صديق عمره للحظةٍ قبل أن يهز رأسه موافقًا وقال:

- ممكن. بس لازم أفهم، ناوي على إيه؟

التفت عبد العظيم لينظر إلى البر الثاني وقال بشرودٍ وانفصالٍ تامٍّ عن الواقع:

- كل خير، كل خير.

انقبض قلب يسري بعنف، فما قرأه على وجه صديقه كان مُقلقًا للغاية.

*****

(٣)

بعد أسابيع قليلة في مديرية الأمن...

كان اللواء راشد لا يزال رائدًا في المباحث، ضابطًا ذا سجل مبهر يضم أعقد القضايا؛ وبالأخص تلك ذات الطابَع السرّي والخطورة القصوى. لكنه لم يكن يعلم أن أغرب قضية سيتولاها في حياته سيلقيها القدَر في طريقه، حين يطرق بابه الضابط الوحيد في الداخلية الذي يفوقه تميُّزًا.

في إحدى ليالي الصيف الحارّة لملم راشد أشياءه وفتح باب مكتبه، ليستقبله ضابط أسمر قوي البنية لاحظ راشد وجود سيف يتدلى من أحد جانبيه.

- رائد يسري الدماطي.

هكذا عرّف نفسه.

تأمله راشد للحظةٍ وهو يراجع أرشيف أسماء الضباط في ذهنه، قبل أن يرجع خطوةً للوراء ويشير له بالدخول. هو يعلم هذا الاسم لكنه لا يتذكر السبب.

بدأ الضيف الحديث بعد أن جلس أمامه على الكرسي:

- أنا جاي مخصوص لسيادتك علشان سمعتك اللي سبقاك. المعروف عنك إنك ليك منهج مختلف في التعامل مع الأمور.

وضع راشد أشياءه على المكتب مرةً أخرى ورجع ليسند ظهره على الكرسي قائلًا:

- إيه الموضوع يا يسري بيه؟

- الموضوع يخص قرية تبع المركز بتاعي. القرية دي عايزين نعزلها تمامًا.

قطّب راشد حاجبيه وقد تذكر متى سمع اسم يسري الدماطي. تلك القضية شديدة الغرابة التي سعى فيها أهل قرية -لا يذكر اسمها- أن تفرض عليهم الحكومة عزلًا تامًا. يذكر أيضًا أن العريضة قد تم رفضها قبلها بأسبوع لكن يسري استطرد قبل أن يعترض:

- عارف يا راشد بيه لما تشعر إن فيه حد بيبص على بيتك؟ لما تكون قاعد وسط أهلك وتحس إن في حد بيحسدكم مع إنكم لوحدكم. لما تحس إن فيه ركن في البيت ضلمة أكتر من العادي وإن البركة فيه بتقِلّ من غير سبب. بيجيلك أوقات كده بتضعف قُصاد شيطانك زي ما يكون

فيه حد بيساعده؟ مرت بيك لحظات زي دي؟

لم يُجبهُ راشد بل ظل محدقًا في وجهه كأنه يقيّمه ويُقيّم ما يقوله. لولا جدية الأخير وهيبته والغموض الذي يحيط باسمه لأنهى راشد اللقاء عند تلك النقطة.

- الشعور ده معظم الوقت ممكن يبقى وسوسة، بارانويا، أو أي سبب منطقي. إنما فيه أوقات تانية، أوقات قليلة جدًا... بتبقى شكوكك دي صحيحة. فعلًا فيه حد بيحسدنا يا راشد بيه، بيحقد على حياتنا وعايز يعيش عيشتنا بأي وسيلة. والشهر اللي فات بس عرف طريقنا.

ابتسم راشد بعد أن تأكّد من غرابة ضيفه وأطرق مفكرًا في الطريقة التي تمكّنه من التخلص من هذا اللقاء العجيب دون أن يثير جلبة. نظر في ساعته ورفع عينيه ليسري قائلًا:

- يسري بيه، أنا مش فاهم اللي بتقوله ولا فاهم إيه اللي مطلوب مني. والحاجات دي مش من اختصاصاتي.

بادله يسري ابتسامته الرسمية بأخرى مماثلة قبل أن يقول:

- إحنا رفعنا قضية، أقصد أهل القرية رفعوا قضية، علشان يتعزلوا عن العالم. والقضية اترفضت.

- طبعًا، هو فيه قاضي هيقبل بدعوى زي دي.

- مظبوط. وعلشان كده غيّروا الدعوة إنها تبقى حراسة على قطعة معينة وسط أراضيهم وهم هيعزلوا نفسهم بنفسهم.

بدأ صبر راشد ينفد لكنه احتفظ بابتسامته التي شقت وجهه الوسيم قبل أن يقول:

- ماشي، أيًا كان. أنا إيه علاقتي بالقصة العجيبة دي؟

- أنا عايزك تبقى الشاهد يا راشد بيه. عايزك تيجي معايا قرية بَرّ الضيف وتشوف بعينك، ولما ترجع تشهد في القضية بما يُمليه ضميرك.

زي ما قلتلك إنت شمعتك سابقاك وشهادتك هتكون فاصلة.

لم تستمرَّ ابتسامة راشد أكثر من هذا بل ذابت تدريجيًا وهو ينقِر بأصابعه على المكتب. مرت دقيقة عليه وهو مُحدِّق في أصابعه قبل أن يسأل:

- فيها إيه قطعة الأرض دي؟

- فيها كارثة لو معرفناش نحتويها هتبلع كل حاجة، حتى أقرب الناس إلينا. وما تسألنيش هي إيه، لازم تشوف علشان تصدق.

رفع راشد وجهه ليحدِّق مباشرةً في عينَي يسري القوية.

- بس أنا وقتي مش مِلكي يا سيادة الرائد ومقدرش أسيب شغلي.

- راشد بيه، الموضوع مش هياخد غير سواد الليل. هنروح النهارده ونرجع على الفجر.

- النهارده؟ اللي بتطلبه ده مستحيل سيادتك.

- سيادة الرائد، أنا ودعت ابني من ساعة ومش عارف هشوفه تاني ولا لأ. أنا عارف إنك مش متجوِّز بس أكيد عندك ناس بتحبهم.

صمت يسري للحظة قبل أن يستطرد:

- إنت متولِّي مجموعة أيتام في ملجأ، مش كده؟ ده السبب التاني اللي خلّاني أجيلك.

عقد راشد حاجبيه وضيَّق عينيه لكن قبل أن يستفسر بادره يسري قائلًا:

- إنت عندك عقل واعي وضمير صاحي غير كده مكنتش هجيلك؛ وده لأنك ساعتها كنت هتبقى نقطة ضعف مش قوة ولو جيت معايا لأرض القَطّان لا أنا ولا إنت كنّا هنطلع منها صدقني يا راشد بيه، الموضوع حياة أو موت .

لم يعرف راشد السبب الذي جعله يصدق يسري الدَّمَاطِي، لكن ما سمعه منه لمس شيئًا بداخله، شيئًا كان يشعر به طيلة حياته. في النهاية نهض ليفرد قامته الفارعة ويلتقط مفاتيحه قائلًا:

- ماشي يا يسري بيه، بس لازم تفهّمني كل حاجة.

- متقلقش يا سيادة الرائد، وإحنا في السكة هحكيلك. هحكيلك قصة أغرب قرية على وِش الأرض والكارثة اللي حصلتلها الشهر اللي فات.

*****

(٤)

لم تشهد بَرُّ الضيف احتفالاتٍ من أي نوع. منذ اللحظة التي انكسر فيها حاجز الغموض الذي كان يحيط بها وبدأ الناس يفدون إليها ويزحف العمران ناحيتها... وهي صامتة. لكنها فرضت على نفسها قواعد تعيش بها وتُلزِمها لمن يعبر بها أو يستقر فيها، قواعد تتمحور حول السريَّة وعدم لفت الانتباه سواء بالصوت أو الضوء، كأن هناك من يخشى سكانها أن يعلم بوجودهم. وعندما يحلّ المساء يلزمون بيوتهم ويُسدلون الأقمشة على النوافذ والأبواب. أما المسافرون وعابرو الطريق فلا يُسمَح لهم بالمكوث بعد غروب الشمس.

الكل يعرف أن هناك سرًّا رهيبًا وراء تلك المحاذير لكن لم يجرؤ أحد على السعي خلفه. فالهيبة التي اكتسبتها برُّ الضيف كانت تثير قلق الجميع وتقتل فضولهم.

***

قبل زيارة يسري لراشد بشهر...

قرنان من الزمان ظلت تلك القواعد سيفًا على رقاب أهل بر الضيف ومرتاديها، حتى اليوم الذي جاءت فيه دعوة غير مسبوقة للرائد يسري الدماطي مأمور مركز العلاتمة، دعوة من أقرب أصدقائه إلى قلبه. أما

فحواها، فهو أكثر ما كان يخشاه في حياته.

في الحال ترك يسري ما كان بين يديه من مهام وأعمال وانطلق لبر الضيف هو يعلم القواعد جيدًا، وتلك الدعوة التي جاءته تنذر بما حذره والده منه وجَدُهُ من قبله توقع أن يجد الوضع كارثيًا، توقعه منذ اللحظة التي أعطاه عبد العظيم أوراق ميراث توحيدة.

لم تكن ساحة السوق قد أنشِئت بعد؛ لذا فقد عبر يسري المدَقَّ الذي يصل الطريق الرئيس بالقرية نفسها مهرولًا بحصانه، واتجه مباشرةً إلى أرض القَطَّان. هناك وجد الزينات في كل مكان، على الأشجار، بطول الأسوار وفوق البيوت. الصَوَان كان منصوبًا والموائد مفروشة بالأطباق والأكواب، وهناك موائد يدور حولها النساء بصواني الفاكهة وأكواب الشربات.

توقف يسري على قمة المدق غير مصدق أن هذه هي بر الضيف التي ظلت صامتةً لقرون. تناهى إلى مسامعه ضحكات وهتافات أهل القرية، فجال ببصره في وجوههم ليجد عليها ما زاد من قلقه. وجدهم منتشون بسعادة غير مسبوقة، فغمغم متذمرًا ثم سلك المدق المنحدر متجهًا إلى بيت القَطَّان الملاصق للنيل. رغم ضيق المدق الذي تحيط به أشجار المانجو على الجانبين، فإنه كان مزدحمًا بأهل البلد وهم يتحركون من وإلى البيت.

أسند يده على مقبض سيفه وهو يسير بفَرَسه ويبحث بعينيه عنها.

أين توحيدة؟

تجاهله الجميع تمامًا، لكن ليرفض يسري الدماطي كما يشاء، فتلك الليلة ستحتفل بر الضيف للمرة الأولى.

وصل للساحة الخاوية أمام بيت القَطَّان فوجد أن الموائد قد تراصَّت حول شجرة تتوسط المكان، شجرة قديمة يعرفها جيدًا ملتوية الجذع كأنها تنحني. مدَّ بصره إلى البيت المكون من طابقين ليجده في أبهى

صوره. الجزء القديم الذي يعود إلى قرنين مضيا مزدان بألوان ورسوم مبهجة، أما الطابق الثاني الذي بُني لاحقًا فقد عُلّقت عليه المصابيح والزينات.

عادت عيناه لتبحثا عنها لا شعوريًا، أين أنتِ؟

لكز فرسه وتقدم مخترقًا جحافل الفلاحين حتى وصل إلى البيت. نظر إلى السطح ليجده مظلمًا تمامًا. لا يظهر فوقه إلا ذلك السلم الخشبي القديم الذي لا يقود لشيء، والذي يمتد من أمام مدخل الطابق الأرضي مباشرةً إلى الأول. يكمل بعدها إلى السطح، ثم يستمر في صعوده إلى لا شيء. شاهدٌ مثيرٌ للخيال والتساؤلات على الجنون الذي يحيط ببر الضيف.

- يسري بيه!!

نزل بعينيه لباب البيت من حيث جاءه النداء. نزل من فوق حصانه قائلًا:

- إيه يا عبد العظيم اللي بتعملوه ده، إيه اللي بيحصل؟

- نوَّرتنا يا يسري بيه!!

كان رد عبد العظيم الذي قاله بابتسامةٍ مبالَغ فيها ونبرة عالية، فأشار يسري إلى المصابيح المعلقة وقال:

- إيه الميكروفونات دي وفين الصفايح اللي بتتحط على الأنوار؟ بر الضيف بتعمل إيه؟

لم يُجِبهُ عبد العظيم وإن ظل محتفظًا بابتسامته، فربط يسري حصانه في أحد الأشجار وصعد سلم المدخل، ليقف بجوار صديقه الذي قال بمنتهى البساطة:

- سبوع حفيدتي سلمى، ما أنت حضرت خِلفِتها يا سيادة المأمور. وبعدين انتخابات مجلس الشعب على الأبواب، إنت عارف أهمية

وجودي فيه، وعارف إنه لازمن الشويتين دُول.

- سلمَى بقى عندها أكتر من شهر يا عبد العظيم.

ابتلع عبد العظيم غُصَّة عالقة في حلقه وقال بصوت مبحوح:

- ولمَّا تكبر يا يسري؟ مصيرها هيبقى إيه؟ زي بجيَّة نسوان عيلة الجطَّان؟ مش كفاية إكده؟ مش كفاية عمتها؟ مش كفاية اللي شافته عيلتنا؟

وقف يسري مبهوتًا يراقب كل لفتة من لفتات كبير عائلة القَطَّان. جزَّ الأخير على أسنانه وحدَّق في وجه يسري الذي شعر بالغضب العارم المكتوم يصرخ بداخل صاحبه. التفت عبد العظيم ليُفرغ شحنة مشاعره في أحد العمال وهو يعلق مصابيح الزينة فوق إحدى الأشجار، ويصيح به أن يحترس كي لا يقع فوق الموائد. بدأ يسري يفقد أعصابه هو الآخر وقال بنبرةٍ لا تخفي حنقه:

- إنت بَعتِّلي الدعوة ليه يا عبد العظيم؟

التفت له الأخير وحدَّق فيه لوهلةٍ قبل أن يقول:

- تعالَ يا يسري.

قالها ودخل البيت، لكن قبل أن يتبعه يسري فوجئ بسيارة نقل تدخل الساحة وخلفها يركض عدد قليل من الأطفال.

- عوالم يا عبد العظيم؟؟؟

قالها يسري ليتخشَّب عبد العظيم للحظةٍ قبل أن يكمل طريقه ويدخل بيته. تبعه يسري وجلس معه في صالة البيت، ينظر كلَ منهما للآخر في تَحدٍّ.

- أشكرك إنك لبَّيت الدعوة. كان يهمني وجودك جدًا.

ظل يسري يحدق في وجهه للحظةٍ قبل أن يقول:

- اشمعنى؟ علشان أشوفك بترمي نفسك في التهلكة؟ علشان أشوفك بتكسّر كل عاداتكم وتقاليدكم؟ سبوع إيه اللي عايز تعمله يا عبد العظيم؟ من إمتى؟

- مرة من نفسينا يا يسري. ولّا هو الهمّ والجَرَف مكتوب علينا؟

- واللي ساكن البَرّ التاني!

هنا لم يستطِع عبد العظيم أن يكبح جماح غضبه:

- ملعون!!! اللي ساكن هناك ملعون ولعنًا كلنا!! ربنا يسامحه اللي كان السبب. ميتين سنة يا يسري، ميتين سنة خوف طفحناهم لوحدنا. ميتين سنة خايفين نغلط، خايفين نضعف. كفاية إكده!!

حدّق يسري في وجه عبد العظيم الذي تحوّل من الأبيض إلى الأحمر دفعة واحدة وقال

- لوحدكم؟

بنبرة أعلى استطرد عبد العظيم متجاهلًا تعليق يسري:

- لغاية إمتى هنفضّل نحمي الناس منه والناس نسيانا يا يسري؟ خلاص، سيبونا بجَى نفرح ليلة.

تماسك يسري بصعوبة وقال من بين أسنانه وبابتسامة صفراء:

- و"هو" هيسيبكم تفرحوا ليلة؟

سكت عبد العظيم وظل يتأمل في ملامح صاحبه حتى هدأت نبرة صوته:

- ما هو أنا چايبك علشان إكده يا يسري. عايزك تُجَف وتراجب من بعيد. ولو حصل حاچة خد يوسف وسلمَى من هنا واهرب بيهم. أما الضيف...

سكت لحظة ونظر من النافذة بتعبيرٍ عجيب. ضمّ قبضته بقوةٍ عارمةٍ

حتى ابيضّ جلده وهو يغمغم:

- يا ريت يچي.

هبّ يسري واقفًا وقال:

- وأنا هأقف أتفرج؟ أنا مش هسكُت يا عبد العظيم.

أجابه عبد العظيم بكُلّ برود:

- يبجَى هنجُف قُصاد بعض يا خوي، وإنت لوحدك إهني.

تغير وجه يسري وحدّق في وجه صاحبه بقوة قبل أن يلمح الخفر الذين أحاطوا بهم. إنه لا يمزح. تلك النظرة الثابتة والتعبير القاسي، هذا وجه من لم يعُد لديه ما يخسره. احتفظ يسري بتعبيرٍ صارمٍ وهو يقول متجاهلًا الخفر:

- وتوحيدة؟

- في المركز وهتيجي كمان شوية. هي متعرفش حاچة.

كان رد عبد العظيم قبل أن يعود بظهره ليستند على الأريكة الفلاحي قائلًا:

- أنا عارف إنك كنت عايز تتچوزها بعد مراتك ما ماتت، بس لو عرفت ليه نسوان عيلة الجطّان مبيخلّفوش، لو عرفت ليه بيبجَى فيه بِتّ واحدة بس في كل چيل، هتفهم هي ليه رفضت بنتي توحيدة يا يسري هي أهم واحدة فينا دلوجت

تذكر انك حملت رواية الميراث بر الضيف الجزء الثالث حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك.

*****

(٥)

عندما وصل يسري لتلك النقطة نظر راشد خارج نافذة السيارة إلى سماء الريف المظلمة. رماه يسري بنظرةٍ خاطفةٍ قبل أن يلتفت للطريق أمامه.

- متابع معايا يا راشد بيه؟

- إيه حكاية السيف ده؟

قالها راشد وهو يشير إلى السيف المُلقى على الأريكة بالخلف.

- وِرث عائلي.

مط راشد شفتيه بعدم اهتمام ثم قال:

- بس واضح إنكم كنتم صحاب جدًا، إنت وعبد العظيم القَطّان، رغم فرق السن.

ابتسم يسري وهز رأسه قائلًا:

- من قبل ما نتولد.

قطّب راشد حاجبيه وحدّق في وجه مُحدّثه قبل أن ينظر خارج النافذة مرة أخرى، وقد بدأ يندم على مجيئه. ثم تذكّر شيئًا فالتفت ليسأله:

- وإيه حكاية توحيدة دي؟

ابتسم يسري وزاغت عيناه للحظةٍ عن الطريق ثم أجاب:

- توحيدة؟... كل نساء الدنيا.

- نعم؟

ازدادت ابتسامة يسري عرضًا وقال، دون أن يبذل أي مجهود في إخفاء مشاعره أمام رجل رآه منذ ساعات قليلة:

- كانت دايمًا بتقول إن عندها دور أهم من بيت وعيلة. رغم إني كنت بحَس إنها بتبادلني شعوري لكنها كانت جبل مستحيل التسلّق.

تأمله راشد لوهلةٍ قبل أن يمطّ شفتيه مستفهمًا:

- وأبوها كان بيعمل كل ده من وراها ليه؟ هو بيخاف من بنته؟

زادت ابتسامة يسري وزاد معها شروده قبل أن يقول:

- أنا لو مكانه، وعارف إني بعمل حاجة غلط، هخاف منها برضه.

* * *

تسمّرت توحيدة مكانها لحظة دخولها من البوابة الحديدية التي تقود لبيتها، وهي تجول ببصرها في الزينات والموائد التي انتشرت حول بيتها وعلى الأشجار. انتفخت أوداجها وألقت ما كانت تحمل من أكياس أرضًا، ثم اخترقت الصفوف كالإعصار في اتجاهها إلى البيت. استقبلها يسري عند خروجه وتأمل وجهها الذي تحوّل من القمحي إلى الأحمر الأذكن، وعينيها الواسعتين التي انطلق منهما الشرر. أشار لها أن تهدأ وتأتي معه.

- فين أبوي؟

كان سؤالها المقتضب، فأجابها يسري وهو يشير إلى جانب البيت حيث الحركة قليلة:

- ممكن تيجي طيب؟

نفخت بغضب وأطاعته على مضض. ما إن استقرّا بجوار البيت على شاطئ النيل، حتى عقدت ذراعيها أمام صدرها وحدّقت في وجهه بقوة. أخذ يسري نَفَسًا عميقًا وقال:

- أولا لازم تعرفي إني مش موافق على اللي بيحصل ده أكتر منك.

- متجولش أكتر مني. مش هتزايد عليّا من أولها.

- حاضر يا ستّي. مش موافق زيّك؟ ماشي كده.

استدارت لتغادر فأمسك ذراعيها للحظة كي يُوقفها ثم أطلقه بسرعة قائلًا:

- توحيدة!! استنّي بقى!!

- إنچز يا يسري بيه. جولّي إيه اللي بيحصل جَبل ما أروح أطربج البيت على اللي فيه.

تبادلا نظرة حملت ألف معنًى قبل أن تستطرد:

- مش مصدَّج إني ممكن أعمل إكدِه؟ أنا مش لوحدي يا سيادة المأمور وإنت عارف ده كويس.

- عارف، بس بُصّي حواليكي، إحنا جينا متأخر.

استدارت توحيدة مغادرةً وهتفت:

- مفيش حاچة اسمها متأخر لو أبوي وأهل البلد تعبوا أنا عمري ما هتعب يسيبوها ويمشوا، وأنا هكمّل لحالي

تأملها يسري في إعجابٍ وهي تبتعدُ قبل أن يلاحظ أنها لم تذهب إلى البيت، بل دارت حوله لتصعد التلّ الذي يطل عليه من جهة الغرب. التل الذي يحدُّ الوادي الذي يحتوي أرض المانجو والقرية من تلك الناحية.

إنها ذاهبة إليه إذًا.

ذلك الأعرابي الذي كان هنا قبل الجميع.

لمح يسري الخَفَر وهم يحيطون به فضيَّق عينيه وهز رأسه مُتفهِّمًا. استسلم لهم بهدوء وتركهم يقودونه إلى بوابة أرض القَطّان الحديدية. لم يتركه الخَفَر حتى صار في القرية نفسها التي أصبحت شبه خاوية. التفت لينظر من البوابة حيث رأى عبد العظيم يرتقي سُلّم بيته ويرفع يده قائلًا شيئًا، استنتج أنه إعلان ببدء الاحتفال.

نظر إلى حصانه وفكّر للحظةٍ لكنه نفى الفكرة، فهو يعلم أنه لن يتمكن من الذهاب لجلب قوات من المركز والعودة في الوقت المناسب. انتظر حتى تركه الخَفَر وتسلل عائدًا ليختبئ بين أشجار الجازورين العملاقة التي تحيط بأرض القطان، ويراقب ما يحدث هناك.

سرَتْ قُشعريرَة باردة في جسده وتحسّس غمد سيفه لا إراديًا، فهو الآن سيرى بعينيه إن كانت أسطورة بَزّ الضّيف حقيقية... أم لا.

* * *

- إيه حكاية الخفير ده؟

سأل راشد وقد بدأ يتابع رواية يسري الدماطي باهتمام. أجابه الأخير دون أن تترك عيناه الطريق أو تترك يده مقوَد السيارة:

- الخفير ده مكنش بيحرس الأرض يا راشد بيه.

- أومَال إيه؟

- كان بيحمي عيلة القَطّان.

حدّق راشد في وجه يسري لوهلةٍ ثم قال:

- من إيه؟

- إحنا وصلنا.

نظر راشد خارج النافذة ليجد أنهما قد توقفا عند منحنى طريق زراعي. على يمينه النيل وأمامه أشجار الجازورين العملاقة حيث ينحني الطريق يسارًا مبتعدًا عن الشاطئ. على الأشجار أمامهم تستقر أعدادٌ هائلةٌ من الحمام في سكونٍ مريب كأنها حراس، كأنها... تراقبهم. نزل من السيارة كما فعل يسري ليُفاجأ به يُخرج سلاحه ويشد أجزاءه، ثم يطلق عيارين ناريين في الهواء.

جحظت عينا راشد حين رأى أسراب الحمام وهي تترك أماكنها متثاقلة،

ليظهر المِدَقُّ الذي يقود إلى بَرّ الضيف من بين الأشجار. تيقّن لحظتها أنه لم يخطئ في المجيء. نظر إلى يسري الذي ابتسم له وتقدم ليدخل المدق، وهو يحمد ربه إنه اتضح له أنه ليس مخبولًا. لكن هذا لم يمنعه من السؤال الحَذِر:

- هو إحنا هنشوف إيه جوّه يا يسري؟

استمع راشد بكل حواسّه وهما يسيران في ضوء القمر بين الزراعات، استمع إلى يسري الدماطي الذى حكى له عن أحداث أغرب ليلة في القصة كلها... وأكثرها ظلامًا.

الليلة التي خطا فيها الضيف أول خُطاه... فوق أرضنا.

***

من وسط الزراعات راقب يسري الاحتفال الذي دوّت أصداؤه في الناحية كلها.

الضحكات.

الحديث المَرِح.

الأنوار.

الأغاني.

أكواب المشروبات وصواني الفواكه.

الوليمة التاريخية.

ثم الزغاريد.

تناهى إلى مسامعه نغمات موسيقية فنظر تجاه السيارة النقل الرابضة خلف البيت ليجد العازفين يقفون هناك في دائرة، وجوههم للداخل. لم يستطع التحديد بدقة ما كانوا يفعلونه بسبب الظلال التي خلقتها

المشاعل والمصابيح التي كانت تتمايل مع إيقاع الرياح.

بَرُّ الضيف فيها فرقة عوالم؟ لم يصدق يسري نفسه، وهو يتابع أعضاء الفرقة، رجلين وستّ نساء وطفل، في توجُس بعد أن وقفوا في دائرة صامتة.

كان هذا هو أول الأشياء المريبة التي بدأ يلاحظها. ثم أصبح حال أهل البلد أكثر غرابة. شعر أنه يراهم للمرّة الأولى، كأنهم كانوا مسجونين طيلة عمرهم وخرجوا للحرية لتوّهم وانطلقوا للاحتفال بجنون، كأنهم... سَكارَى.

هنا بدأ يفهم ما كان يعنيه عبد العظيم بأنهم "شربوا الخوف والوحدة". فهو لسببٍ ما شعر أن بر الضيف قد شهقت لتوّها وعادت للحياة.

الضحكات عنيفة، صارخة، تفرض نفسها على وجوه لم تَغتذها، ضحكات تئنُّ من قسوتها جلودهم اليابسة وتجحظ بسببها عيونهم الحزينة. هؤلاء قوم مزّقوا لتوّهم أقنعة حديدية كانت تحبس أرواحهم جيلًا بعد جيل.

شيء ما أخبره أنه يجب أن يرحل، أن ينفذ بجلده، لكنه لا يستطيع. فقد وعد عبد العظيم أن ينتظر حتى يتأكد من سلامة أحفاده. ثم بدأ يدرك أن هناك شيئًا في ذلك المشهد الذي يحدث أمامه لا يستوعبه.

الزغاريد، الضحكات، والغناء، كلها مبالَغ فيها، كأنهم لا يريدون أن يشعروا بقدوم الليل الذي بدأ يفرض سيطرته. الأحاديث غير مفهومة، غير مكتملة. ما إن يفتح أحدهم موضوعًا ويستجيب له آخر حتى يتوهان في موضوع فرعي أو يضحكان بلا سبب. حتى المشروبات، يتركون الأكواب نصف ممتلئة ويأخذون أكوابًا أخرى ليجترعوا محتواها بشرَهٍ غير مفهوم.

ثم سمع الأغنية.

التفت يسري إلى فرقة العوالم ليجدهم يتحركون ببطء مثير ويتركون

الدائرة الواحد تلو الآخر.

"القمح الليلة، الليلة، ليلة عيده. يا رب تبارك، تبارك وتزيده...".

تعالت الهتافات وازدادت حالة الانسجام المحمومة لأهل بر الضيف، بينما وقف عبد العظيم القَطّان بين الخَفَر أعلى سُلّم بيته يراقب الاحتفال. تعجّب يسري من تلك الابتسامة التي ثبّتها عبد العظيم على وجهه وهو يجول ببصره بين أهل البلد، نظرة تردد، كأنه لا يثق بما يفعله. ثم انتبه الفلاحون لعبد العظيم وبدءوا يهتفون باسمه لتزداد ابتسامته عرضًا وتعود إليه ثقته.

هناك من يقف في الطابق الأول، امرأة تحمل طفلةً رضيعةً وبجانبها طفل لا يتعدى الخامسة. بالتأكيد توحيدة، هذا الشَّعر الفضي القصير لا يمكن أن يُخطئه.

الزغاريد، اللعنة عليها، كادت تخرق طبلتَي أذنه. هذه ليست زغاريد، بل صرخات جهنمية.

لكن سرعان ما جذبت فرقة العوالم انتباهه تمامًا. راقب يسري أفرادها وهم يخترقون الصفوف بانسيابية، كأنهم يتحركون في ماءٍ يصل إلى وسطهم. يمشون محركين أذرعهم كأنهم يجدفون دون أن يبدو على أهل البلد أنهم يأبهون لغرابة حركاتهم. يقود الفرقةَ فلاحٌ مبتوزُ القدمين يستند في مشيته على عكازين بينما تغطي الأتربة كل شبر في جسده الضخم. أما ملامحه فكانت غائرة، بارزة العظام يعلوها السواد.

لكنهم لم يكونوا يعزفون، بل يغنون بأصوات عنيفة غاضبة.

من أين تأتي الموسيقى إذًا؟ من السيارة النقل؟ هل هناك آخرون بداخلها؟، أما اللحظة التي دقق فيها يسري النظر في وجوه العوالم، فكانت بداية تحوُّل ذهوله وحيرته إلى توجس.

لماذا لا يستطيع تحديد ملامحهم ؟

كأنها تتبدل بين كل لحظة وأخرى.

حتى هيئتهم، تتبدل أطوالها و...

هل كانوا ستة رجال وامرأتين و... كلب؟

كلّا، هم أربع نساء وأربعة رجال وحيوان يشبه التمساح...

ثم جاء صوتٌ جعل الدم يتجمد في عروقه، صوت كأنه خُوَار بقرة عملاقة تُذبح. مدَّ بصره إلى ما هو أبعد من البيت والنيل من خلفه، إلى البرّ الثاني قليل الخضار. هناك، في ضوء القمر، رأى ظلالًا تقترب بتُؤدَة وتحتشد على الضفة المقابلة قبل أن تنقسم إلى نصفين وتترك ممرًا بينهم.

ما إن لمح يسري ذلك الكيان العملاق المبهم الذي ظهر في الأفق خلف التلال والكثبان، حتى انقبضت عضلاته كلها وتقلصت معدته من القلق

لقد شعر بنا، من كان يتحسَّس أخبارنا، وعثر علينا.

لقد فعلتها يا عبد العظيم، لقد وصل صُراخك الغاضب إليه.

بحث بعينيه عن فرقة العوالم فوجدهم قد اعتلوا سُلَّم بيت القَطَّان وصنعوا دائرة حول عبد العظيم الذي أغمض عينيه مستسلمًا.

الأغنية لا زالت مستمرة.

فجأةً انتبه قائدهم والتفت لينظر فوقه، إلى نافذة في الطابَق الأول، حيث طلت توحيدة على الساحة؛ وكذلك فعلت بقية أفراد الفرقة. ثم تحرك القائد على عُكّازيه وتبعه أفراد الفرقة إلى داخل البيت مثل الماء الذي يتسلل بين الشقوق.

ضم يسري قبضتيه وقد عاد إليه غضبه أضعافًا لكن قبل أن يهبّ لإنقاذها أمسكت يد بذراعه.

انتفض مذعورًا وانتزع ذراعه بقوة ثم زحف للوراء، وهو يحدق في

ذلك البدوي العملاق ذي الشعر الرمادي المجدول الذي ترك ذراعه دون مقاومة.

لم يرَهُ عن قرب من قبل، لكنه يعلم من هو. تلك الملامح الغائرة التي حفرها الحزن في وجهه بخطوط قاسية. ورائحته، تُذكّره بمياه البحر المالحة وتأثيرها على السفن. حتى ملمَس جلده وهيئته، لا يدري لماذا جعل ذهنه يتصور أسوارًا غارقة.

هارون.

ثم صدَت حولهما دقّات الطبول.

تبادلا نظرة طويلة تاه فيها يسري في ظلمات عينَي هارون. لم يُنهِها الأخير إلا بعد أن هدأ روع يسري، ثم انصرف بعدها ببطءٍ شديدٍ إلى الاحتفال وتحرك باتجاه البيت. انقبض قلب يسري حين رآه يمشي وسط أفراد فرقة العوالم، كأنه يمشي في بحيرة تصل إلى وسطه.

الزغاريد، إنها تزداد حِدّة.

التفت يسري للبيت ليرى من خلال نوافذه أن أتباع الضيف من العوالم قد وصلوا إلى الطابق الأول. ثم رأى أن توحيدة قد هربت إلى السطح ومعها الطفلان ووجهها يصرخ بأعتى آيات الذعر.

- دول طالعين لهم!!

لا يدري لِمَ هتف لها لهارون، كأنه يستنجد به. تسمَّر هارون مكانه وانتبه إلى البر الثاني من النيل، هناك كان الخيال العملاق يتحرك على الأرض والأشجار والتكوينات الرملية، ظِلّ لم تخلقه شمس ولا قمر.

ظل كأن هناك سُحُبًا غير مرئيَّة تجري فوق التلال والكُثبان.

اخترق الكيان الأسود صفوف الظلال المحتشدة حتى بلغ الشاطئ المقابل لبر الضيف. بينما تراقصت الظلال اللانهائية حوله بهستيريا كأنها أشباح سوداء تُهلّل له.

ثم صدى من هناك صراخ شيطاني سكت بعده كل شيء. عندها صمتت الأشياء وتوقفت الموجودات عن الحركة، إلا من تمايل أهل القرية بإيقاع واحد كأنهم أشجار تحركها ريحٌ خفيفة.

وسط تلك اللوحة الساكنة تقدم هارون إلى ساحة بيت القطان، بين أهل القرية. أخذوا يلوّحون بأذرعهم بحركات عشوائية كأنهم يبحثون عنه في الظلام، يشعرون به لكن لا يرونه. راقبه يسري وهو يدور حول عبد العظيم ويدخل البيت دون أن يُعيرَه انتباهًا. ثم التفت يسري إلى أهل القرية ليجد الموقف في الساحة قد وصل لمرحلة الجنون. فقد نزل الفلاحون جميعًا على رُكبهم وبدءوا يدقون بكفوفهم على طينة الأرض الجافة، بينما رفع عبد العظيم القَطّان كفّيه للسماء.

* * *

- العوالم والخيالات اللي على البر التاني، كانوا إيه بالظبط؟

كان سؤال راشد لحظة خروجه مع يسري من الممر المائل إلى المساحة الواسعة التي تراصّت البيوت على جانبها الأيسر. إلى جانبها الأيمن امتدت أرض القَطّان.

- أتباع الضيف، جزء منه، امتداد ليه أو حتى ضحاياه من أزمنة تانية. ممكن يكونوا حاجة من دُول أو كلهم، أو يمكن ولا حاجة منهم.

- يعني كل ده مش الضيف نفسه؟

- مش عارف بالظبط لإننا مش مُؤهَّلين لاستيعاب حقيقته.

أجابه يسري ثم أضاف بعد لحظة صمت:

- وبصراحة مش محتاجين نفهم.

- إزاي يعني؟

قالها راشد وهو يجول ببصره في أنحاء القرية البسيطة، ليجدها قد أنشئت فوق التلال على هيئة شارعين متوازيين مع النيل. إلى يمينه،

على ضفة النيل الملاصقة للقرية، توجد أرض القَطّان المحاطة بخط أشجار الجازورين العملاقة. شُيّدت البيوت الطينية بطول الشارعين إلى يساره، بينما أحاطت أراضي المانجو بالقرية كلها.

- مش محتاجين نفهم لأن الجزء ده من الحكاية ميخصّناش، ولو عرفناه مش هنقدر نستوعبه. ده جزء من عالم كابوسي راح وأتمنى إنه ميرجعش. دنيا كانت قبل الدنيا.

انتبه راشد إلى يسري الذي قال جملته الأخيرة وهو يضغط بقوة على مقبض سيفه، فانقبضت عضلاته في تحفز قائلًا:

- مالك يا يسري؟ فيه إيه؟

حرّك يسري عينيه في مقلتيهما وهمس:

- البلد دي ليها قواعد، واحنا بنكسّرها كلها. وأولها إن مَحدّش بيمشي فيها بالليل.

دار راشد بعينه في أنحاء القرية المظلمة وقال:

- ليه؟

- فيه جيل كامل يا راشد من أهل بر الضيف اختفى من على وِش الأرض الشهر اللي فات، في الليلة اللي بحكيلك تفاصيلها. وأتمنى منقابلش نفس اللي شافوه في "ليلة القَطّان".

وضع راشد يده على سلاحه لا إراديًا وأنصت بكل تركيز.

***

ظل يسري رابضًا في مكانه خارج البوابة يراقب من بين أشجار الجازورين البيت الذي ظهر في آخر المدق المائل أغنية "القمح الليلة" عادت لتصمّ الآذان، يصرخ بها أهل البلد في غناءٍ أقربَ للهدير. أعلى السلم المؤدي لبيته، وقف عبد العظيم القَطّان يحرك ذراعيه وهو

مغمض العينين كأنه قائد أوركسترا في حالة نشوة.

تجاهل يسري الاحتفال المجنون الذي يحدث حول البيت وصبَّ كل تركيزه على ما يحدث فوق السطح. هناك وقفت توحيدة، في ضوء القمر، شاخصة البصر، بين ذراعيها استقرت سلمى الرضيعة بينما يحتضنها يوسف مذعورًا.

تسارعت دقّات قلب يسري في عنف عندما لمح قائد فرقة العوالم يقترب منها بعكّازيه ووراءه يظهر أفراد الفرقة تباعًا. أخرج يسري سلاحه من غمده وصوبه إلى ذي العكّازين الذي توقف عندما بلغ توحيدة وعيناه الباردتان ثابتتان على ظهرها... ثم مدَّ ذراعه. لا توجد لدى يسري فرصة للتسديد، سوف يصيب توحيدة بكل تأكيد

أين أنت يا هارون؟ لماذا منعتني من اللحاق بها وإنقاذها؟

أغلقت توحيدة عينيها وضمَّت سلمى ويوسف إليها في قوة، وفي تلك اللحظة ظهر فوقها جناح أبيض. تخشَّب ذو العكّازين في مكانه ومعه من صعد من أفراد الفرقة، وانتبهوا إلى أسراب الحمام الذي بدأ يهلّ على المكان وهو يخفق بقوة كأنه يذود عن توحيدة والطفلين. بهدوء شديد أخذ أفراد الفرقة، الذين ظلت هيئتهم تتبدل أمام عينَي يسري، يلوِّحون بأذرعهم في الهواء في محاولةٍ غريبةٍ للإمساك بالحمام.

ثم ظهر هو، وسط عاصفة الأجنحة البيضاء، بطوله الفارِه وشَعره الرمادي المَجدُول، سار بين أفراد الفرقة بتؤدَةٍ حتى بلغ توحيدة. التقط يسري أنفاسه التي كانت قد احتبست منذ برهة وهو يرى هارون يأتي بذراعيه المفرودتين من الخلف للأمام كأنه سيحلّق في الهواء، ليظهر تحتهما خيوط طويلة باللونين: الأبيض والأسود. وما إن ضمَّ ذراعيه فوق توحيدة والطفلين حتى امتزجت الخيوط ببعضها؛ لتصبح قماشةً واحدةً بيضاء تركها تنسدل فوقهم بإحكام.

هنا سكت أهل البلد عن الغناء وسكنت حركات عبد العظيم بينما اختفت أسراب الحمام؛ ليصبح المشهد ساكنًا مرة أخرى كلوحة

مُصمَتة.

انحبست أنفاس يسري من جديد وهو يتابع توحيدة التي أحكمت حول جسدها القماشة. استدارت بعدها لتعبر بجوار ذي العكّازين دون أن يبدو عليه أنه يراها. تخشّب أفراد الفرقة في مكانهم كأن الحياة قد انسحبت منهم دفعة واحدة أثناء عبور توحيدة بينهم. لكنها حين بلَغت السُلّم الذي يخترق السطح ويصله بالطابَق الأرضي وجدَت أحد أفراد الفرقة يسد الطريق عليها.

مرَّت لحظة كالدهر أمضاها يسري في مراقبة توحيدة وهي تعبُر بين عضو فرقة العوالم الضخم وبين الحائط، لحظة أصدر فيها الأخير تشنُّجات مرعبة كأنه يشعر بها لكنه لا يراها. اختفت بعدها عن مجال رؤية يسري لتظهر في إحدى نوافذ الطابق الأول، وهي تسير مُتستِّرة بالقماشة بين أفراد الفرقة الذين تحوَّلوا إلى تماثيل بلا حياة.

- يسري بيه.

هكذا سمع من ورائه فالتفت كالملسوع ليجد الشيخ خَلَف يراقبه في توجُّس وهو ملتفح بغَتْرته.

- عارف هتعمل إيه يابن الدماطي؟

التفت يسري ليتابع تسلل توحيدة من بين أهل البلد وهزَّ رأسه بالنفي. تناهى إلى سمعه همسات تنادي توحيدة وتتساءل عن مكانها، وتهيَّأ إليه أن هناك ظلالًا لأنصافِ سُفلية لبشر يركضون في المكان تحت ضوء القمر.

- عيلة القَطّان يا يسري بيه كل خِلفتها ذكور، كل جيل بتيجي بنت تسلَم اللي قبليها.

- تسلَمها إيه؟

قالها يسري بعد أن التفت إليه بوجهٍ محتقن. تخلَّل خَلَف ذقنه الشعثاء

بأنامله قبل أن يقول:

- مَحدِّش عارف غيرهم يا يسري بيه. حاجة ليها علاجة بالطريجة اللي جم بيها للدنيا، اتفاق عمله هارون مع چدتهم فاطنة من مِيتين سنة. أنا بجولَك إكده لإن دي المرة الأولى اللي تتولد فيها بنت واللي قبلها لسه عندها خمسة وعشرين سنة. ومَحدِّش عارف ده معناته إيه.

صَدَت النغمات مرةً أخرى لينتبه يسري إلى القماشة البيضاء التي ظهرت من البوابة لتؤها، بينما كادت مَن تمشي تحتها أن تنهار على الأرض. هنا هبّ يسري ليمنعها من السقوط وضمّها بقوّة.

وللمرة الأولى في حياتها، تخفض توحيدة دفاعاتها وتستسلم ليسري. للمرة الأولى سكنت بين ذراعيه حتى لو حالت بينهما قماشة أسدلها فوقها بشري لا يموت، قماشة ابتلَت بدموع خوفها وحَيرتها. لو كانت هناك لحظة في حياة كليهما تستحق الحرب من أجلها فهي تلك اللحظة، لحظة حلَقت فيها أرواحهما عاليًا وارتقت فوق كل الأسوار لتتعانق كما لم يتعانق مُحبَّان من قبل .

بهدوء أزاح يسري القماشة من فوقها بينما هبّ خَلَف كي يرفع يوسف من فوق الأرض ويأخذ سلمى من ذراع توحيدة قبل أن تنهار قوتها. تأمل يسري عينيها الواسعتين الدامعتين من فرط التأثر وشعر بقلبه يعتصره من هول ما مرَّت به. لحظة طويلة مرت كالدهر وعيونهما متشبثة ببعضهما كأنه لم يعُد هناك غيرهما في الدنيا، كأنهما الأمل الأخير لبعضهما.

ثم تذكَّرت توحيدة شيئًا فهبّت لتنظر عبر البوابة الحديدية التي خرجت منها والمؤدية لأرض القطان، التي وجدت هارون يغلقها ببطء. أمسك يسري بيدها وهتف:

- خلاص يا توحيدة، الوقت فات.

تسمَّرت مكانها وهي تبادل أباها نظرة أخيرة، لوَّح فيها بيده ليحثُّها

على الابتعاد وهو يصرخ:

- إنت بَجِيتي حُرَّة خلاص، إنتي وسلمى ويوسف، بَجِيتُوا أحرار.

ثم انغلقت البوابة. انهارت توحيدة على ركبتيها وأغلقت عينيها بقوة كي لا يتحوَّل بكاؤها الصامت إلى نحيب. ثم تقدم إليها يسري وانحنى ليهمس:

- هرجعله يا توحيدة، أحلفلك إني هرجعله. مش هسيب عبد العظيم.

***

- ورجعت... علشانها؟

قالها راشد ليرمقه يسري دون أن ينطق بها. التفت ليتقدم بحذاء أشجار الجازورين حتى وصل إلى بوابة أرض القُطَّان الحديدية العريضة، بوابة مقفولة بجنزير سميك. بدا لراشد أن قرار دخول الحديقة ليس سهلًا على يسري على الإطلاق، فقد وقف أمام الباب الحديدي يستجمع شجاعته، قبل أن يمدَّ يدَه ليحرره من الجنزير ويدفعه بحذر.

جفل راشد في اللحظة التي انفتح فيها الباب وخرج منه صوتٌ، كأن هناك آلاف الأجنحة تتخبَّط بالداخل بعشوائية وغضب. لكن سرعان ما انخفض الصوت حتى انعدم، فأشار يسري إليه كي يستجمع شجاعته ثم ينظر عبر البوابة. انحنى الأخير في حذر وتهيأ نفسيًا لما سيراه قبل أن يتخشَّب كالتمثال. لكنه لم يستعدَّ بما يكفي. مهمًا كان دقة ما سمعه من يسري وتمهيده فإن عقله لم ينجح في استيعاب المشهد الذي وجده أمامه.

تركه يسري يأخذ وقته في الاستيعاب. لكن ما لبث راشد أن فتح عينيه عن آخرهما بذهول وانقبض قلبه بغتة. فما وجده في أرض القُطَّان لم تكن حديقة من الأشجار، بل حديقة من البشر. اقترب راشد حتى أسند كفَّه إلى الباب وهو يُحدِّق في تلك الأزجُل البشرية التي خرجت من الأرض كأنها أفرُع. مشهد كابوسي لأناسٍ دُفنوا بأجسادهم العلوية في

جحيمٍ ما أسفل التربة. أمام عينيه غابة من السيقان البشرية اليابسة تخرج من الأرض بأوضاعٍ مؤلمة.

- إ... إيه ده يا يسري؟

همس راشد ليجيبه الأخير وهو يشير إليه:

- أهل بر الضيف. ارجع شوية يا راشد علشان ميشعروش بيك. هم هيفضلوا كده عالقين بين عالمين لغاية ما تتحدد نتيجة معركتنا مع الضيف.

تراجع راشد خطوة في نفس اللحظة التي تقلصت فيها عضلاته وجحظت عيناه، حين لمح حركةً لا إراديَّة من إحدى السيقان الناتئة من التربة. اقشعرَّ بدنه وهو يجول ببصره في الساحة التي تضيئُها النجوم والهلال الرفيع، قبل أن يلتفت إلى يسري ليجده يعطيه مفتاح السيارة ويهمس:

- امسك يا راشد، لو مرجعتش قبل الفجر، اهرب من هنا.

- إنت رايح فين؟؟ اوعك تقولي إنك هتدخل؟

نظر يسري لبيت القَطَّان، بالتحديد لغرفة بالطابَق الثاني، وقال:

- حتى لو مكنتش وعدت توحيدة، مكنتش هتخلَّى عن عبد العظيم. واجبي وواجب أجدادي حماية القرية وناسها، ماليش دور في الحياة غير كده. وإنت دلوقتي بقيت جزء منه.

صرف راشد عينيه إلى أرض القَطَّان المُقبِضة قبل أن يقول:

- الصراحة يا يسري أنا اللي لا قادر أستوعب اللي بسمعه منك ولا اللي شايفه بعيني ده. عقلي رافضه لكن قلبي فهمه.

- وعلشان كده أنا اخترتك بعد تقصّي طويل، اخترتك لأن مَحدّش ممكن يتعامل مع الموقف ده بعقل وحكمة وحزم غيرك، شخص ممكن يفهم إن فيه حاجات في الدنيا دي مش لازم نستوعبها علشان نحترمها.

دلوقتي خد السيف ده، إدّيه لتوحيدة لو مرجعتش.

تأمله راشد للحظةٍ قبل أن يقول:

- وهي فين؟

- عندي في القاهرة.

قالها يسري وهو يعطي راشد سيفه وسلاحه:

- صعب إنك تفهم الصلة اللي بين عيلتي وعيلة القَطّان؛ لأنها قديمة، عمرها من عمر بَرّ الضيف.

قالها يسري بحزمٍ قبل أن يأخذ نَفَسًا عميقًا ويحدق مباشرةً في عينَي راشد.

- لما ترجع القاهرة يا راشد بلّغهم باللي شفته هنا. افتح القضية تاني وقدم عريضة جديدة، شهادتك مش هتكون مجروحة زيّي. القرية دي لازم تتعزل عن الدنيا، فاهمني؟ أهل بر الضيف -اللي فاضل منهم على الأقل- مهمتهم صعبة، ساعدوهم، ساعدوهم إنهم يتنسوا. وأوعك تدخل أرض القَطّان يا راشد، مَحدّش من غير أخطاء وإنت في غنى عن الاختبار ده. وأهم حاجة... لو هيهدّوا البيت أوعك تخلّيهم يجيوا ناحية السلم اللي طالع للسطح.

حدق راشد في وجه يسري لوهلةٍ وقد احتار في أمره بشدة. فهو في حياته لم يمرّ بموقفٍ مثل هذا ولم يتوقع أن يحوز أحدهم على احترامه بهذه السرعة، وسط كل هذا الجنون. لذلك فقد رفع يده بالتحية وقال بمنتهى الصدق:

- تمام يا سيادة الرائد.

ابتسم يسري وربّت على كتف راشد الذي بادله الابتسامة وهز رأسه بوقار. ثم نزع القماشة المتسخة التي كانت مربوطة حول شجرة الجازورين وألقاها فوق رأسه حتى صار أشبه بالشبح. عدّل وضعها

حتى أصبح أمام عينيه فتحتان صغيرتان، ثم همس لراشد الذي كان يُحدّق فيه باستغراب:

- متسألش، دي وصايا هارون.

قالها ثم تقدم باتجاه البوابة وعبَر منها بأقل ضجة ممكنة، قبل أن يلتفت لرفيقه ويقول:

- ابني مالوش غيري في الدنيا يا راشد، ساعده لو احتاجك، ساعده من غير ما تقولّه اللي شفته النهاردة، ما تقولش غير للشخص اللي في إيده يعزل بر الضيف. خلّي إيهاب يوصل للحقيقة لوحده، يختار لوحده... وقولّه... قولّه... قناة التيليجرام : @alanbyawardmsr

هربت الكلمات من يسري وشعر راشد أنه يرتعش أسفل القماشة من التأثر، قبل أن يتماسك ويستدير متجهًا إلى بيت القُطّان.

تناهى إلى سمع راشد دقّ طبلةٍ خافتٌ يأتي من هناك تجمّد في مكانه حين نظر إلى الطابق الثاني ليجد أن هناك مَنْ أشعل مصباحًا لم يتمكن من تحديد هُويّته حيث أن الضوء كان يأتي من خلفه لكنه كان ينظر إليهم بكل تأكيد. ثم صرف نظره إلى يسري الذي كان يقترب من البيت بحذرٍ وسط غابة السيقان. توقف الأخير للحظةٍ بجوار الشجرة المقوَّسة التي تتوسط الساحة وتحسس جزعها العجوز القاسي. لجزءٍ من الثانية تخيّل راشد أن الشجرة تنحني في اتجاه يسري، كأنها تستجيب له. ثم استأنف يسري طريقه للبيت.

رفع راشد عينيه ليجد مَنْ كان يقف في نافذة الطابق الثاني يستدير ويترك مصباحًا به ضوءٌ لؤلئيٌ دافئ على النافذة.

لكن ما هو مؤكد أنه رأى وجهًا لن ينساه طيلةَ عمره:

... وجه طويل وشعر رَماديّ كالغيوم مجدول في ضفائر.

*****

الفصل الرابع

٢٠٢١

(١)

هبط الصمت على غرفة مكتب مدير الأمن بعد أن خلَت إلا من اللواءَين: راشد وعمر والرائد ثروت. أخذ اللواء عمر ينقل بصره بينهما بعد أن أنهى كلٌ منهما روايته، ثم قال بصوته الأجش العميق:

- اللي إنتوا حكيتوه ده...

لم يعرف كيف يُنهي جملته فصمت لوهلةٍ أخرى تركاه فيها يستجمع ما سمعه. مرت دقيقة كاملة قبل أن ينتبه ثلاثتهم لمدير الأمن الذي بدأ يُفيق. كان يعاني صعوبةً كي يتكلم وخرج صوته مبحوحًا:

- أنا... سمعت صوت، في الاجتماع، زي ما يكون طائر بيحوم حوالينا، وصل للركن الضلمة. وبعد كده...

- بعد كده إيه سيادتك؟ سأله عمر باهتمام.

بنفس الشرود استطرد مدير الأمن:

- بعد كده... وقفت على بوَّابة عالم الضيف. كنت... كنت تايه في بحر ضلمة، أصارع أمواج مهولة في ارتفاع الجبال، أمواج صوتها زي الرعد. كانت هتسحق روحي. السما فوق راسي ضلمة أكتر من البحر. كنت قربت استسلم، لأ، أنا كنت عايز استسلم بالفعل، بس هو منعني.

تبادل راشد وعمر نظرةً خاطفةً ليُطرق الأخير مُفكرًا، قبل أن يلتفت مدير الأمن إلى اللواء راشد قائلًا:

- البدوي... البدوي أبو شعر مجدول اللي في روايتك ده هو أمين الشرطة اللي دخل عليًا المكتب؟

أخرج راشد ورقةً مكتوبًا عليها بخط يد إيهاب الدماطي، ومدَّ يده بها

إلى مدير الأمن الذي قرأ عليها: "هارون السائق، هارون عامل البوفيه، هارون القهوجي ودلوقتي هارون الشرطي".

زمجر اللواء عمر مرةً أخرى والتفت بوجهه المُكفهِرّ إلى اللواء راشد:

- بقاله تلتميت سنة عايش يا راشد؟

- لو مَكَنَش أكتر يا عمر.

هكذا أجابه راشد في ثباتٍ قبل أن يعضَ الآخر على أسنانه ويسأله بصوته الأجش:

- هو إنت مبتسم ليه؟ مبسوط من اللي بيحصل؟

أجابه راشد:

- أصلِي افتكرت إيهاب الدماطي وهو واقف في بيته من كام شهر، نفس وقفة أبوه. وقف على باب شقته وقال نفس الكلام قبل ما يروح بر الضيف. ساعتها شفت فيه نفس الروح القتالية اللي لا تُقهر ونفس التصميم.

عمر:

- وأهي بر الضيف بلعته زي ما بلعت أبوه، لا ده رجع ولا ده رجع.

ثم التفت ليسأل ثروت:

- وإنت، صدقت توحيدة القَطّان بالسهولة دي؟ حكتلك عن حلم شافته وهي صغيرة وصدقتوها إنتم الاتنين وبنيتم عليه نظرياتكم؟

رماه راشد بنظرةٍ قويةٍ وقال بهدوء:

- واللي شفناه سوا قُصاد عينينا في الأوضة دي؟ عندك ليه تفسير؟

أشاح عمر بوجهه بعيدًا لكن راشد استمر:

- لو كنت مكاني وشفت اللي أنا شفته مع يسري الدماطي كنت

هتصدق توحيدة برضه. أنا مبسوط يا عمر علشان جاتلي الفرصة إني أوفي ديني ليسري الدماطي. وهو مش ديني أنا لوحدي، إحنا كلنا مديونين له.

انتبها إلى مدير الأمن الذي استند على ذراع الكرسي لينهض. لوَّح

بكفِّ يده رافضًا مساعدة ثروت الذي أسرع ليعينه قبل أن يذهب لينظر من النافذة. استغرق في التفكير متأملًا السُحُب المتكتلة بشكلٍ مُنذرٍ بعاصفة هائلة. تركوه يستعيد إدراكه ثم قال بعد وهلة:

- المطلوب مننا إيه بالظبط؟

- نمحي بر الضيف دي من على وِش الدنيا، ده الحل الوحيد.

هكذا هدر اللواء عمر مما جعل راشد ينحني ليستند على المائدة الطويلة ويقول مخاطبًا مدير الأمن:

- الضيف حلّه مش أمني ولا علمي، وسيادتك عارف كده. الضيف حلّه إننا نثبتله إننا أقوى منه وإننا اللي نستاهل نكون هنا، مش هو.
وبصراحة أنا شايف إن توحيدة القَطّان هي أحسن من يقوم بالدور ده.

- الضعف مش خطيئة يا راشد. ومَحدّش هيحاسبنا عليها غير اللي خلقنا.

هكذا قال مدير الأمن دون أن يحيد ببصره عن مشهد السماء بينما هدر عمر:

- إنت عايزنا نقف نتفرج يا راشد؟

رمى راشد اللواء عمر بنظرة سريعة ليجد وجهه مُكفهرًا، فأومأ للرائد ثروت كي يتركهم.

- إنت عندك مهمة تقيلة يا ثروت. اتفضل إنت روح استعد.

أعطاه ثروت تحية قوية وانتظر راشد حتى خرج، ثم وجَّه كلامه

لمدير الأمن:

- من تمانية وعشرين سنة سيادتك سألتني إيه اللي خلاني أفضل أعزب؟ والحقيقة هي إن أنا كنت خايف. بعد "ليلة القَطَّان" انعدم جوَّايا الإحساس بالأمان، وحسّيت إني هبقى بظِلِم اللي هتجوّزها والعيال اللي هجيبهم في الدنيا دي.

أصدر عمر أصواتَ عدمِ اقتناع مخيفة لم تمنع راشد من الاستطراد:

- ساعات الضعف بيبقى خطيئة، عدم مقاومته خطيئة، اليأس خطيئة. إحنا لينا دور سيادتك، كل واحد فينا عنده معركة خاصة بيه والضيف بيحسدنا على الفرصة دي، الفرصة إننا نختار. وسيادتك نفسك نجحت تقف قُصاده، باختيارك إنك تواجهه لوحدك. نجحت لدرجة إن هارون بنفسه جالك.

- بس أنا مش دايمًا كده، زيَ ما ليًا أوقات قوة ليًا أوقات ضعف. هيحصل إيه لو جالي في لحظة ضعف؟ هيحصل إيه لو الضيف فهم كده وعرف يختار معاركه بدقة أكتر؟

قالها مدير الأمن بصوتٍ رزينٍ وهز رأسه بعدم اقتناع، قبل أن يصرف بصره إلى الليل الذي خيَّم فوق القاهرة. هنا أجابه راشد بكل إيمان:

- سؤال سيادتك ده هو اللي شكّل حياة عيلة القطَّان؛ وبالأخص توحيدة، الهمّ اللي شالوه عننا القرنين اللي فاتوا تخيَّل سيادتك عايش من غير ما تسمح لنفسك إنك تغلط أو تضعف، ولو حصل ده تعيش في رعب إن الضيف يكون حس بيك. توحيدة القطَّان هي خلاصة القوة دي، هي اللي فرزتها الدنيا وجهّزتها علشان تكمل المشوار.

التفت مدير الأمن إلى راشد وقال:

- اللي بتقوله ده مستحيل، لو الضيف بيعتمد على ضعف الإنسان يبقى مستحيل نكسبه. وبالتأكيد عيلة القطَّان بكل المشاكل اللي جوَّاهم لا

يصلحوا بتاتًا إنهم يحاربوه.

ثم التقط كوب الماء وارتشف ليُبلّل حلقه الجاف قبل أن يغمغم:

- ولسه فيه السؤال الأهم.

وضع الكوب ورفع عينيه القويتين لجالسيه وأردف:

- هل اللي بيحصل ده معركة هارون مع الضيف وإحنا اللي بنساعده ولا هي معركتنا مع الضيف وهارون بيساعدنا؟

- سألت نفسي السؤال ده ألف مرة، وموصلتش لإجابة. في الآخر اكتفيت بالحقيقة الوحيدة الأكيدة: إن فيه معركة وكل واحد ليه دور فيها.

عاد الصمت بعد إجابة راشد ليغلّف المكان، لم يقطعه سوى مدير الأمن الذي جلس على مقعده قائلًا:

- توحيدة القَطّان رجعت تاني ليه يا راشد؟ ليه في الوقت ده بالذات؟

منع راشد رنين هاتفه المحمول من الإجابة. نظر فيه وقرأ الاسم باستغراب، ثم رفع عينيه وقال مستأذنًا مديره:

- معلش لازم أرد، ده مالك عمارة عيلة القطّان. ألو، إزيّك يا سيادة القبطان؟ خير؟

راقباه وهو يستمع بكُلّ تركيزٍ دون أن يظهر على وجهه أي تعبير.

- ما بلّغتناش ليه من بدري؟

- ...

- وإشمعنى اتكلمت دلوقتي؟

- ...

- خلاص إهدَى يا سيادة القبطان، هبعتلك حد. وأشكرك على المعلومة،

حتى لو متأخرة.

أنهى المكالمة وأطرق للحظةٍ قبل أن يسأله اللواء عمر بصوته الجَهُور:

- فيه إيه يا راشد؟

رفع راشد عينيه لينظر إلى محدثه قبل أن ينقل بصره إلى مدير الأمن، الذي استعاد سيطرته على نفسه تمامًا وسلّك حنجرته قائلًا:

- كلنا آذان صاغية.

هزّ راشد رأسه غير مصدق المأزق الذي وضعه فيه أنور قبل أن ينقل بصره من وجه عمر إلى وجه مدير الأمن ثم أردف:

- سيادتك عايز تعرف توحيدة القَطّان رجعت ليه دلوقت؟ هقول لسيادتك.

*****

(٢)

فجر الليلة السابقة...

قضى القبطان أنور ساعاتٍ قليلةً أنهى فيها ملاحظاته. قرأ ما توصل إليه قبل أن ينظر إلى البَرّ الثاني من النيل. طيلة الشهور الماضية، ومنذ أن لمح ذلك الضوء الغامض يسطع في البر الثاني من النيل أو شارع عريض كلما أضاء أحدٌ شرفته، وهو يراقب ويدوّن. أحيانًا يكون في جزيرة مظلمة وضعها القدَر في مجرى النيل أمام بنايته مباشرةً مثلما يحدث معه، أو في عمارة خالية من السكان في شارع مظلم، وأحيانًا أخرى في كومپوند سكني أو حتى أرض فضاء.

لكن مهما اختلفت الظروف فهناك حقيقتان ثابتتان توصل إليهما بحكم سنوات عمله الطويلة. أولاهما أن الضوء يماثل المصباح الذي كانت السفن تعلقه في مقدمتها كي تراها السفن الأخرى وسط الضباب وتحدد اتجاهها. والثانية هي أن إضاءته تزداد قوةً كل يومٍ عن الآخر.

ولذلك؛ بحكم خبرته التي تعدت الخمسين عامًا، توصل في النهاية إلى أن هناك سفينةً تقترب.

رغم أنه لا يدرك مغزى هذا الاكتشاف ولا ما الذي سيحدث حين تصل إلينا تلك السفينة، ولا ما هي حقيقتها، فإنه قرر ألا يشاركه مع أحد فآخرُ ما يريده هو أن تُسلَط عليه الأضواء في موضوع مخيف كهذا، والأهم هو أنه يخشى ما هو قادم ولا يريد أن يُغضبه هذا كابوس ليس إلا، كابوس سيستيقظ منه قريبًا.

أطفأ مصباح الشرفة وانتظر حتى انطفأ الضوء الذي كان يسطع من ظلمات جزيرة "القرصاية"، ثم نهض ليدخل الصالة. وقف على أعتابها والتفت إلى أركان شقته المظلمة وهمس:

- أنا عارف إنك هنا.

لم تأتِه إجابةٌ ولا يحتاج أن يسمعها، فهو يعلم ذلك يقينًا، يشعر أن للضيف امتدادًا هنا بصورةٍ ما. أخذ نَفَسًا عميقًا ليستجمع شجاعته وذهب إلى غرفة نومه. وقف عند فراشه ينظر إلي زوجته في حب، مشاعر دافئة لا تظهر إلا حين تكون نائمة. رغم إغاظتها له بصوتها الرفيع العالي فهو لا يستطيع الاستغناء عنها ولو للحظة.

انتفض كالملسوع حين لمح ظلًا ينضم لظلام الركن البعيد، كأن هناك من يهرول ليختبئ به لحظة دخوله الغرفة. تحسَّست يده جانب الكومود حيث يحتفظ ببندقيته حتى أمسك بها وسددها إلى ذلك الركن. أغمض عينيه وارتعد جسده كله لكنه تمكن في النهاية من السيطرة على خوفه. فتح عينيه ليجد الركن خاويًا. جلس على السرير ببطءٍ وظل على هذا الوضع لثوانٍ قليلة، قبل أن يخفض بندقيته ويسندها على الكومود مرةً أخرى. انسلَ بعدها في السرير بجوار زوجته دون أن تترك عيناه الركن. قرر البقاء مستيقظًا لحراستها وبدأ يحاور نفسه.

لا بُدُّ أن تشارك الناس ما توصلت إليه يا أنور، لا بُدَّ أن تتكلم.

اصمت!!

هل تريد أن تجازف بكل شيء من أجل صراعٍ محسوم؟

من أجل معركةٍ من طرفٍ واحد، طرف جبار لا يعرف الرحمة؟

ألا تذكر ما حدث لزين ابن عم يوسف؟ ألا تذكر مشهد جثته التي عثروا عليها في الجراج مُهشَّمة بوحشيَّة؟

تقلَّب في نومته ليواجه زوجته وأنهى الجدال الدائر في ذهنه بأن ذكَّر نفسه بما يمكن أن يخسره. فما تبقَّى له على وجه هذه الدنيا لا يستحق المجازفة، وليس له ابنٌ يخاطر من أجله.

أنانية؟ نعم، هي كذلك.

ثم سمع صوت الخرفشة.

تحركت أرنبتا أذنه وجحظت عيناه وهو يحاول تأكيد ما سمعه.

صوت الخرفشة مرةً أخرى. لا يمكن أن يُخطئه، هذا كيس خيوط القماش الخاص بزوجته. تصلَّبت مفاصله وازدادت دقات قلبه ثم أغمض عينيه بقوة، بعد أن سمع صوتًا كأن هناك من يعبث بمحتوى الكيس. في النهاية قرر أن يُسدل الغطاء فوقه وينشغل بالأدعية.

لكن من دون سابق إنذار ارتجَّ السرير لينتفض قلبه بين ضلوعه. مد يده للكومود وسحب الهاتف المحمول ليسلط ضوءه على وجه زوجته من أسفل الغطاء. إنها نائمة لكنها مُقطِّبة جفنيها، كأنها غاضبة. تردد في أن يوقظها لكنه آثر ألا يفعل وزبَّت على كتفها برقة. وما إن فعل حتى انتفضت في نومها واهتزَّ السرير مرةً ثانية حتى كاد أن يُصيبه بسكتة قلبية.

- سوسن!

نادى عليها هامسًا.

هنا سمع صوتًا في الغرفة، صوتًا أشبه بضربة قدم على الأرض، قدم بها خلخال.

كتم أنفاسه وأنصت، فلربما كان يتخيل.

ثم سمعه مرةً أخرى، صوت الخلخال في ركن الغرفة.

لعن غباءه، لماذا لم يغلق الباب؟

لنلتزم بالتعليمات التي حفظها عن ظهر قلب:

"لو حدث وواجهتم أحد أتباع الضيف فالاختباء أسفل غطاء قماشي سيوفر نوعًا من أنواع الحماية، شريطة الالتزام بالصمت والسكون".

وهو ما كان ينوي تطبيقه بحذافيره. أحكم الغطاء فوقه قبل أن يشعر بها تتحرك في الغرفة، صوت الخلخال الذي ترتديه في قدمها اليسرى وَشَى بهذا. هو يعلم مَنْ هي.

اللعنة، سيفضحه ارتجاف أطرافه.

اقتربت صاحبة الخلخال من السرير. أغمض عينيه وبدأت أسنانه المتهالكة في الاصطكاك.

شعر بحركةٍ على السرير. مدَّ يدَه ليتحسَّس مكان زوجته ليجدها قد جلست وأدلت بساقيها من جانبها.

هل يُخرج يده ليجذبها معه أسفل الغطاء؟

لم يُعطِه الموقف مُهلةً للتفكير، فقد نهضت زوجته من جلستها في نفس اللحظة التي سمع فيها خطوات الأقدام وصليل الخلخال المصاحب لها تدور بسرعة حول السرير متجهةً إليها.

هنا كان لا بُدَّ من التصرف سريعًا.

أخرج أنور ذراعه من أسفل الغطاء وجذب زوجته بقوة ليدخلها معه أسفله، ثم سكن عن الحركة. حاول السيطرة على انفعالاته دون جدوى وشعر أن هناك ذبحةً صدريّةً قادمةً لا محالة.

لكن لا يهم. ما يهم هو أن زوجته قد عادت للأمان الذي يوفره الغطاء القماشي.

تلا ذلك صمتٌ مُطبِق.

ضوء الشارع الذي نجح بصعوبة في تحديد حوافّ النوافذ والأبواب جعل المشهد أقرب لحُلمٍ كئيب. تدريجيًا بدأ يستعيد السيطرة على أعصابه واقترب ليحتضن زوجته بحذر.

لكن قبل أن يفعل بدأ هاجس يُقلقه، كيف لم تستيقظ بعد؟

كلّا، لن يوقظها. يكفي أن يأخذها بين ذراعيه ويقبع ساكنًا تحت الغطاء.

اكتشف أنها قد رقدت على السرير بالعكس فقدماها هما ما استقرتا على الوسادة. لا بأس، ليظل على وضعه دون حراك حتى يتقهقر هذا الكابوس للركن المظلم من حيث جاء.

لكنه لا ينفكّ يشعر أن هناك خطبًا ما قد حل بزوجته، فمن المستحيل أن تظل نائمة بعد كل هذا. استجمع شجاعته وضغط الزر الجانبي للهاتف المحمول، ووضع أصابعه على شاشته ليتحكم في مستوى الإضاءة. رفع الغطاء قليلا كي يسلط ضوء المحمول الخافت على وجه زوجته.

هنا ضعق مما رآه فانتفض تاركًا السرير ضاربًا بغرض الحائط كل التحذيرات.

لقد كانت هناك قدمان أخريان في الطرف الآخر من جسد زوجته. لقد أصبح لها أربعُ أرجل، اثنتان في كل طرف.

هنا تأكد أنه قد جُنَّ.

وقف عند باب الغرفة وظل ممسكًا به، وهو يُحدِّق في ذهولٍ في جسد زوجته الراقد تحت الغطاء.

الأمر لا يحتاج تفسيرًا، إن الضيف، تحت الغطاء... مع زوجته.

أغمض عينيه وهز رأسه منكسرًا ثم فتحهما مرة أخرى وفيهما نظرةٌ كلها غضب وكراهية. تصاعدت آلام صدره وهو يستمع إلى الأصوات البشعة التي تأتيه من تحت الغطاء، أصوات لا تمتُّ إلى عالمنا بصِلَة. عويل حيوان مكتوم مصحوب بصرخات آدمية بعيدة تخرج من حفرةٍ لا قاع لها.

ما ذنبُها؟

انهار على ركبتيه جاحظ العينين ومدَّ ذراعه ناحية الغطاء طالبًا لزوجته الرحمة، الغطاء الذي أخذ يتلوى كأن هناك كيانًا هلاميًا يحاول التمدُّد بداخله، قبل أن يقع من الجهة البعيدة للفراش.

لحظات طويلة مرت عليه وهو على شفا الانهيار، قبل أن يصرخ مذعورًا بعد أن ظهر الغطاء بجانب السرير والكتلة الهلامية بداخله. استقر لثوانٍ دون حراك ثمَّ من دون إنذارٍ تدحرج في اتجاهه بسرعةٍ خاطفة.

عندها فقط غاب عن الوعي.

تذكر انك حملت رواية الميراث بر الضيف الجزء الثالث حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك .

*****

(٣)

كان الرائد ثروت في انتظار اللواء راشد عند خروجه من مكتب مدير الأمن وهاله ما رآه جليًا على وجهه. وقبل أن يسأله عمًا دار بالداخل بادره راشد دون أن يُبطئ من سرعته:

- الوقت خلص يا ثروت، مدير الأمن أمر باقتحام بَرّ الضيف.

- إزاي سيادتك؟ إحنا كده بنضيّع الأمل الوحيد. سيادتك الحل مش الاقتحام.

توقف راشد وقاطعه بحدَّة:

- عارف يا ثروت، عارف ودلوقتي كمان عرفنا إن النور اللي كان بيظهر الناحية التانية من النيل أو شارع عريض، اللي كان بيشتغل لما حد يولّع نور بلكونته أو شقته من غير ساتر، مطلعش عشوائي النور ده ليه تفسير مرعب .

- تفسير إيه سيادتك؟

صمت راشد للحظةٍ استجمع فيها هدوءه قبل أن يستأنف سيره وهو يقول:

- النور ده بيقرَّب مننا كل ليلة عن اللي قبلها فيه "ضيف" جاي على مركب يا ثروت، وفي إعتقادي إنه كيان الضيف الأساسى، الجذع اللي طالع منه كل الفروع اللي شفناها وحسب ما قالّي القبطان أنور، هيوصَلنا بُكره يعني الليلة دي آخر فرصة لعيلة القَطّان.

- علشان كده مدير الأمن أمر بالاقتحام؟

قالها ثروت بعد أن لمح اللواء عمر بجسده الهائل يخرج هو الآخر من مكتب مدير الأمن ويرمقهما بنظرة مُتشككة غير مريحة.

- واللوا عمر هيقود الاقتحام بنفسه.

هكذا قال راشد فأسرع ثروت ليلحق به ويهمس:

- يبقى لازم أروح شقة توحيدة الليلة دي. سيادتك لازم تدّيني التصريح.

توقف راشد عند باب غرفة مكتبه والتفت لثروت قائلًا:

- حتى لو عرفت إن الضيف حوالينا بصورةٍ ما ومستنّيك هناك؟

ثروت بكل تصميم:

- حتى لو الشيطان نفسه هناك.

تأمله راشد للحظة قبل أن يقول:

- ماشي. هدّيلك التصريح يا ثروت. هدّيهولك لأن دي الفرصة الوحيدة علشان نقوم بدور حقيقي في اللي بيحصل ده. بس عايزك تحكيلي بكل دقة اللي حصل بالظبط لما توحيدة القطّان رجعت بَرّ الضيف هي وولاد أخوها. عايز أعرف بالظبط إيه اللي حصل اليومين اللي فاتوا دول في بر الضيف.

*****

(٤)

وحدها، بعيدًا عن الأضواء، وسط الأشجار العالية الكثوم، قبعت بَرُّ الضيف. غريبة، صامتة، كأنه لا يعنيها حال الدنيا الذي انقلب حولها. تقضي ليلها كنهارها داخل الحصار الحديدي الذي فرضته وزارة الداخلية قبلها بشهور. حصار بدأ منذ أن تسلل إيهاب الدماطي إلى أرض القَطّان واختفى من دون أثر في أرض لا تزيد مساحتها على نصف الفدان. وسيظل هذا الحصار قائمًا إلى أن يتم العثور على إيهاب والتخلص من الكابوس الذي خرج منها... أو التخلص من بر الضيف نفسها.

ما جعل مهمة رجال الأمن سهلة نسبيًا، وفي الوقت نفسه مريبًا لأقصى

حد، هو أنه لم يعترض أحدٌ من أهل بر الضيف على هذا الحصار. فقد تقبّلوا جميعًا الخبر بمنتهى الهدوء كأنهم كانوا يتوقعونه. وهو ما جعل رجال الأمن يراقبونهم بمنتهى الحذر واليقظة من خلف الأشجار وفوق التلال. شعور قوي لا يغادرهم، من أصغر عسكري لأعلى الضباط رتبة؛ هناك شيء يحدث في تلك القرية لا يفهمونه، شيء لا تراه أعينهم.

حتى جاءت الليلة قبل الماضية حيث بدءوا يلاحظون أشياء مريبة، أحداثًا مُثيرةً للقلق ومشاهد فشلوا في تفسيرها.

وحين وصل أفراد عائلة القَطّان الليلة الماضية عرف المقدم قدري قائد قوات الحصار أنهم من كان أهل بر الضيف يترقبون وصولهم. ليس هذا فقط، بل شعر أن الأرض نفسها كانت تنتظرهم.

* * *

رنّت طقطقة راكية النار في الغرفة الواسعة بينما تلاعبت الظلال فوق جدرانها الطينية. ظلت العيون شاردةً في الشعلة، كُلّ في دنياه وهمومه، إلى أن صدى صوت الشيخ خَلَف المبحوح:

- من أكتر من ميتين سنة چوزيف جوتون خان العهد واختار نفسه فوج الكل، وخلّى اللي كان عايش في البر التاني يعرف طريجنا. لكن اللي عملته فاطنة وإبراهيم الدماطي وَجّفُه جَبل ما يوصلّنا، سور عالي منع الضيف عنّا. ومن تمانية وعشرين سنة أني منچحتش مع عبد العظيم الجطّان، منچحتش أمنع عنه اليأس. اللي عمله عبد العظيم هو اللي خلّى الضيف يعدّي الحاچز اللي عمله إبراهيم ويجرّب مننا أكتر. يچي يسري الدماطي يوصل حبل الوفا ويحبس الضيف في الچنينة. ومن شهور اتكررت نفس الغلطة ودفع زين الجطّان تمن طمعه وراح معاه نص البلد. الضيف بجَى حُرّ. ودلوجتي هو مستنّي آخر اختيار، اختيار عيلة الجَطّان. الاختيار اللي يا هيصلّح كل حاچة، يا إما هيخلّي الضيف يچي بكل كيانه ويعيش بدالنا، چوّه أبدانا وفي دماغتنا.

ضمّت ليلى ابنها حسن إلى صدرها بقوة وصرفت بصرها إلى الغرفة

المظلمة الملحقة بالصالة حيث يجلسون. هناك جلس يوسف محني الظهر ينسدل شعره البُنّي فوق وجهه في سكون. ثم انتبهت إلى المرأة الخمسينيّة ذات الشعر الفضي القصير التي توسّطت المجلس وهي تسند كفيها على عصاها وترمقها بقوة. هربت بعينيها من نظرات توحيدة التي قالت وهي تشير للغرفة:

- الليلة يوسف هيبات لحاله في الأوضة دي. مَحدّش يدخل عليه ولا يجفل عليه باب.

ثم التفتت للشيخ خَلَف الذي كان جالسًا إلى يمينها واستطردت:

- ولو الفجر طلع والضيف مجاش يزورَه يبجَى هياخد الجارب ويعدّي للبر التاني. فاهمني يا شيخ خَلَف؟

أجابها خَلَف بصوته المبحوح الخافت:

- ولو الضيف زاره يا بنت الجطّان؟

- ساعتها مش هيبجَى فيه غير حل واحد.

أجابته توحيدة ورمقت كبير الخَفَر بنظرة سريعة، عادت بعدها لتأمّل راكية النار. أحكم ناجي قبضته على بندقيته الضخمة دون أن يعطي أي رد فعل آخر. تعلم توحيدة أن ما سيحدث هذه الليلة لن يكتمل من دون الشيء الذي ذهب ثروت لاستخراجه من بيتها في القاهرة. وهي لديها مخاوفها من صعوبة تلك المهمة، وتعلم ما الذي ينتظر ثروت هناك. استغلّت ليلى الفرصة وسألتها:

- بعد ما كنا بدأنا نعمل لنفسنا عيشة تانية في إسكندرية وقلت خلاص، الكابوس خلص. تقوموا ترجعوا برجليكم للمكان ده تاني. يوسف منطَقش كلمة من ساعة ما وصلنا يا توحيدة وسلمى مش مظبوطة خالص. المكان ده عمل فيهم إيه؟

نظرت توحيدة خارج البيت لتجد سلمى تتأمل الغروب وهي عاقدة

ذراعيها أمام صدرها. استندت على عصاها، التي لا تحتاجها للتحرُّك بل تستخدمها لغرضٍ آخر، ونهضت لتخرُج من البيت قائلة:

- الليل إچه، خُدوا ليلى وحسن لبيت سلامة.

هنا هتفت ليلى في حنق:

- أنا مش همشي من غير ما أفهم اللي بيحصل. حد يفهِّمني حاجة. اختيار إيه اللي يوسف هيعمله؟ وحل أخير إيه؟

جاء دور الشيخ خَلَف ليقول:

- يا بنيَتي چوزك قُصاده اختبار صعب جوي، متصعَّبهوش عليه بوچودك چنبه

التفتت إليه بوجه محتقن

- يعني أنا وجودي هيضرُّه؟

- هيضرُّك إنتي يا بنيَتي.

كانت إجابة خَلَف ثم أوماَ إلى حسن برأسه قائلاَ:

- وإنتي معاكي أهم حاچة، آخر نسل الجطَّان. وإوعاكي تفتكري إنك هتتفرچي من بعيد، لاه، إنتِ چزء من الحكاية.

هنا نطقت سلمى من خارج البيت، دون أن تصرف بصرها عن الشمس التي ابتلعتها أحراش أرض القَطَّان:

- ما تقولولها. مش ده اللي ضيف عايزه؟ حرية الاختيار؟ خلّوها تفهم وتختار ليها ولابنها. ولا عايزنها تبقى زيّي؟

- هتختار يا بنيَتي، هيچي دورها وتختار. ومَحدّش هيچبرها على حاچة.

هكذا ردت توحيدة التي خرجت لتقف بجوارها، فالتفتت لها سلمى

وقالت:

- زي ما أجبرتوني؟ أنا مَحدَش أخد رأيي قبل ما تدخّلوني في معركة خسرتها قبل ما تبتدي عمري ما هكون جزء من اللي حصل هنا زمان ولا اللي بيحصل دلوقتي يا عمتي!!

- ومين جالَك إنك خسرتي يا بنيَتي؟

هنا أمسكت سلمى بطنها وعصرتها بقوة. ارتعشت شفتاها وهي تقول بصوتٍ متهدج

- وفيه خسارة أكتر من دي يا عمتي؟ وافقتي ليه على جوازي من إيهاب وإنتي عارفة إني مبخلفش؟ إنتي عمرك ما هتحسّي باللي أنا فيه، عمرك ما حبّيتي حد وتمنيتي يبقى عندك طفل منه.

حدّقت توحيدة في وجه ابنة أخيها وللحظة شعرت سلمى أن عين عمتها تلألأت تحت ضوء الغروب، غبرَة وحيدة استطاعت النفاذ من جدار مشاعرها السميك لكنها وأدتها قبل أن ترى النور. التفتت توحيدة بعدها إلى البوابة الحديدية التي تؤدي إلى أرض القَطّان الموحشة وتقدمت في اتجاهها. خفضت سلمى من حدّة صوتها وقالت:

- أنا وأنتي يا عمتي، ليه مبنخلَفش؟ هل مصيرنا هيبقى زي ستات عيلة القَطّان اللي جُم بعد فاطمة؟ ستات عيلتنا بيروحوا فين لما يتِمّوا الستين يا عمتي؟

لم تُجبها توحيدة واستمرت في طريقها حتى بلغت البوابة. أشار الشيخ خَلَف لناجي كبير الخَفَر كي يخرج خلف توحيدة، ثم أعطى أوامره لباقي الخَفَر أن يستعدوا لليلةٍ ليست لها سابقة. أسرع ناجي ليفتح لتوحيدة بوابة أرض القَطّان وما إن فعل، حتى فردت سلمى قامتها لتستجمع شجاعتها وذهبت لتقف مع عمتها أمام البوابة. أخفض الخَفَر رءُوسهم لسلمى في تبجيلٍ لم تفهمه، وظلت عيونهم ثابتة على الأرض ورءُوسهم محنية في احترامٍ مَهيبٍ لها ولتوحيدة. وقفت

المرأتان ذواتا الشعر القصير والبنية المتماثلة تتأملان الأشجار العملاقة داخل أرض القطان الموحشة.

بأنفاس مبهورة ابتلعت سلمى ريقها وقالت:

- إيه اللي جوَّه يا عمتي؟

- الإجابة اللي إنتي عايزاها يا بنت أخوي.

- وإيهاب؟ جوه؟

- مش لوحده.

كان رد توحيدة قبل أن تتقدم لتدخل من البوابة لم تدعْ سلمى أن تحذو حذوها أو تخبرها بما يجب أن تفعله تلفَّتت الأخيرة حولها في حيرة قبل أن تنظر إلى قلب أرض القَطَّان الموحشة وتحسم قرارها ثم دخلت سلمى القطان أرض جدّها، بكامل إرادتها، وأغلقت البوابة خلفها.

في اللحظة نفسها خرجت ليلى من البيت والتفتت لتنظر مرةً أخيرةً إلى زوجها في الغرفة المظلمة. سارت وراء الشيخ خَلَف للبيت الذي ستقضي فيها ليلتها، أحد البيوت التي أصبحت خاوية بعد أن سقط سكانه ضحايا للضيف. رفع الخَفَر رؤوسهم ودخلوا البيت ليقفوا في الصالة الخاوية في مواجهة الغرفة التي جلس فيها يوسف صامتًا. أسند كُل نبوته على الأرض ووضع كفَّيه على طرفه في تأهُّب.

لم يكن لديهم أدنى فكرة عمَّا كان يدور داخل الغرفة، لكنهم كانوا مستعدين تمامًا... لما سيخرج منها، أيًا ما كان.

***

جلس يوسف في الظلام في سكون. بداخله كانت العاصفة تزأر.

يشعر به في دمه، تحت جلده، يوسوس له، يحثُّه على السعي خلف حلمه مهما كان الثمن. منذ أن وطئت قدمه بر الضيف -وربما قبلها- وهو

يرى طيف جده، يطوف حوله، يريده أن يبحث عن شيء ليس له.

حتى بعد مرور مئات السنين لا ينفكُّ چوزيف كوتون يسعى وراء مجده؟ ألم يَكْفِه ما جلبه على الجميع من مصائب؟ ألا يكفى ما أيقظه في البر التاني؟

يراه الآن أمامه، يشبهه كثيرًا. وجه مثلث وشارب بُنّي يغطي شفتيه لكن من دون ذقنه الطويلة، يرمقه بمقلتي عينيه الخاويتين في صمت ثم ينظر غربًا، إلى بقعةٍ بعينها في الصحراء. لحظتها تراءى ليوسف مشهد حفرة أسفل تلّ، في أعمق مكان بالصحراء، حفرة تميزها صخرتان على شكل × و +. هذا هو المكان الذي يجب أن يذهب إليه.

ألم مفاجئ في كتفه جعله يمسكه ويئنُّ. في اللحظة نفسها ضرب فيها الخَفَر كلّ بنبُوته على الأرض الطينية مرتين سريعتين، ليُفيق يوسف من حالته تلك ويتلاشى الألم. نظر إلى طيف جده، ثم هزّ رأسه رافضًا، يخبر جدَّه أنه لن يكمل ما بدأه، بل إن ما فعله هو سبب شعوره بالعار. يثور الطيف وتتسع عيناه غضبًا ويطوف فوقه كالإعصار.

الآن فقط عرف يوسف القَطّان السبب الحقيقي في إحساسه بعدم الانتماء، عرف لماذا يكره كلمة "ولاد الأصول". علم أن جدَّه هو چوزيف كوتون الاستعماري الإنجليزي الذي خدع أهل زوجته وأوهمهم أنه جاء ليخدم مصر، لكنه كان يسعى لمجده فقط. جدُّه الذي قتلته زوجته قبل أن يخذل الجميع ويصمهم بالعار.

راقب ليلى وهي تبتعد، راقبها وهي تأخذ ابنه بعيدًا عنه وتتركه لبراثن الشك والتساؤلات.

إنهم لا يؤمنون به. مهمًا حاولوا إيهامه بالثقة، فهم يخشون ضعفه، يتوقعون فشله. بالضبط كما فعلت فاطمة مع چوزيف. لا لم تكن هي من قتله، بل قتله الطمع، قتله الغرور، قالها وهو يَعضّ على شفتيه غيظًا.

لكن ماذا عنّي أنا؟

هل سأنجح فيما أخفق فيه جدّي؟

في تلك اللحظة يشعر بالطيف خلفه، يمسك بكتفه فتتأجج نيران الألم. مرةً أخرى يضرب الخَفَر على الأرض الطينية مرتين ليبتعد الطيف عنه ويُفيق يوسف من تساؤلاته التي كادت أن تُذهب عقله.

تأكد الشيخ خَلَف أن ناجي قد أحكم إغلاق البوابة ورفع غُظرة رأسه؛ ليراقب توحيدة وسلمى تبتعدان في غياهب أرض القَطَّان التي غرقت في الظلام. ثم انتبه لصوت الدق المزدوج الذي جاء من خلفه. استدار عائدًا ودخل البيت ليحدق في محتوى الغرفة التي جلس يوسف في ظلمتها. تقدم منها ليخرج منها صوت يوسف:

- خلّيك بَرّه، أنا مش لوحدي.

توقف خَلَف مكانه ثم تبادل مع ناجي كبير الخَفَر نظرة، أنهاها ناجي بأن أنزل بندقيته من فوق كتفه هزَّ خَلَف رأسه بالنفي قبل أن يلتفت لظلام الغرفة ثم جاءه صوت يوسف متهدجًا بما كان يخشى سماعه:

- اقفلوا الباب عليا .. واربطونى

***

وهكذا قضت عيلة القَطَّان ليلتهم، بين يأس وخوف. بين حيرة وغضب وشك.

ومن بعيد، من فوق التل، راقب بدويّ عملاق ذو شعر رمادي مجدول كل ما يحدث، حوله تصدي الطبول وتحوم أسراب الحمام. التفت إلى أرض القَطَّان حيث تسير توحيدة بين الأشجار العملاقة وخلفها سلمى المذعورة. ثم نهض من جلسته فوق الرمال ونظر إلى حيث تتجهان، إلى أطلال بيت لم يبقَ منه إلا بقايا حوائط وأسقف، بيت لم يبقَ فيه سوى الندم ولا تُسمع فيه سوى التنهيدات.

لكنه لم يكن ينظر إلى الجدران المُتصدِّعة ولا عروق الخشب المتهالكة، بل إلى تلك النفس التائهة التي علقت بين ضلوعه.

*****

(٥)

إيهاب يسري الدماطي... هذا هو اسمك، لا تنسَ، ولا تنسَ ما الذي جاء بك هنا. هكذا ظل يذكر نفسه حتى لا يفقد عقله.

منذ اللحظة التي تسلل فيها إلى الحدائق المحيطة ببَرِّ الضيف وهو يشعر بإدراكه يُسلَب منه ببطء، كأنَّ هُويَّته نفسها هناك من يسعى للسطو عليها. منذ اللحظة التي قفز فيها من بوكس الشرطة ووقف أمام تلك الفتحة المستترة في السلك الشائك المحيط بأرض القَطَّان، وهو يشعر أنه على أعتاب عالم آخر. عالم ضحَّى والده بكل شيء كي يمنعه من التوحُّش وابتلاع كل شيء. ضحى بحياته نفسها كي لا يصل إلى ابنه ويحرقه. وها هو الآن يقف مكان أبيه.

يذكر تلك اللحظة جيدًا، يذكر أنه أغمض عينيه وترك كيانه يستشعرها بكل تفاصيلها.

يذكر أنه نزل على إحدى رُكْبتيه ليتحسَّس الطين البارد. فوق هذه الأرض خطا والده.

فتح عينيه ونظر حوله، إلى أحراش أرض القَطَّان. أشجار عملاقة وحشائش ترتفع فوقه وهو جالس القُرفُصاء. رطوبة خانقة رغم الهواء البارد الذي يُصدر حفيفًا خافتًا مع احتكاكه بين الأغصان والأوراق. لكنه لا يسمع شيئًا غيره، كأن الطبيعة نفسها قد حبست أنفاسها وهي تراقبه.

نهض والتفت لينظر وراءه. يعلم يقينًا أن ثروت، الذي هرب لتوِّه من مراقبته اللصيقة، لن يتبعه داخل هذه الحديقة المُحرَّمة. لكن هناك

قبضة باردة تعتصر قلبه قلقًا على مَن تركهم وراء.

تُرى هل ستفهم زوجته ما يفعله؟ هل ستغفر له سلمَى رحيله؟

وصديق عمره؟ هل سيغفر له يوسف تخلّيه عنه في أحلك أيام حياته؟

نفض عن ذهنه هذه الأسئلة القاسية، ثم تقدّم ليعبر الفتحة.

حرّكت الأشجار أفرعها كأنها تُفسح له الطريق، وأخذت الحشائش تتلوّى كي لا تُعيقه. سرعان ما وجد نفسه في ساحة واسعة أمام بقايا بيت انقبض قلبه حين رآه، مئات السنين من العزلة تقف أمامه. جدران متصدعة، نوافذ مفقودة وغرف مهجورة تجرّأت الطبيعة وتسلّلت لتحتلها بعد ذهاب البشر. بيت القُطّان. أطلال حزينة وتاريخ أخفى نفسه بمنتهى القسوة عن أعين الناس.

تسارعت نبضات قلبه وهو يعبُر بجوار شجرة ميتة منحنية الجذع كأنها تركع. توقف عندها وتحسس جذعها الجاف، شيءٌ ما يربطه بهذه الشجرة، شيءٌ جعله يبتسم. التفت للبيت المَهيب، أو ما تبقّى منه. ضوء الهلال الضعيف هو الشيء الوحيد الذي يساعده في رؤية محتواه من خلال إطار الباب الرئيس والشقوق التي تملأ الجدران. لا يعلم بالتحديد ما الذي ينتظره داخل هذه الأنقاض لكنه لن يتراجع. ثم تقدم ليدخل البيت.

أمامه درج يقود إلى الطابَق الأول ثم إلى السطح. حوله ركام وألواح خشبية متهاوية وأعشاب عشوائية تملأ الصالة الواسعة. التفت للسُلّم مرة أخرى.

ثم خطا فوق أول درجة.

وكانت تلك هي اللحظة التي ظلت تتكرر، كأن الواقع نفسه قد ارتبك ولم يتقبلها. طابق مظلم فوق طابق مظلم فوق طابق مظلم، لا يشعر إيهاب إن كان يقترب من النهاية أم يبتعد. فالمسافة تظل ثابتة، طابق

واحد يتكرر لينتهي به حيث بدأ.

لكنه يعلم أنه سيصل إليه، وحينها سيعلم ما الذي عاد ليفعله.

سيعلم كيف احتوى يسري الدماطي الضيف داخل هذه الأرض لثلاثة عقود.

*****

(٦)

بعد انقضاء نهار اليوم التالي لمجيء عائلة القطّان، نزل المقدم قدري من مؤخّرة سيارة المراقبة الحديثة ليُفاجأ بأسراب الحمام تملأ المكان.

- فيه إيه يا ياسر؟ هم رجعوا تاني؟

أخذ الضابط الأسمر ذو الشعر الأسود الحالك يهشّ الحمام وهو في طريقه إلى رئيسه.

- زيّ كل يوم في نفس الميعاد. هيجنّنونا سيادتك. وأعدادهم اتضاعفت النهاردة كمان.

- والرائد ثروت لسه ما رجعش؟

- لسه سيادتك.

وضع قدري يديه في وسطه وقال:

- نفسي أعرف توحيدة القطّان دي دخلت إزاي هي وولاد أخوها من غير ما نشوفها. إيه، الجنينة دي ليها باب سحري؟

ثم جال ببصره في رجال الشرطة المنتشرين حول السلك الشائك، ثم غمغم قائلًا:

- مش عارف يا ياسر، حقيقي مش عارف، اللي احنا فيه ده مَحدّش مر بيه قبل كده. بقالنا شهور هنا ولا عرفنا إيهاب الدماطي فين ولا فهمنا

الناس اللي جوّه دول قاعدين بيعملوا إيه. ودلوقتي بعد رجوع عيلة القطان كلهم بقى عندي شعور أكيد إن في حاجة هتحصل هنا الليلة دي واحنا نايمين على ودانا. بس مش عارف إيه.

في اللحظة ذاتها، تناهى إلى سمعهما جلبةٌ عالية فانتبها إلى الضابط الشاب الذي جاء يركض. توقف أمامهما لاهثًا وهو يشير لأرض القَطّان دون أن يستطيع الكلام. التفت قدري وبقية الضباط لينظروا إلى ما يشير إليه لتقشعرّ أبدانهم، حين لمحوا خيالات عملاقة بطول الأشجار تتحرك في أرض القَطّان.

مشهد استمر أقل من دقيقة قضوها في صمت مُطبِق عاد بعدها المشهد كما كان قبل أن تغيب الشمس في تزامن مذهل مع الحدث العجيب، كأن تلك الظلال قد جاءت مع الليل لتذوب في أرض القَطّان انتفض قدري حين دقّ هاتفه فالتقطه ليُجيب.

مكالمة استغرقت أقل من دقيقة جذبت انتباه قدري كله، ونجحت في جعله يتغلب على ذهوله مما كان شاهدًا عليه لتوّه. أنصت بكل حواسّه بينما ظل أفراد وحدته مُحدّقين في أشجار الجازورين العملاقة المحيطة بأرض القَطّان، علهم يلمحون تلك الظلال مرةً أخرى. أنهى قدري المكالمة وعاد لينظر هو الآخر إلى أرض القَطّان قائلًا:

- القرار طلع خلاص، بُكره الصبح بر الضيف مش هتبقى موجودة. أيًا كان اللي بتعمله توحيدة القَطّان وولاد أخوها جوه، أيًا كان المكان اللي يسري الدماطي مستخبّي فيه وأيًا كان سببه، النهارده آخر فرصة ليهم.

ثم التفت لأحد الضباط صائحًا:

- وشوفولي ثروت ده اختفى راح فين في أهم ليلة.

* * *

أوقف الرائد ثروت سيارته على الكورنيش ووقف يتأمل عمارة عائلة القَطّان ذات الأدوار الخمسة. والنقطة الأخيرة كانت في غاية الأهمية

بالنسبة إليه، وهي عدد الطوابق، وهذا لأنه يذكر أن هناك طابقًا مظلمًا قد ظهر من العدم في وقتٍ ما لقد شهد المبنى الرابض أمامه من الأحداث ما لم تملك له أقوى العقول تفسيرًا؛ لذلك فقد تمنى أن يقوم بهذه المَهمَّة الثقيلة في وضَح النهار، لكنه القدر.

تسلق البناية بعينيه من طابق إيهاب الدماطي إلى الشرفة التي تطل عليها غرفة حسن يوسف القَطَّان حتى وصل للسطح. هذا السلم العجيب، هكذا حدَّث نفسه وهو يتأمل طرف السلم الخشبي الممتد في الهواء على السطح حيث كانت تسكن توحيدة القَطَّان. لم يكن يعلم بالضبط مغزاه

واستخدامه قبل أن تطلب منه توحيدة أن يصعد إليه ويقوم بأغرب مهمة يمكن تصورها.

انقبض قلبه حين رأى ظلًا ذا هيئة بشرية وأذرع أخطبوطية يتسلق العمارة ببطء. رفع عينيه للسماء فلم يجد سُحُبًا يمكنها صنع ظل مماثل ولا من أنوار الشارع والمَحالّ. نفض خوفه وتلفَّت حوله قبل أن يُحكم البالطو على جسده اتّقاء الريح الباردة ويعبُر الشارع. أعطى التصريح إلى الضابط المَنُوط به حراسة العقار كي يسمح له بالدخول، ثم طرق البوابة الحديدية ليخرج له البوَّاب الطويل رفيع البنية والشارب.

- مين؟

سأله البواب وهو يفتح الباب.

- أنا الرائد ثروت، إنت غودة؟

- أيوه جنابك.

- مين معاه مفتاح شقة توحيدة القَطَّان؟

- أنور بيه.

- طيب تعالى معايا.

- خير يا باشا؟ فيه إيه يا باشا؟

قالها البواب بنبرة يكسوها القلق قبل أن يتدخّل الضابط المَنُوب قائلًا:

- عايزني معاك سيادتك؟

أطرق ثروت مفكرًا للحظة قبل أن يقول:

- لأ خلّيك هنا. لو حصلتلنا حاجة وإحنا فوق اطلب المديرية، أوعك تتدخل بنفسك.

قطّب الضابط حاجبيه بينما هرب الدم من وجه عُودة الذي قال:

- ليه سيادتك؟ هو هيحصل حاجة؟

ربّت ثروت على كتفه قائلًا:

- إن شاء الله لأ. بس لو حصل لازم يكون فيه خط دفاع تاني يلحقنا.

هنا تراجع عودة وقال:

- اتفضل انت يا بيه. القبطان أنور في الدور الأول، هيدّي لجنابك المفتاح.

رماه ثروت بنظرة قوية فارتعدت أوصاله وابتلع ريقه قائلًا وهو يكاد يبكي:

- ماشي يا بيه، أنا مع سيادتك.

ثم التفت ليوصي زوجته بعدم فتح الباب لأحد وما يجب أن تفعله بأشيائه لو لم يعُد. ثم التفت إلى الضابط المَنُوط به الحراسة يرجوه أن يتابعهم بدقة "لاجل النبي". تأكد ثروت من وجود سلاحه ثم تقدم ليصعد الدَّرَج، بينما التقط عودة نَبُوتًا هائلًا لم ينجح في أن يبث فيه الأمان وصعد خلف ثروت.

* * *

كان أنور جالسًا في قمة تركيزه في الصالة المظلمة.

هل ما حدث أمام عينيه كان حقيقة؟ لقد فعلتها زوجته أخيرًا، ظهرت خلفه وهتفت باسمه بصوتها الخارق ليفقد وعيه ذعرًا. إذًا مَنْ -أو ما- الذي كان داخل غطاء السرير؟ ذلك الشيء الذي تدحرج على الأرض أمامه بعد أن سقط من فوق السرير؟

بيدٍ مرتعشةٍ مدَّ أنامله الرفيعة وأزاح جزءًا صغيرًا من الستارة ليحدق في البَرّ الثاني... وانتظر. ثم جفل وترك طرف الستارة حين لمح الضوء اللعين الذي سطع من جزيرة القرصاية، لكنه الآن سطوع مستمر.

ارتعدت فرائصه من هول الفكرة. إنها تقترب، تلك السفينة الغامضة، كأنها تتأرجح فوق صفحة النيل.

هل فعل الصواب بإخبار اللواء راشد بما توصَّل إليه؟

وهل سيغفر له الضيف تدخُّله؟

انتفض مذعورًا حين سمع طرقًا على باب الشقة، وبحثت يده بحركات عشوائيَّة على بندقيته العتيقة. وما إن وجدها حتى استعاد جزءًا من هدوئه، لكنه انتفض مرةً أخرى حين فتحت زوجته باب غرفتها وصرخت:

"يا أنوااااار!!!".

صاح فيها:

- يا سوسن!! يا سوسن هتجيبيلي سكتة قلبية يا سوسن. فيه إيه يا ست إنتي؟؟

- مين اللي على الباب؟؟

رد عليها من بين أسنانه التي قضى عليها تدخين الغليون تمامًا:

- هو أنا هعرف قبل ما نفتح؟ خُشّي نامي يا دكتورة.

خرج من الصالة متجاهلا زوجته التي ظلت تراقبه من وراء باب غرفتها وذهب ليسأل مَن بالباب.

- أنا الرائد ثروت، زميل المقدم إيهاب الدماطي.

هرب الدم من وجه أنور حين سمع اسم إيهاب، ثم هرش في شعره الأبيض الأشعث والتفت لزوجته التي لطمت على صدرها قائلة:

- يا دي النيلة. الاسم ده أنا عايزه أنساه يا أنور. هو مش كنّا خلصنا منه؟

تجاهلها أنور للمرة الثانية وقال مخاطبًا ثروت عبر الباب:

- خير يا سيادة الرائد؟

- طيب ممكن سيادتك تفتح؟ أو الشَّرَّاعة على الأقل علشان نشوف بعض؟

زاد أنور من سرعة حكّ شعر رأسه، ثم التفت لزوجته التي أخذت تهزّ له رأسها نفيًا وتفتح عينيها بعصبية. أثار مشهدها حفيظته أكثر من ذلك الذي يقف بالباب؛ فأخذ قراره وفتح الشَّرَّاعة عِندًا فيها. تأمل لوهلةٍ الوجه الأحمر الدائري والعينين الضيقتين ولمح وجه عُودة من ورائه مُصفرًا.

- خير يا سيادة الرائد؟

- خير إن شاء الله، عايزين ندخل شقة توحيدة القَطّان.

ابيضّ وجه أنور وشهق عودة مما جعل ثروت يقول:

- متقلقش يا سيادة القبطان، خلال أقل من أربعة وعشرين ساعة الكابوس ده كله هينتهي.

- هو اللي هينتهي ولا إحنا يا سيادة الرائد؟

حدّق ثروت في وجه أنور لوهلةٍ دون أن يجيبه، دون أن يخبره أن ما

تفعله توحيدة القطّان في بر الضيف لن يأتي بثماره لو فشل في مهمته هذه. دون أن يصدمه بحقيقة أنهم جميعًا جزءٌ من المعركة.

تبادل أنور معه نظرة طويلة قبل أن يمد يده ليفتح الباب.

ابتسم ثروت لكنه لم يجد الفرصة ليُحييه لأنه تسمر مكانه؛ وكذلك فعل كل من أنور وعُودة.

فقد سمعوا لتوّهم بابًا آخر يُفتح بكل عنف.

في الطوابق العليا.

هنا التفت أنور إلى ثروت وقال:

- ثروت بيه، أيًا كان اللي إنت جاي علشانه، معتقدش إن اللي فوق دلوقتي هيسبنا نوصلّه.

***

وقفت توحيدة مستندةً بكفّيها على عصاها أمام بيت فلاحي هائل الحجم يفتقد معظم جدرانه. للمرّة الأولى في حياتها ترى عمتها تهتز. ليس بسبب جسدها المُنهَك الهزيل الذي أثقلته الهموم، ولا بسبب الرياح العاصفة التي هبّت عليها وحدها كأنها هي سبب غضبها كله، بل لأنها تعرف ما هي مُقدِمة عليه. تعلم توحيدة ما ينتظرها أعلى هذا السلم الخشبي العتيق، الشيء الوحيد الذي ظل محتفظًا بحالته رغم مرور القرون.

كل استعداداتها، انتظارها الطويل، كل ما رأته وتعلمته على يد هارون وما تعلمته من الدنيا، كل ما حمله دمها من عزيمة وصبر، هو من أجل هذه الليلة. من أجل ما سيحدث في تلك الأطلال المتهالكة أمامها، وفوق سطحها.

التفتت كي تُطمئن ابنة أخيها بنظرةٍ باسمةٍ غير واثقة، قبل أن تستدير لتدخل بيت جدودها بينما ارتعش جسد سلمَى رهبةً مما تراه. وبكل ما

تُمكّنها به قوتها التي أوهنها الزمن، أمسكت توحيدة بإفريز السلم الخشبي المؤدي إلى أعلى بيت القُطّان، أو ما تبقّى من سطحه، ورَفعت عينيها لتنظر هناك. ابتسمت حين رأت طيف امرأة سمراء يغطي وجهَها يشمك أبيض تُبادلها النظرات من فوقه. أشار طيف فاطمة إلى مصباح قديم منطفئ يرقد بجانب السلم، فانحنت توحيدة لتلتقطه ثم بدأت في الصعود.

حولها تتدلّى عروق خشبية مكسورة وجدران تفتقد معظم أجزائها، لكن السلم نفسه كان ثابتًا كأن الزمن قد نسيه. تصعد الدرجات الخشبية المتهالكة شاخصة البصر، كأنها معزولة تمامًا عن العالم من حولها، يدها اليمنى على الإفريز ومن يدها اليسرى تدلى المصباح العتيق.

ما إن بلغت نهاية السلم حتى أحكمت الشال حول جسدها وحدّقت في البر الآخر من النيل، البر المظلم الذي ينبض بحياةٍ أقدمَ من عمر البشرية كلها. ترتفع أمواج النيل ثائرة، لتجعلها تجفل وتفيق من شرودها كي تصرف بصرها بعيدًا، إلى جهة الشرق، إلى القاهرة. فقد شعرت بالشيء الوحيد الذي يربط بر الضيف بالقاهرة، الشيء الذي يصل الماضي بالحاضر.

وشعرت بثروت يقترب منه.

* * *

احتبست أنفاس أفراد قوة الحصار وسكنوا عن الحركة تمامًا وهم يربضون بين الزراعات حول بَرّ الضيف، على الطريق الزراعي وفوق التلال. لا يُسمع صوت إلا احتكاك الأفرع ببعضها وحفيف الأوراق مع تيارات الهواء. يُحدّقون بكل حواسّهم في تلك المسيرة الصامتة التي تخترق أحراش أرض القطان وتناور بين سيقان الأشجار الهائلة. العشرات من الخَفَر وأهل بر الضيف يحملون الشعلات ويسيرون إلى أطلال بيت عبد العظيم.

- هَمَّ إزاي مولَعين شَعل وماشيين بيها في وسط الأرض دي؟ مش كان الكلام ده مُحرَّم عليهم؟

هكذا همس النقيب ياسر ليُجيبه المقدم قدري بنبرةٍ مماثلة:

- بقولَك فيه حاجة هتحصل النهارده. توحيدة وبنت أخوها بيعملوا حاجة جوَّه وعلى أساسها بقية أهل البلد دخلوا وراهم.

نسي ياسر فارق الرُّتَب وأمسك ذراع قائده هاتفًا:

- إيه ده؟ بُصَ سيادتك!

التفت قدري لما يشير إليه وانقبض قلبه حين لمح تلك الظلال التي تجمَّعت بأعدادٍ غفيرةٍ حول أشجار الجازورين العملاقة التي تحيط بأرض القطان، ظلال لأنصافٍ شفليّةٍ لبشرٍ محتشدين بالمئات.

* * *

ضوء الشارع الخافت الذي تسلل من نافذة السلم، الأتربة التي غطت بلاط السلم، صوت أنفاسهم العالية وخطواتهم غير الواثقة، وفوق ذلك كله قسوة خيالهم الجامح، كل هذا جعل أنور وغُودة على الاستعداد للقفز من منور السلم لو سعل أحدهم أو طارت فراشة في وجهه. عبرا مع ثروت أمام شقة يوسف ثم شقة إيهاب، يصحبهم شعور قاتل أن هناك مَنْ ينصت لتحرُّكاتهم من وراء الأبواب، شعور أن كل ركن مظلم أو زاوية معتمة بها ألف عين تراقبهم. ثم أصبح السلم باردًا مظلمًا ورَجَّ صوت الرياح الغاضبة وجدانهم كما يرجُّ النوافذ والأبواب.

في النهاية وجدوا أنفسهم أمام الشقة الوحيدة على السطح، شقة توحيدة القَطَّان. والتي كان بابها مفتوحًا على مصراعيه.

- الـ.. باب ده كان مقفول.

هكذا تمتم أنور.

هذه هي لحظة الحقيقة، يجب أن يدخلها، هو ما دار في ذهن ثروت

قبل أن يتذكّر أول وصايا توحيدة:

"خلّي بالك يا ولدي، هو لسّه هناك، وهيحِسّ بخوفك".

ثم التفت لرفيقيه قائلًا:

- اللي عايز يفضل بَرّه يخلّيه هنا.

أفاق أنور من صدمته وتراجع ليقف عند أعلى الدرج بالضبط تحسُّبًا لأي مفاجأة، بينما ظل عودة على مسافةٍ آمنة أسفله. تبادل ثروت وأنور نظرةً قلقةً قبل أن يرفع أنور بندقيته ويُصوِّبها للشقة.

- حاول ما تضربنيش بالنار يا سيادة القبطان.

قالها ثروت وهو يحدّق في محتوى الشقة المظلم. مدّ أنور رقبته لينظر من فوق أكتاف الضابط الشجاع، لكن أضواء ليل المدينة بالخارج لم تنجح إلا في أن تجعلها مرتعًا للظلال الحيّة.

تقدم ثروت ليدخل الشقة ووقف في الصالة يتأمل أركانها. أثاث قديم من أواخر القرن العشرين لم تساعد الأتربة المنتشرة عليه والعالقة في الهواء على رؤية تفاصيله بشكل أفضل. وزاد على الأمر تلك الرائحة القوية والتي لا يملك لها تفسيرًا.

رائحة البُنّ.

على يساره باب زجاجي يقود للسطح حيث برج الحمام المهجور والسلم الخشبي العجيب الذي لا يقود لشيء.

"جُوَّه بيتي ملاذ وهلاك. كل واحد فيهم أخطر من التاني".

بحث عن غايته حتى وجدها: ذلك الدولاب الرابض في منتصف جدار الصالة خلف الأريكة. تقدم إليه، لكن مع أول خطوة ارتجَّ زجاج البيت كله.

- بِسم الله الرحمن الرحيم. إيه ده؟

قالها أنور من خارج الشقة، فالتفت ثروت إليه مستفسرًا ليهز رأسه بالنفي والحيرة. أخذ ثروت نَفَسًا عميقًا ثم التفت للدولاب مرةً أخرى، وتقدم إليه.

- سيادتك الدولاب ده توحيدة هانم مَكَنِتْش بتخلّي حد يقرب منه. وهي الوحيدة اللي معاها مفتاحه.

توقف ثروت مكانه للحظةٍ قبل أن يعاود السير باتجاه الدولاب متجاهلًا ما قاله أنور لتوّه، ثم أخرج المفتاح الذي أعطته توحيدة إيَّاه. لكن قبل أن يصل إلى الدولاب سمع صوت خرفشة قادمة من الركن المزدحم بالكراكيب بجواره. التفت ليتبادل مع أنور نظرةً خاطفةً فيحرك الأخير بندقيته ويصوِّبها إلى الركن. بعد أن اطمأنَّ ثروت أن ظهره محميَ استدار واستلَ سلاحه ثم تقدم إلى الدولاب بحذر.

وما إن وضع المفتاح في القُفل حتى سمع...

"خششمممحكك".

جفل ثروت وابتعد خطوةً بينما ارتعشت يد أنور.

- أنور بيه، لو سمحت متضربنيش بالنار.

قالها ثروت ثم قام بإزاحة الكراكيب الرابضة بجوار الدولاب بيده اليسرى دون أن يخفض سلاحه، حتى رأى جهاز الجرامافون المُهشَّم المُلقى في الركن.

- ده كان بيشتغل لوحده يا ثروت بيه، حسب رواية المهندس يوسف.

قالها أنور وهو يمدُّ رأسه لينظر داخل الشقة، فرمقه ثروت للحظةٍ قبل أن يفتح الدولاب ويبحث عن غايته.

"الـ.. الليلة... عيده... تبارك... وتزيده".

ابتلع أنور ريقه بينما قطّب ثروت حاجبيه الكثّين مُغمغمًا:

- الأغنية دي تاني؟

تأمل ثروت الجرامافون المهشّم ليجده في حالةٍ لا يمكن معها أن يخرج منه أي صوت.

"هو عايزك تجبن وتخاف.. اثبت يا ولدي".

هكذا تذكّر وصية توحيد الثالثة قبل أن يختفى الصوت من الجرامافون تدريجيًا.

استجمع شجاعته وحوّل اهتمامه إلى الدولاب أزاح الأقمشة والأنتيكات التي انتشرت بعشوائيّة في أرففه الستة، ثم وقعت عيناه على قماشة بها خطوط بيضاء وسوداء ملتفة حول شيء طويل يستند على الخلفية الخشبية.

هنا ارتجّ زجاج البيت مرةً أخرى وطار شيءٌ فوق رأس ثروت ليُخفضَهُ مذعورًا. التفت إلى أنور ليجده يحرك بندقيته في كل اتجاه. تبادلا نظرة سريعة كي يستمدُّوا الشجاعة من بعضهما.

"اللي هتسمعه مش صوت الريح، ده صوت الغضب. إنت جَرَّبت. اجمد".

بصعوبةٍ شديدةٍ تجاهل ثروت صوت الرفرفة التي خفقت حوله، ثم التقط اللفافة وعيناه تراقبان ذلك الظل الذي ظهر على الحائط. لا، ليس ظلًا واحدًا، بل العشرات من الظلال النصفية احتشدت حول الدولاب. شعر كأنهم يتهامسون، جمهور صامت مخيف لا يسمع له صوتًا. شعر أنه لو كان لهم نصف علوي لرآهم يشيرون إلى اللّفافة بكل تأكيد.

في اللحظة التي لمست فيها أطراف أنامله اللفافة توقفت الظلال عن الحركة، بينما سكنت أصوات الرفرفة وهدأت الريح الغاضبة. كأن المشهد داخل الشقة بأكمله قد اختُزل في ثروت الذي التقطت أصابعه القماشة. شعر ثروت بدقّات طبول ترجُّ وجدانه في اللحظة التي ضمَّ فيها تلك القماشة الرَّثّة إلى صدره، فتحسَّسها ليجدها ملفوفةً حول

شيءٍ قاسٍ مُدبَّب طوله يزيد قليلًا على المتر.

هنا ثارت الأجنحة مرةً أخرى وجُنَّت أنصاف الظلال.

حتى تلك اللحظة كان لدى ثروت قناعة أن تلك الظلال وأصوات الرفرفة ليست في عالمنا، بل في عالمها الخاص، في البر الثاني، أيًا كان ماهيته. تظهر على الحوائط وتداعب أذاننا فقط حين تقترب من عالمنا. لكن ما حدث أمام عينيه جعل عضلاته كلها تنقبض في تحفّز، جعله يشعر أنها ليست كذلك.

فقد رأى الظلال النصفية تركض ناحيته على الحائط، في بُعدها الخاص، حتي وصلت إلى الحد الفاصل بين عالمَينا. ثم جحظت عيناه في ذَعرٍ حين قفزت خارجةً من الحائط في هيئة أجنحة سوداء لا جسد لها، أجنحة تشبه تلك التي تملكها طيور النَّوْرَس. أخذت ترفرف بعشوائيَّة

وتتلاطم بين الجدران كأنها لا تستطيع الطيران ولا تتفق على اتجاه بعينه.

"اخرُج يا ولدي".

لم تكن تلك إحدى وصاياها، بل هاتف جاءه لئوّه.

هذا وقت التحرك، هكذا صرخ بداخله، لكنه وجد ساقيه لا تستجيبان لقراره بالتقهقر؛ مما جعل ذعره يتضاعف.

زوج من الأجنحة تلو الآخر تخرج من الحوائط والجدران قبل أن تلتحم معًا. تدريجيًا بدأ الكيان يزداد حجمًا ويأخذ شكلًا كابوسيًا استوعبه عقل ثروت بصعوبة، مخلوق شيطاني مُكوَّن من أجنحة سوداء بلا أجساد، كيان له رائحة الريش المُبتلّ.

ثم توقفت الأجنحة عن الحركة وظلت كتلتها تطفو في الهواء، تخفق ببطء وانسيابيَّة.

استعاد ثروت جزءًا من أعصابه وأنفاسه المقطوعة، وطفق يتأمل الكيان العملاق المُكوَّن من أجنحة لا جسد لها. تمنى أن يعوقه حجم الكيان الضخم عن الطيران، لكنه ما حدث أثبت له خطأه.

ففي اللحظة التي تقدم خطوةً تجاه السطح تحركت كتلة الأجنحة لتقف في طريقه مُصدرةً أصواتَ رفرفةٍ مفزعة أشبه بهدير الرعد. انبطح ثروت أرضًا ووضع يده على رأسه ليسد أذنه ويتَّقي شر ما هجم عليه.

مرت ثوانٍ دون أن يحدث شيءٌ ففتح عينيه ورفع يده من فوق أذنه ليجد البيت صامتًا تمامًا. جال ببصره بحذر ليجد أن هناك مَنْ فتح الباب المؤدي للسطح. انتفض لينظر خلفه، إلى المكان الذي تجسد فيه الكائن الكابوسي، ليجد الأجنحة تتفرق في أنحاء الصالة قبل أن تخرج إلى السطح فهبَّ واقفًا وخرج إليه.

مدَّ أنور عنقه من الباب ليراقب مذهولًا المشهد الأسطوري الذي يحدث في السطح.

من أين أتت كل هذه الأعداد من الحمام التي تخفِق مع الأجنحة السوداء؟ كأنها ترقص على نغمة ملحمية لا يسمعها. ومَنْ هذا الشخص الطويل ذو الشعر المَجدُول، الذي يدور حول نفسه أعلى السلم الذي لا يقود لشيء وتدور معه تنُّورته ذات الخيوط البيضاء والسوداء؟

ثم رأى ثروت يتقدم وسط عاصفة الحمام والأجنحة السوداء، منكمشًا من الخوف. يحاول تفادي الأجنحة السوداء التي كانت تهجم عليه؛ لتنتزع منه اللفافة قبل أن يأتي الحمام ليدفعها بعيدًا عنه. بلغ السلم بأعجوبة دون أن تنهار ساقاه من الذعر. رفع عينيه لينظر إلى البدوي الذي كان وجهه مثبتًا عليه بطريقة راقصي التنورة وهم يدورون حول أنفسهم.

بدأ ثروت يصعد السلَّم حتى وصل إلى آخر درجة.

انتبهت الأجنحة السوداء لوجود أنور وهجمت عليه، ليبدأ في إطلاق الرصاص بعشوائية وهو يصرخ.

في اللحظة التي وضع فيها ثروت اللّفافة أعلى السلم انطبعت أسراب الأجنحة السوداء على الجدران مرة أخرى، قبل أن تأخذ هيئة السيقان وتركض مبتعدةً في عالمها. تقهقر الحمام ليدخل في بيوته الخشبية، أما البدوي فلم يكن له أثر.

ولا اللفافة.

***

بعيدًا، على أطراف الجيزة...

فوق السُلَم الذي لا يقود لشيء نظرت توحيدة للبرّ الثاني حيث بدأت الظلال هناك تتلوّى وتتخذ أشكالًا مبهمة.

هيا أيها الضيف، دورك الآن.

*****

(٧)

تابع المقدم قدري قوات الاقتحام التي وصلت لتؤها، وانتظر نزول أفرادها من السيارات السوداء الخاصة. ما إن لمح وجه اللواء عمر الصارم حتى تقلصت أمعاؤه بعد أن شعر بخطورة الموقف. هز رأسه رافضًا ما يحدث، فهو لا يستطيع تجاهل هذا الحَدس الذي يخبره أن الاقتحام ستكون عواقبه وخيمة. اقترب منه اللواء عمر وهو يعطي أوامر تكتيكية لأفراد وحدته بالانتشار وتسلّم مقاليد الأمور من قوات الحصار، فأعطاه قدري التحية ثم قال:

- سيادتك اللي سمعناه وشفناه الشهور اللي فاتت ده كوم واللي بيحصل اليومين دول في أرض القطان كوم تاني. إحساسي بيقول إن عيلة القَطّان جايين يساعدوا في...

رماه اللواء عمر بنظرة خاطفة وهو يقوم بإحكام السُترة الواقية حول صدره العريض، وقاطعه بصوته الأجَشّ الجهور:

- إحساسك؟ وقت بَرّ الضيف خلص يا قدري. وعلشان تبقى عارف لو إحنا منجحناش فيه فرقة مدرعات جاية ورانا، ولو وصلت والموضوع لسّه ما خلصش هَتْدَكّ بر الضيف وتساويها بالأرض. وإحنا معاها.

بنبرةٍ مرتعشةٍ من فرط الإثارة أكمل قدري:

- الاقتحام ده هيعمل كارثة سيادتك. على الأقل نحترم ذكرى العميد يسري والتضحية اللي عملها. ندّيهم الفرصة الأخيرة دي سيادتك، الليلة بالكتير. سيادتك ما شفتش اللي إحنا شفناه. وبعدين إحنا معندناش فكرة إيه اللي ممكن يكون مستنّينا جوّه. أنا متأكد إن توحيدة القَطّان وإيهاب الدماطي...

قاطعه اللواء عمر للمرة الثانية:

- إيهاب؟؟ هو فين إيهاب؟؟ إحنا احترمنا ذكرى أبوه بما فيه الكفاية. اللي عمله يسري الدماطي من تمانية وعشرين سنة كان مجرد هدنة، دلوقتي دورنا إننا ننهي المسألة تمامًا حتى لو اضطرينا نمحي بر الضيف من على وش الأرض. وبعدين إنت تضمن منين إن الموضوع مش هيتفاقم؟ تضمن منين إن عيلة القَطّان ميبؤظوش الدنيا أكتر ما هي بايظة؟ توحيدة القَطّان مش هتبقى أقوى من فرقة مدرعات.

ثم أضاف بنبرةٍ آمرةٍ شديدة اللهجة:

- جهّز قواتك يا سيادة المقدم، إحنا داخلين بر الضيف.

في اللحظة التي أنهى فيها جملته صمَّ آذانهم خُوار حيواني هادر جاء من البر الثاني من النيل، صوت كادت أعصابهم تنفلت بسببه. لكن هذه المرة كان واضحًا أن هناك صوتًا آخر مختلطًا به.

نفير سفينة.

الفصل الأخير

"أنا أخطاء، من كثرتها، نَسِيتَها"

(١)

في سلم مظلم، في طابَق لا ينتمي لعالمنا، فتح إيهاب الدماطي عينيه وانقبضت عضلاته. رجَّ ذلك الصوت الرهيب جدران السلم -سجنه الخيالي- ليجعل حواسَّه كلها تنتبه. لقد ظل مسجونًا هنا لشهور، لكنه لم يتعب ولم يَخنَّج ما يقتات به، حتى إدراكه تباطأ كي لا يدركه الجنون.

رفع رأسه إلى أعلى، إلى الحائط الذي مهمًا صعد يجد نفسه أسفل السلم المؤدي إليه، الحائط الذي كانت تأتيه من ورائه أصوات مُؤرِّقة طيلة فترة سجنه: حوارات، صرخات، شجارات، ضحكات مجنونة... أصوات لا تجتمع إلا في مستشفى للأمراض العقلية شُيِّد في قاع الجحيم.

لكن الزئير الكابوسي الذي جاء لثوْه من خارج سجنه الغامض جعله يُفيق من حالة البيات الذهني تلك؛ ليدرك أن هذه الرحلة الخيالية قد بلغت نهايتها. نهض ليواجه نهاية السلم المظلمة بالأعلى وكل جسده ينتفض من الإثارة.

وما إن وقعت عيناه على تلك اللَّفافة الطويلة الملقاة هناك، والتي ظهرت من العدم، حتى صدى إيقاع طبول خافت بين جنبات صدره. دقات أعادت تشغيل عجلة الحياة في جسده؛ ليبدأ بعدها يتحرك وكأنه لم يكن في حالة بيات لشهور.

بخطوات حذرة صعد حتى وصل إلى قمة السلم.

نزل على ركبتيه وارتعشت يداه وهما تمتدان لتفتح اللفافة التي تمتد فيها خطوط باللونين: الأبيض والأسود.

قطَّب حاجبيه والتمعت عيناه من فرط التأثر.

إنه يعرف هذا السيف.

* * *

صدى صليل سلسلة داخل الغرفة التي لا تزيد مساحتها على الأمتار الستة حين تحرك يوسف. فكَّ التفاف السلسلة الغليظة حول نفسها، السلسلة التي تربط قدمه بقضبان النافذة؛ كي يستطيع أن يقترب من الباب ويسند رأسه عليه قائلًا:

- أنا بسمعه في كل لحظة يا ليلى، صوت جدي الكبير في راسي هيجنّني. بيحوم حواليَّا، زَيّ المسعور، لسّه بيدوَّر عليه، لسه عايز مجده وعايزني أكمّل مشواره.

جاءه رد ليلى التي أسندت رأسها على الجهة الأخرى من الباب:

- إنت مش جدك يا يوسف. مش معنى إن دمه بيجري في عروقك إنك هتغلط نفس غلطاته.

تحركت السلسلة مع حركة يوسف الذي أمسك كتفه حين سرت فيها نبضة مؤلمة. تحامل على نفسه كي لا يظهر الألم في صوته وتحسس الباب بكفّه قائلًا:

- إوعِك تخلّيهم يسيبوني يا ليلى. متراهنوش عليَّا، أنا هفشل في الاختبار.

كتمت ليلى بكاءها وسالت دموعها في صمت وهي تقول:

- إنت اللي هتقولّهم يفكّوك يا يوسف، هتثبتلهم وتثبت للضيف إنك أقوى من چوزيف كوتون. هترجعلي أنا وابنك و...

انتفضت مذعورةً والتفتت لتنظر من خلال باب البيت المخلوع، حين صدى صوت الخُوار الرهيب الممزوج بالنفير ليرجُّ البلدة بأكملها.

- يوسف!! إيه ده؟؟

هبَّ يوسف واقفًا واستند بكلتا يديه على الباب لينصت، بينما انكمشت ليلى من الناحية الأخرى كأنها تريد أن تخترقه لتصل إلى زوجها. قطَّب يوسف حاجبيه وفتح عينيه عن آخرهما وهو يفكر بعمق.

- يوسف أنا خايفة.

أغمض عينيه ولم يُجبها، ألم كتفه لا يُحتمل.

- لأ، لازم أروح لحسن.

قالتها ليلى وانطلقت خارجة.

دقائق طويلة قضاها يوسف في صمتٍ مُطبِق، في صراع مع نفسه. ألم كتفه يكاد يدفعه للصراخ. خذلته قدماه ليجلس على الأرض الطينية.

سوف أخذلكم جميعًا، فإن الضعف يعيش في دمي.

ثم سمع حركة وراء الباب.

- ليلى؟

ببطءٍ رفع يوسف وجهه لينظر من بين شقوق الباب المتهالك، ليُفاجأ بوجهٍ لم يَرَهُ من قبل لكنه يشعر أنه يعرفه. وجه امرأة سمراء تظهر عيناها الكحيلتان من فوق اليشمك الأبيض، عينان تُذكِّرانه بما قيل على عيون كليوباترا التي جعلت أنطونيو يغزو العالم.

* * *

على شاطئ النيل الثائر وقفت سلمى مغمضة العينين تتحسس الحشائش القاسية بأصابع أقدامها الحافية. مرت بأناملها على الأغصان والأوراق، تنفست رائحة النيل وتمايلت مع صوت أمواجه. هناك رابط قوي بينها وبين هذه الأرض... رابطٌ قديمٌ أدركت لتوِّها عمق جذوره.

استمرت على هذا الوضع لدقائق طويلة قبل أن تفتح عينيها وتنظر إلى يسارها، إلى البيت المتهالك الذي افتقد معظم جدرانه وغرفه. لكنه

لم يفتقد السلم.

ظل السلم الخشبي القديم متماسكًا على مدار قرنين من الزمان، يخترق البيت من الطابق الأرضي إلى السطح المتصدع. أعلاه تقف امرأة خمسينية ذات شعر فضي قصير، شاخصة البصر إلى البر الثاني.

نساء عائلة القَطَّان، لديهم قدرات خاصة؟

هذا ما قالته لها عمتها، شيءٌ ما عن طريقة قدومهم لهذه الدنيا، عن "فاطمة"، وقصتها الخيالية ووعد أعطته لناسكٍ لا يشيخ.

ما الذي يمكنه أن يميزنا عن بقية خلق الله غير شعرنا الذي يقف عند طول معين، كأنه قد فقد الرغبة في الاستمرار، وأرحامنا التي لا تستجيب لتوسلاتنا؟

لحظة طويلة قضتها سلمى محدقة في توحيدة التي لم تَحِذ بعينيها عن البر الثاني، كأنها تنتظر شيئًا. ثم التفتت كالملسوعة حين صدى الخوار الرهيب الممتزج بالنفير من أمامها مباشرةً، من الناحية المقابلة من النيل.

تقهقرت مذعورةً حتى كادت أن تسقط على ظهرها، ثم التفتت لعمتها التي دقت بعصاها مرتين على السلم الخشبي قبل أن تستدير لتنزل السلم. تركت سلمى مكانها عند شط النيل واتجهت لتستقبلها عند خروجها من البيت المتهالك. تريد أن تخبرها إنه اختبار صعب، تحدي مخيف لن تقدر عليه. فُتحت ضلفتا الباب المتهالكتان لتخرج منه توحيدة وتقف أعلى الدرجتين المؤديتين إلى الساحة أمام البيت.
نظرت إلى أنوار المشاعل التي يحملها الخَفَر، أنوار جعلتها الريح الباردة ترقص على وجوههم وترتعش معها خلجاتهم وقبضاتهم المضمومة.
ترتعش غضبًا وخوفًا.

بخطواتٍ حذرةٍ تخللت سلمى صفوف أهل بَرّ الضيف المحتشدين في صمتٍ حول بيت جدّها. انحني لها الفلاحون إجلالًا بينما ظلت توحيدة

تراقبها دون أن تحاول منعها من الخروج من أرض القَطّان.

عجيب هذا. لماذا يتعامل معها الجميع بهذا الاحترام رغم أنها تعاملهم بمنتهى القسوة؟ يتعاملون معها بحرصٍ شديدٍ كأنها مصنوعة من زجاج، كأنها هشّة ستنكسر لو تكلموا معها بنبرة عالية. لا تدري أهو احترام أم أنهم يشعرون أن بها خطبًا ما.

سلمى ليست ضعيفة، ليست مريضة.

هي غاضبة!!

- بتبصُولوا كده ليه؟؟ مالكم فيه إيه؟

تصيح في وجوههم وهي ترمقهم في مقتٍ لكنهم يُحيُّونها بكل تبجيل.

يتقبّلون منها كل الإهانات.

ستُريهم.

لن تستسلم.

لن تعيش في انتظار معركة لم تسعَ إليها.

تجاهلت عيونًا تشبّثت بها ولم تتركها حتى خرجت من أرض القَطّان، إلى القرية، عبر البوابة الحديدية. وما إن أصبحت في المساحة الخاوية حتى فردت ذراعيها ودارت حول نفسها كأنها ترقص. لم تشعر أنها قريبة من الحرية هكذا من قبل، هنا، وسط كل هذا الخُواء، بعد أن ترك أهل بر الضيوف بيوتهم.

بيتٌ وحيد لم يخلُ من سكانه. توقفت عن الدوران وتسمّرت مكانها حين وقعت عيناها على ذلك الطيف الذي ظهر في البيت الذي سجن فيه يوسف نفسه، طيف امرأة ترتدي يشمك. انتفضت حين جاء النداء:

- سلمَى.

التفتت لتجد عمتها تقف عند البوابة الحديدية. بادلتها نظرتها القوية بواحدةٍ مليئةٍ بالتحدّي قبل أن تهتف:

- ضحكتي عليهم يا عمتي؟ زي ما ضحكتي عليّا وقولتيلي إني ليّا دور أهم من دور أي ست طبيعية؟ إدّتيهم أمل كاذب، قولتيلهم إننا ممكن نقف قُصاده؟ هنقف ازّاي قُصاد اللي جاي ده؟ نقف إزاي قُصاد شر جوّانا؟

أنهت سلمى كلماتها المُحتدّة وهي تشير للبر الثاني من حيث جاء الزئير الشيطاني. هنا ضربت توحيدة بعصاها الأرض وصاحت:

- كفاية!!

بُهتت سلمى من رد فعل عمتها فهي لم تُصِح في وجهها هكذا من قبل، لم تصِح في وجه أحد هكذا. صمتت توحيدة للحظة قبل أن تستجمع مشاعرها وتقول:

- وآني يا سلمى، فكرك آني مبسوطة إكده؟ مبسوطة وآني شايفاكم بتتجطّعوا أدّامي إكده، وانتم حتة مني؟ فكرك آني مش خايفة من اللي جاي؟

أطرقت سلمى وانعقد لسانها قبل أن ترفع عينيها لترى وجه عمتها الأسمر المثلث محتقنًا، ثم انتبهت لذلك الطيف الذي اقترب من توحيدة.

- فكرك بعرف أنام وأنا فوج كتافي الهم ده؟ المسئولية دهِي؟ لأ وإيه، لازمن أبجَى جوية! أجوَى من الصخر! أجوَى من الحزن! أجوى من الوحدة!! لأن الكل متعلّج في رجبتي. وإوعاي أبَيّن حاجة، إوعاي يظهر عليّ خوف أو ضعف.

دمعت عينا سلمى وهي ترى طيف المرأة ذات اليشمك تحتضن عمتها وتضع رأسها على كتفها. أغمضت توحيدة عينيها وقد تمكنت منها مشاعرها دون أن يبدو عليها أنها لاحظت الطيف. ثم فتحت عينيها

وفردت قامتها في إباءٍ قائلةً:

- عارفة يعني إيه تعيشي عمرك كله خايفة تغلطي؟ حتى لحظات الضعف بتاعة أي بني آدم، مش مسموحة. لأني آني بالذات لو غِلِطَ كل حاچة هتضيع. متخيلة يا بنت أخوي أنا عايشة في إيه؟

- عمتي...

- عمتك أضعف منك يا سلمى. إنتي مهربتيش من الحب.

حاولت سلمى الكلام لكن مشاعرها غلبتها ووقفت غُصَّة في حلقها لتمنعها. أما توحيدة فقد تجاهلت الدمعة التي تجمدت في مقلتيها، وقالت بعد أن استنفذت مشاعرها طاقتها:

- أنت جُلتيها يا بنيَتي، الشر جوَّه كل نفر فينا. كل واحد ليه دور، ودورك دلوجتي إنك تاخدي مكاني. لو كنتي مستعدة ليه أو لأ.

ثم استدارت لتدخل أرض القَطَّان بينما التفت طيف فاطمة إلى سلمى.

ومدت يدها إليها.

***

في اللحظة التي سمع فيها الزئير المدوِّي أمر اللواء عمر قوات الاقتحام بالتحرُّك فورًا. كان يحفظ الإجراءات عن ظهر قلب، قاد رجاله خلال حدائق المانجو التي تحيط ببر الضيف وبحث عن شجرٍ بعينه، ذلك المربوط حول جذعه أقمشة. رغم عدم اقتناعه بتلك "الخزعبلات" وعِلمه بأنها ستقيِّد حركتهم، فإنه قام بفك القماشة من حول الجذع قبل أن يُسدلها فوقه بسرعة ويُخرج فوَّهة بندقيته الآليَّة من تحتها. أمر رجاله بفعل نفس الشيء، ثم توقف عن الحركة. نظر من خلال ثقبين في القماشة ليتمكن من فتح الباب الخشبي ويأمر رجاله كي ينتشروا بين أشجار المانجو في صفٍ واحد عريض.

بالرغم من الإضاءة القوية التي أمر عمر بتسليطها من الساحة المربعة

التي كانوا بها، فإن كثافة الأشجار جعلت من الرؤية مجهودًا مُضنيًا ومثيرًا لخيالهم الخصب. وكلما تذكروا الخُوار الكابوسي الذي رجَّ المنطقة منذ دقائق تتسارع دقات قلوبهم وتتأهب حواسُهم، فهم يعرفون أنهم يقتربون من مصدر الكابوس الذي جثم فوق القطر المصري كله.

انتهى الغيط عند مساحة أرض مفتوحة بها منازل أهل البلد، فرفع اللواء عمر يده ليأمرهم بالتواري وسط الأشجار والزراعات حتى يُقيِّم الموقف. إلى يمينه أرض زراعية مُوحِشة تطل على النيل، أرض محاطة بشجر الجازورين العملاق وسياج شائك قاسٍ. أرض معزولة عن بقية الغيطان لا يكاد يُرى محتواها من ضخامة أشجارها وعلو حشائشها.

أرض القَطَّان.

ثم سمع حوارًا دائرًا. مكَّنه ضوء الكشافات من تحديد هيئة امرأتين تتجادلان أمام بيت مهجور.

- سلمى وتوحيدة القَطَّان سيادتك.

هكذا همس المقدم قدري. انتظر اللواء عمر حتى دخلت توحيدة إلى أرض القَطَّان ثم قطب حاجبيه متعجبًا مما رآه. هناك ما يشبه الطيف يقف أمام سلمى، يمد يده إليها، كأنه يدعوها للدخول إلى أرض جدِّها، قبل أن يدخل أحد البيوت. تبادل مع قدري نظرة سريعة أعطاه الأخير فيها تعبيرًا، بما معناه "ألم أقُلِ لك؟".

صرف عمر بصره مرةً أخرى للمشهد لكنه جفل حين لمح الحركة... بجواره.

ببطءٍ حوَّل عينيه للشجرة التي إلى يمينه وأخفض نظارته ذات الرؤية الليلية على عينيه؛ وكذلك فعل من كان على مقربة منه من رجاله. استغرقوا لحظات دققوا النظر فيها باحثين عن مصدر الحركة قبل أن تنقبض عضلاتهم حين تحرك ظل قصير على جزع شجرة، ظِلّ للنصف

السُفلِي لإنسان.

دون أن يحركوا عضلة واحدة طفقوا يراقبون الظل الذي تحرك ببطء مثير من شجرة إلى أخرى، حتى وصل إلى السلك الشائك الذي يفصل الغيطان حيث يقفون عند أرض القَطَّان. بطرف عينيه لمح اللواء عمر ظلًا آخر ينضم للأول، ثم ثالثًا ثم رابعًا. عشرات الظلال لأنصاف بشرية تتحرك على الأشجار كأنها في بُعدٍ آخر، قبل أن تتجمع عند حدود أرض القَطَّان، في مكان معين حول السلك الشائك.

- سيادتك الخيالات دي ظهرت من أقل من ساعة، زيّ ما تكون بتحاول تدخل أرض القَطَّان تاني من الفتحة دي.

هكذا همس قدري مشيرًا إلى نقطة بعينها في السلك الشائك. هناك مدخل آخر لأرض القَطَّان غير الباب الحديدي، فتحة صنعها ثلاثة أشقياء أسماؤهم: صبحي وإسماعيل وعوض، في نفس المكان الذي يتجمع حوله أنصاف الظلال. كأنهم يختلسون النظر منها. مثل النمل الذي يحتشد حول بقايا الطعام، اجتمعت الظلال في صمتٍ مخيف حول الفتحة صنيعة الطمع، الفتحة التي خرج منها الكابوس منذ شهور وشيءٌ ما جذبه إليها الآن.

أشار قدري إلى الفتحة وأومأ اللواء عمر برأسه أنه قد فهم، تلك الظلال تحاول بالفعل دخول أرض القَطَّان مرةً أخرى. ثم دبَّ هاجسٌ خافتٌ في صدره، ربما كان قدري مُحقًا، من الممكن أن يكون ما تفعله توحيدة القطان بالداخل هو ما يجذب أعوان الضيف.

ربما يحاول الضيف منعها، ربما هناك أمل فيما تفعله.

أطرق مُفكرًا في الاختيار الذي وقع أمامه لكنه أخذ قراره ورفع يديه لفرقته كي تتقدم.

فهناك أمر مباشر لا يمكن مخالفته.

(٢)

القاهرة، في الطابَق الأخير بمستشفى الشرطة...

دفع اللواء راشد الباب المزدوج وسار بخطواته الواسعة متجهًا إلى نهاية الممر. توقف في منتصفه، بالضبط أمام باب الحمَّام المفتوح، وحدق للحظةٍ في محتواه المظلم قبل أن يأمر من اصطحبه من أفراد أمن المستشفى، ضباطًا وجنودًا، أن يُنيروا حجرات الطابق بأكمله.

- مش عايز أوضة ضلمة في ضهرنا.

قالها ثم استمر في طريقه إلى عنبر (د). توقف حين بلغ بابه المزدوج ونظر من زجاج نافذته الصغيرة. وما إن فعل حتى قال من بين أسنانه دون أن يلتفت لمرافقيه:

- قولتولي بقى إن الأمن مستتب والوضع مستقر والكلام الخايب ده. أومَال إيه المنظر ده يا بهوات؟

تقهقر بعدها خطوةً كي يسمح لضباط الأمن ومدير المستشفى المَنُوب أن ينظروا داخل العنبر، حيث كان الوضع أبعد ما يكون عن الاستقرار فقد أفرغ المرضى منتصف العنبر الهائل من الأسِرَّة والتفّوا في نصف دائرة في مواجهة النافذة التي تطل على النيل من الحائط الأيسر.

تمتم المدير المنوب بكلمات غير مفهومة بينما تراجع الضباط دون أن ينطقوا.

- مسمعتكش يا دكتور.

جاء سؤال راشد لينتفض الطبيب ويلتفت إليه قائلًا:

- سيادتك والله فيه دكتورة نبطشيّة كان المفروض إنها...

بتر كلامه مذعورًا حين انطفأ النور مرةً واحدة. بَسمَل بعض الجنود واستلَّ الضباط أسلحتهم، لكن راشد ظل متماسكًا وهتف:

- بتعملوا إيه؟؟ نزّل سلاحك منّك له. وحد يروح يبَصّ من السلم.

انطلق أعلى الضباط رتبة إلى نهاية الرواق كي ينظر من منور السلم، بينما اتجه راشد لينظر من النافذة. جال ببصره في البنايات والشوارع ثم في أنحاء المستشفى نفسها، قبل أن يقول ما جعل قلب المدير المَنُوب ينقبض:

- النور مقطوع في الدور بتاعنا بس.

هنا نظر الضباط وأفراد الأمن إلى أكبرهم رتبةً الذي فتح الباب المزدوج في نهاية الممر وتسمّر مكانه. بأنفاسٍ مبهورةٍ راقبه الجميع وهو يلتفت إليهم ببطء وقد ابيضّ وجهه ثم غمغم:

- كلام سيادتك مظبوط.

- انزل شوف فيه إيه.

هكذا أمره راشد وهو متوقع النتيجة. فما إن اختفى الضابط نزولًا حتى ظهر مرة أخرى من السلم الذي يقود للسطح. تبادل الجميع نظراتِ جزعةً حائرةً قبل أن يلتفتوا للضابط الذي أعاد الكرّة ليظهر من أعلى السلم مرة أخرى. ظلت النتيجة واحدة، يختفي الضابط نـزولا كي يظهر مرةً أخرى أعلى السلم. بعد المرة الثالثة تقهقر الضابط مبتعدًا عن السلم، ثم استدار ليواجه راشد ويعطيه التحية العسكرية قائلًا:

- إحنا اتحبسنا سيادتك.

قبل أن يعلّق راشد على كلام الضابط الذي قاله بوجه هرب منه الدم، رجّت أصواتُ عويلٍ رهيبةً المكان كله، صراخ غاضب وضحكات هيستيرية. جنون يحدث حولهم في عالم لا تراه أعينهم ولا تستوعبه عقولهم، جعل قلوبهم تنتفض بعنف في ضلوعهم. تابعوا بعيونٍ مذعورةٍ الأصوات التي انسحبت من حولهم متجهةً إلى العنبر (د).

هنا رفع راشد يده وصاح كي يتوقف رجال الأمن وطاقم التمريض عن الحركة، ثم شحذ كُلّ حواسّه.

هناك مَن يضحك.

لحظات مريرة مرت عليهم وهم منقطعو الأنفاس في حالة ذهول. ثم التفتوا الواحد تلو الآخر إلى العنبر (د) في نهاية الممر. تقدم راشد لينظر من الزجاج ليجد المرضى يضحكون بهستيريا كأنهم سَكارَى، وقد انقلب التعبير الجامد على وجوههم إلى آخرَ مجنون. انقضّ المدير المَنوب على الباب حين لمح الطبيبة الشابة في مركز نصف دائرة النزلاء. هالته الجروحُ الغائرة التي ملأت وجهها وأجزاء مختلفة من جسدها. نادى عليها، لكنها لم تسمعه.

تبادل الضباط نظراتِ حائرةً جزعة. ما الذي ينوي نزلاء عنبر (د) على فعله؟

سكن النزلاء عن الحركة والتفتوا إلى شخصٍ قصيرٍ لا تُرى تفاصيله يقف بينهم، شخص يرفع حجرًا ملطخًا بالدماء عاليًا ويقول بصوتٍ أخنف لكنه كان واضحًا لهم:

- العبي معايا.

ثم قذف الحجر في وجه الطبيبة ليشجَّ رأسها. بُهت الواقفون وتعالت شهقاتهم من قسوة المشهد، أما رد فعل الطبيبة فكان أكثر هولًا. فقد رفعت رأسها لأعلى كأنها ستعوي وبدأت تضحك بجنون. ثم ظهر القَزَم كبير الرأس من بين الصفوف واتجه بخطوات بندوليّة ليلتقط الحجر.

صرخ المدير المنوب في رجال الشرطة كي يتدخلوا، لكن الموقف كان أقوى منهم. أما بالنسبة إلى راشد، فلم يكن هناك حلّ آخر.

- افتحلي الباب.

جحظت العيون وجفت الحلوق ولم يتمكن سوى كبير الضباط من

التعليق.

- سيادتك الموضوع مرعب وفي منتهى الخطورة، مش ممكن تخاطر بنفسك. وبعدين الفرصة فاتت خلاص، بُصَ على حالتها سيادتك. دي بقت حتة لحمة مهرئة.

تحكّم راشد في تعبيرات وجهه وقال:

- بالنسبالك الفرصة راحت، إنما بالنسبالي، دي الفرصة الوحيدة.

تذكر انك حملت رواية الميراث بر الضيف الجزء الثالث حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك

***

وصل ثروت إلى وجهته وأوقف السيارة أمام بناية والدته. هذا هو كل ما يهم، تلك العجوز الحانية التي ترقد في فراشها في سلام. نظر للسماء المظلمة، السحب المكدسة فوق بعضها، والتي اتخذت شكل عينين في وجهٍ مبهم، هل تنظر إليه؟

حَدسه يخبره أن هناك خطبًا ما. دار بعينيه في البنايات والشقق والطوابق، شيءٌ ما ليس على ما يُرام.

نعم، هذا هو، ذلك الطابق.

هناك طابق مظلم تمامًا في كل بناية، طابق كل شققه وممراته تخلو من أية إضاءة. طابق مهجور في أماكن عشوائية، فهو الأول في بناية والعاشر في أخرى، لكنه بالتأكيد موجود في كل البنايات. التفت إلى عمارة أمه وسقط قلبه بين ضلوعه حين رأى طابقًا جديدًا أسفل شقّتها.

طابق مظلم تمامًا.

وقف ثروت كالتمثال أسفل السُلم المفترض أنه يقود للطابق الذي تعيش فيه والدته. لكنه الآن ينظر لطابقٍ مظلمٍ، طابق لم يكن موجودًا من قبل. يعلم أنه لو صعد إليه ربما لن يستطيع التراجع، لكنه لا يوجد أمامه سبيل آخر للوصول لأمّه.

يعلم أنه ليس الوحيد الذي يواجه ذلك الاختيار. هناك المئات إن لم يكن الآلاف، رجالًا ونساءً، يقفون نفس وقفته، في نفس حيرته، ونفس خوفه. ينظرون جميعًا، كُلّ في بنايته، إلى طابق مظلم لم يكن موجودًا قبل هذا.

وهناك أضعاف ذلك العدد مسجونون فيه.

جفل وانحنى متفاديًا أجنحة غير مرئيّة مرت فوق رأسه واختفت في ظلمة الطابق المظلم. إنه يزداد قوةً، ذلك الوجود الشيطاني المرتبط بالأجنحة. أخذ نَفَسًا عميقًا، وأغمض عينيه في محاولة للتحكّم في القُشَعريرَة القوية التي يشعر بها، يعلم أنه في اللحظة التي تطأ فيها قدمه أول درجة لن يصبح هناك مجال للتراجع، لكنه يفعلها... ويبدأ في صعود السلّم.

هناك خطوات خلفه، هناك من يصعد السلم وراءه لكنه لا يراه. ينتبه إلى نهاية السلم التي ما إن بلغها حتى وجد نفسه في بداية الطابق المظلم مرة أخرى.

سقط قلبه في قدمه، لقد عَلِق.

كما تصور بالضبط.

***

هذه المرة ظهر نفير السفينة واضحًا وسط البكاء الشيطاني الهادر، بل طغى عليه. هكذا تأكد أنور الذي انكمش في فراشه، تحت غطائه، يحتضن بندقيته العتيقة وينصت بكل تركيز. ما سمعه لثوّه لا يعني إلا

شيئًا واحدًا: إنه على وشك الوصول.

بجانبه تغطُّ زوجته في نوم عميق. لا لن يسترِقَ النظر خارج الغطاء، فآخر ما رآه قبل أن يسدله فوقه كان ذلك الزوج من الأجنحة السوداء التي ظهرت من العدم لتستقرَّ في ركن الغرفة قرب السقف. جناحان أشبه بأجنحة النَّوْرَس ملتصقان ببعضهما دون أن يفصلهما جسد.

فررت.

ها هو جناح آخر يخفق في الغرفة.

بأصابع مرتعشة رفع الغطاء ليخطف نظرةً قبل أن يعيده مكانه بسرعة. لمحة سريعة سمحت له أن يرى الجناحين الملتصقين قد أصبحا ثلاثة.

فررت.

ها هو الرابع ينضم إليهم.

تمتم بأدعية واغرورقت عيناه بالدموع ندمًا على ما فعله في حياته، طمعه وهلعه على ممتلكاته الهزيلة. تمنى فقط أن ينزاح هذا الكابوس كي يخبر زوجته كم جعلت حياته لها معنًى.

فررت.

لكن يبدو أنه لن يلحق.

* * *

العشرات وربما المئات يقفون أمام الأقسام وحول مديرية الأمن في صمت، ينتظرون دورهم في تقديم البلاغات، يطالبون بالأمان. لقد كان اكتشاف القبطان أنور هو السبب في فرض حالة الطوارئ والاستعدادات القصوى لما هو قادم، وبالفعل أنقذ هذا القرار الكثير. لكنه أيضًا كان السبب في حالة الذعر التي انتشرت في جميع أنحاء البلد.

بكل تركيزه، وفي غرفة مكتبه التي تُضيئُها أباجورة بائسة، أنصت مدير الأمن لذلك الصوت الذي يحوم حوله. تلك الرفرفة العشوائية التي لم تغد خافتة، بل محمومة، كأنها لطائر مذعور أو غاضب.

يوسوس له بأبغض الكلمات وأكثرها هولًا.

هو الآن يتساءل: من أين له أن يمدَّهم بالأمان وهو يفتقده.

عيناه ثابتتان على الملف المكتوب عليه "بَرّ الضِّيف" أغمضهما تمنى من كل قلبه أن يفشل عمر أو يخالف أوامره، فهو يعلم أن الحل هناك، مع تلك المرأة ذات الشعر الفضي التي كتبت على نفسها الوحدة، وذلك البدوي الذي كان هناك منذ البداية .

*****

(٣)

في بَرّ الضِّيف...

وقف اللواء عمر أمام الفتحة التي أمر زين القَطَّان بصنعها منذ شهور. تذكّر المصير الدموي الذي لاقاه، هذا دون أن يدخل أرض القَطَّان وقد كان وريثًا شرعيًا لها. تُرى ما الذي يمكن أن يحدث لهم لو تسللوا إليها وهم الغرباء؟

التفت إلى المقدم قدري ليجده مغمض العينين يتمتم بما لا شك أنه أدعية وآيات قرآنية. حرك عينيه يمينًا ويسارًا في فتحتي القماشة وهو يتابع أنصاف الظلال، والذي بدا له أنها توقفت عن الحركة والتفتت إليهم. رغم أنه انتقى أفراد مجموعة الهجوم بعناية وتأكّد أنهم لم يسمعوا بالإشاعات المخيفة التي حِيكَت حول بر الضيف، لكن تململهم في وقفتهم وجحوظ أعينهم خلف الفتحات يشي بأن الخوف قد أصبح رفيقًا ثقيلًا لهم.

- شششش. سامعين؟

قالها عمر وهو ينصت بتركيزٍ ويتلفّت حوله، ثم انحنى بغتةً متفاديًا شيئًا.

خفقت رفرفة حوله كأنها همهمات، أجنحة غير مرئيّة تفحصه، تتشمّمه من فوق القماشة، تتحسّس نقاط ضعفه. ولم يكن هذا شعوره وحده، بل جميع أفراد فرقته. جاءت بعدها رفرفة مختلفة. التفت ليجد أسرابًا من الحمَام تملأ المكان كأنها إعصار من الأجنحة البيضاء تخلّلت صفوف قوة الاقتحام، إعصار رقصت فيه أجنحة بيضاء مع أخرى سوداء لم تكن ظاهرةً قبلها بثوانٍ.

هنا استنتج اللواء عمر شيئًا، إن ما يحدث أمامهم معركة.

أمضى دقائق قليلة يراقب الأجنحة المتناقضة، وهي ترقص معًا في دوّامة لا هواء فيها حتى ذابوا جميعًا عن الرؤية. هنا مدّ يده ليُزيح القماشة ذات اللونين: الأبيض والأسود التي تغطي الفتحة التي صنعها إسماعيل وصبحي وعوض منذ ستة أشهر.

تلك كانت المرة الأولى التي ينظر فيها غريب داخل أرض القَطّان، وما رآه اللواء عمر كان شيئًا لم يملك من مفردات اللغة ما تُمكّنه من استيعابه.

كيف يصف المرء بدقّة شيئًا على الحافة بين الحلم والحقيقة؟

كان هذا هو أول سؤال طرأ في ذهنه وهو يُحدّق في أشجار عملاقة، أصغرها يفوق أكبر أشجار المانجو التي رآها من قبل، أكبر مما كانت تبدو عليه من خارج الأرض.

حشائش تصل إلى المتر ارتفاعًا.

الهواء ثقيل لدرجة أنه يحرك تلك الحشائش كأنها في قاع نهر استوائي.

حتى رائحة المكان، تشبه رائحة البحر.

كل ذلك كان البداية فقط.

فمع أول خطوة داخل أرض القَطَّان هاجمته أسراب الحمام مُجدَّدًا؛ كأنها تحاول منعه من الاستمرار. تجاهلها ورفع يده كي يتبعه بقية أفراد المجموعة.

الهواء يزداد ثقلًا كلما تقدموا؛ لدرجة أن اللحظة التي عبَر فيها الفتحة شعر أنه لن يستطيع التنفس بحُريَّة في هذا المكان.

تدريجيًا أصبحت الرؤية صعبة وانخفضت درجة الحرارة، بينما منعت الأقمشة المُسدلَة فوقهم تحركهم بحُريَّة. ثم سمع اللواء عمر حوله صوتًا كالموج الهائج؛ فهزَّ رأسه وأغمض عينيه رافضًا كل ما يحدث حوله.

يعلم أنه لا يحلم، لكنه يعلم أيضًا أنه في مكان لا يتبع قواعد عالمنا.

استجمع إرادته وقاد فرقته رغم صعوبة الرؤية من خلال فتحتَي القماشة حتى مع نظّارات الرؤية الليلية. ثم بعد دقائق طويلة توقف ليُقيِّم الموقف.

هذا عجيب. لم تكن الفتحة التي دخلوا منها بعيدة هكذا عن بيت القَطَّان.

نظر خلفه، إلى فرقته التي لم يستطع تمييز أفرادها بسبب الأقمشة المُسدلَة فوقهم، تأملهم لوهلة.

كم كان عددهم؟

جال ببصره فيهم محاولًا استنتاج هُوِيَّة كل فرد منهم، وفي النهاية صاح بهم أن يهمس كلٌّ منهم باسمه. لحظات عصيبة مرت عليه وهو يستمع إليهم متوقعًا في أي لحظة أن ينطق أحدهم باسمٍ لا يعرفهفهم

لكن هذا لم يحدث. تنفَّس الصُّعدَاء ثم نظر أمامه. لا شيء سوى المزيد من الحشائش المتوحشة وسيقان الأشجار العملاقة. ظل التنفس عسيرًا وكذلك الرؤية. لاح له خطر فقدان الطريق في الأفق، فهمس مناديا

قدري كي يدلّه على الطريق. انتظر بعدها لحظاتٍ قبل أن يشير الأخير إلى اتجاهٍ ما فسلكه.

مرت دقائق أخرى توقف بعدها ثانيةً. مستحيل أن يكون في الطريق الصحيح، فأرض القَطّان كلها ليست بهذا الطول. التفت مرةً أخرى لقدري ليجده يشير إلى نفس الاتجاه. أطرق عمر مُفكّرًا لوهلةٍ قبل أن يتخذ قراره بالاستمرار. تدريجيًا ارتفع صوت أنفاسه مع إحساس الاختناق الغريب الذي كان يشعر به، فالتفت إلى قدري هامسًا من بين أسنانه:

- قدري، إنت عارف السكّة ولا بتشاور على أي اتجاه والسلام؟

أجابه قدري من مكانٍ آخر:

- سيادتك بتكلّم مين؟ أنا هنا.

تجمّد عمر مكانه وهو يُحدّق في القماشة التي كان يخاطبها، وبالتحديد إلى الفتحتين اللتين تطل منهما حدقتان جاحظتان.

- عرّف نفسك.

هكذا أمره وانتظر.

لكن لا شيء. وكأنه لا يسمعه ظلّ من يقف أسفل القماشة يرمقه في برودٍ جعل دمه يهرب. دار عمر بعينيه في أفراد وحدته، كيف يحدد هُويّتهم؟ حسنًا، لا مفرّ. يجب التخلص من الغطاء.

- كله يشيل القماشة من فوقيه. حالًا!

ما إن أصدر هذا الأمر حتى سقطت القماشة التي كان يخاطبها أرضًا كأنها كانت طافية في الهواء. دار بعينيه في وجوه أفراد وحدته حتى يتأكّد من هُويّتهم وعددهم. ثم انتبه إلى قدري الذي تكلم بصوتٍ منخفض يملؤه الذهول:

- سيادة اللوا... إيه ده؟

التفت عمر لينظر لما يشير إليه قدري وانقبض قلبه من هول ما رآه. في نفس اللحظة التي سقطت فيها الأقمشة رأى الحشائش حوله وقد صارت قصيرة واتضحت الرؤية، كأن الغطاء كان يحميه من رؤية الكابوس على حقيقته.

والحديقة على حقيقتها كانت حديقة البشر.

ما رآه كان أرجلًا بشريَّة تخرج من الأرض كأنها زرع، العشرات منهم وربما المئات، تحيطهم من جميع الاتجاهات. منظر بشع مُقبِض لأقصى درجة. منظر لن ينساه طالما ظل حيًا.

- ... إيه ده؟

كان سؤالًا هامسًا من المقدم قدري الذي جاء ليقف بجواره، وقد أزاح القماشة مثله. لم يُجِبهُ عمر، ولم يكن بحاجة لأن يفعل، فالذي يراه أمامه جلِيٌ لا يمكنه تفسيره. فما كان منه سوى أن يرفع يديه ليأمرهم بالتراجع. وما إن فعلوا حتى فوجئوا بوجود المزيد من السيقان. قادهم في اتجاه آخر لكن النتيجة ظلت واحدة: أينما ذهبوا وجدوا أنفسهم وسط الأرجل.

- إحنا مش هنعرف نطلع من هنا سيادتك.

قالها قدري ليرمقه اللواء عمر والصدمة جليَّة على وجهه. تبادلا نظرة حائرة قبل أن ينتفضا للوراء ويرفعا سلاحهما، حين بدأت الأرجل تتحرك وترتعش كأن شحنة كهربية مرت بهم.

حركة لا إراديَّة جعلتهم يتساءلون: هل لا يزالون أحياء أسفل التربة؟

ثم سمعوا صوتًا مكتومًا، أغنية، تأتي من تحت الأرض، من القبور التي صنعوها لأنفسهم.

"القمح الليلة الليلة ليلة عيده يا رب تبارك تبارك وتزيده. يا رب تبارك

يا رب...".

***

توحيدة الآن كما قَدّر لها... وحدها، كما كانت فاطمة ومن جاء من نسلها من النساء. تسير بين أهل بَرّ الضيف، رجال ونساء وشيوخ، الكل ينظر إليها في ترقّب. كلهم ثقة بها، وثقة بأن الطريق قارَب على الانتهاء. مئات السنين من الخوف، من العزلة، من الخزي، رحلة طويلة اقتربوا من نهايتها. لقد وعدهم عبد العظيم القَطّان الخلاص من قبل، لكنها كانت خطيئة أخرى، خطيئة كادت أن تقضي على الأمل الأخير.

مرةً أخرى استقرّت توحيدة أعلى السلّم الذي لا يقود لشيء، أمسكت بالمصباح العتيق المعلق بجوارها ورفعته عاليًا. شردت للحظةٍ في الضوء الأزرق الدافئ الذي بدأ ينساب منه وتملّكها الشجن بعد أن انهالت عليها الذكريات. ذكريات لها وأخرى لم تَعِشها. تمالكت نفسها بسرعة واعتدلت لتواجه السحب التي تضخمت وتحركت فوقهم بهدوء مثير، السحب التي شعرت أنها أخذت شكلَ وجهٍ هائلٍ يبلغ من الكِبَر ما يفوق سلاسل كاملة من الجبال.

ينظر إليها... في فضول... في تعجُب من جرأتها... من إصرارها. لماذا لا تستسلم؟ كيف ترى أي أمل في الفوز على شيء هو جزء من النفس البشرية؟ بل هو أقدم جزء منها.

نظرت وراءَها، إلى سلمَى التي جاءت لتقف أمام البيت... والتقت أعينهما.

أنا وأنتِ يا ابنة أخي، أنا "ثم" أنتِ.

اعتصرت يدٌ باردةٌ قلبَ توحيدة وهي ترى الحَيرَة التي ارتسمت على قسمات وجه ابنة أخيها، قسمات حزينة تصرخ خوفًا، ثم انتبهت إلى حركة وسط الأشجار العملاقة، أفراد قوات الاقتحام الذين سُجنوا في أرض القَطّان.

لقد قارَب الوقت على النفاد وصار الضيف قابَ قوسين من الجميع.

جفلت حين اهتزّ السلم... واهتزّ البيت كله أسفل منه.

إنه يهبط إلى عالمنا.

كائن خرافي ذو أبعاد مبهمة وهيئة لا سبيل إلى استيعابها، جعلتها تشعر كأنها ذرّة رمال يقترب منها وحش أسطوري. كائن أقرب إلى وعي خام وإرادة انتصرت على الزمن، أقرب إلى رغبات سوداء، إلى فكرة، اختيار، شهوة صافية لا حدود لها.

هكذا هو الضيف.

أمر الشيخ خَلَف الخَفَر وأهل القرية كي يختبئوا داخل بيت القَطَّان، بين جدرانه المُتصدّعة وحوائطه الهشّة، بينما بدأ هو يدندن بتواشيح دينية. ظلت هي في مكانها كما وقفت جدتها قبل قرنين من الزمان، وللمرة الأولى في حياتها، تشعر توحيدة القَطَّان بالخوف.

فمن منّا بلا ضعف؟

* * *

يشعر يوسف بهم حوله: تلك الرفرفة التي لا يعرف مصدرها ولا يرى لها أجنحة، كأن العشرات من الطيور تحوم في ظلمة الغرفة التي سجن نفسه بها. تتجرأ وتقترب منه قبل أن تتراجع مبتعدةً وهي تُصدر تلك الرفرفة الخافتة. كأنهم يخاطبونه. يشيرون إليه، إلى ضعفه، يحثّونه على الاستماع لمن يسكن في البر الثاني، لهذا الذي يرى الوجه المظلم للبشر على حقيقته، يحثونه على الاستسلام. يتوقف بعدها عن التفكير، يسقط رأسه مرةً أخرى على صدره وينسدل شعره البُني الناعم فوق وجهه. يضرب الخَفَرُ بعصيّهم الأرض الطينية القاسية مرتين فتهرب تلك الأفكار ويفتح عينيه.

فقط لو كان إيهاب معه ليشدّ عضده كما كان يفعل دائمًا. يفتقده، منذ

أن اختفى صديق عمره يشعر أنه أعزل.

"يوسف".

يسمع النداء في ذهنه فينظر من شقوق الباب مرةً أخرى. إنها تلك السمراء ذات اليَشمَك الأبيض.

"جوم يابن فاطنة".

- مفيش أمل يا جدتي، كلنا ضِعاف، وأنا أضعفهم. لو الضيف شايف إننا منستحقش الحياة، لو شايف إننا منستهلش الفرصة دي، فهو عنده حق. نهاية العالم هتكون على أيدينا. فيه سبب واحد يخلّيني أحس بأمل؟ چوزيف كوتون في كل حتّة في كياني، كفاية اللي عمله، كفاية إنه خلّاكي...

بتر جملته احترامًا لها ثم استطرد:

- أنا حاسس بالعار، حاسس إني نبتة شيطاني أصلها فاسد.

"أوعاك! إنت مصري ابن مصرية".

اقترب طيف فاطمة بعد أن هتفت بهذه الجملة لتقف خلف الباب مباشرةً وتقول: "طول ما نسل چدك الكبير على وِش الدنيا الضيف هيفضل إهنا، عمره ما هيرچع البر التاني من غير الغلطة ما تتصلّح، وإنت الوحيد اللي ممكن تصلّحها. وعلشان تبجّى عارف، الضيف كان مسيره هيچي تاني، چوزيف مش أول واحد يا ولَدي".

لمحها ترمي نظرةً خاطفةً خارج البيت، ثم عادت لتنظر إليه وعينيها ملآنة خوفًا.

"وإنت مش آخر واحد بيجري فيه دمه ودمي".

رفع يوسف رأسه حين سمع الجملة الأخيرة في ذهنه وجحظت عيناه ذعرًا. ثم هتف:

- حسن!!

هنا دخل ناجي كبير الخَفَر البيت في نفس اللحظة التي اختفى فيها طيف فاطمة ليسأله:

- بتنادي يابن الجطَّان؟

أمسك يوسف السلسلة وهزّها هاتفًا:

- افتح الباب وفُكّني يا ناجي.

سأله ناجي وهو يرفع المزلاج الخشبي بحذر:

- وناوي على إيه يابن الأصول؟

حدَّق يوسف خارج الغرفة عبر فتحة باب البيت، إلى النهر الثائر. ثم ارتسم على وجهه تعبير غريب، ارتعشت شفتاه وارتعدت أوصاله وهو يقول بصوتٍ منكسر:

- هَرُوح آخد وِرْثي.

* * *

الهدوء المُقبِض.

غابة السيقان التي تخرج من الأرض في كل شبر حولهم وترتعش بين كل لحظةٍ وأخرى لتصيبهم بالفزع.

الهواء الذي يتحرك بكسل كأنه ماء أسفل قاع نهر.

الأفرع التي تمتد إليهم كأنها أذرع وحوش أسطورية تسعى للقبض عليهم.

وفوق ذلك كله لم يعُد هناك سبيل للخروج بعد أن أصبحت حديقة السيقان تتغير أبعادها لتمتد في كل اتجاه يسلكونه. يرون أنوار مركبات الاقتحام المدرعة وهي تحيط بالقرية استعدادًا لدكّها، لكنهم لا

يستطيعون الفرار من هذه المتاهة الجهنميّة.

شحذ اللواء عمر حواسّه كلها وهو يرى أفراد فرقته تكاد أعصابهم تنفلت لكنه أمرهم بالثبات. ثوانٍ طويلة مرت عليهم لا يسمعون فيها إلا معانقة الهواء للأفرع والأوراق ومناجاة الريح الباردة لأرواحهم، بينما ظلت السيقان الناتئة من الأرض تُصدر حركاتٍ وتشنُّجاتٍ مخيفة. ثم انتبه اللواء عمر إلى ضوء أزرق كضوء القمر، ضوء جعل بيت القَطّان ظاهرًا وسط الظلام.

هنا هتف قلبه باسم واحد... توحيدة.

* * *

وقفت سلمَى على عتبة باب بيت القَطّان المتهالك. تأملت ردهاته وغرفه التي تكدّس فيها أهل بر الضيف من دون حراك كأنهم جزء من لوحة مظلمة، بينما تسللت إلى مسامعها الابتهالات التي ظل الشيخ خَلَف يهمس بها. نظرت فوقها، إلى السماء التي ظهرت من خلال السقف المتصدع، وارتعدت حين لمحت السُحُب التي تشكّلت في هيئة كابوسية.

عن يمينها رأت طيف مشهد لفراش قديم غير مريح، وهناك من تجلس فوقه، تتلوّى ألمًا وهي تمسك بطنها المنتفخة. أغمضت عينيها وأشاحت بوجهها كي لا يسيطر عليها الذعر ثم تقدمت إلى الصالة. بصعوبة تمكّنت أنوار قوات المدرعات التي تسللت أشعّتها من النوافذ المتهالكة والشقوق العريضة من إنارة المكان الممتلئ بالغبار، لتخلق خيوطًا ضوئيّة سقطت على الأجساد والجدران والرُكام.

راقبها أهل البلد في صمت، فتجاهلتهم. انتبهت إلى طيف فاطمة التي تقلصت ملامحها ألمًا قبل أن تقع عيناها عليها. قاومت ألمها ونهضت من السرير مخترقة صفوف أهل البلد دون أن يشعروا بمرورها بينهم. عبرت بجوار سلمى، التي انتصب شعر جسدها كله، وصعدت السُلّم

الذي يقود للطابق الأول والسطح من بعده. قبل أن تختفي.

استجمعت سلمى شجاعتها ووضعت قدمها على أول السلم الخشبي العريض، ليُصدر صريرًا خافتًا، صرير أشبه بالأنين. بلغت الطابَق الأول واستدارت لتجُول ببصرها في عيون أهل بَرّ الضيف لتجد شيئًا عجيبًا.

هل هذا أمل الذي تراه في أعينهم؟

يُومِئُون برءُوسهم لها مشجعين.

استأنفت صعودها إلى السطح، إلى حيث تقف عمتها.

* * *

(٤)

رفع إيهاب عينيه عن سيف جدّه ليجد أمامه ممرًا وليس جدارًا مصمتًا كما كان يجد كلما بلغ نهاية السلم. ردهة طويلة يأتي من النافذة الطويلة الممتدة في جانبها الأيسر ضوءٌ أزرق دافئ. فردّ قامته العضلية ونفض التراب عن جسده والضباب عن ذهنه. وكأن ما مر به هو لحظات قليلة وليس شهور، تقدم ليخطوَ فوق أرضيّة خشبيّة وبساط طويل مترب. المكان كله قديم ويبدو مهجورًا، لكنه يشعر أنه يعرفه. يعرف تلك الأبواب الخشبية بطول الممر إلى يمينه والنوافذ التي تطلّ على النيل إلى يساره. وتلك الزخارف الفلاحي التي تزين السقف والحوائط، يعرفها جيدًا هي الأخرى. ربط نطاق السيف حول وسطه ومد بصره لنهاية الممر، حيث تنتظره درجتا سُلّم تصعدان لمساحة واسعة بنافذتين عريضتين في جانبيها. تطلّ إحداهما على النيل يسارًا والأخرى على ساحة البيت الأمامية يمينًا. بينهما باب مزدوج.

حوله أصوات كثيرة خافتة لا يمكنه التكهُّن بطبيعتها، أصوات أشبه بالرفرفة. لكنه، بطريقةٍ ما، يشعر أنه يفهم ما تقوله:

"إنه هو".

"لقد عاد".

"لا هذا ليس هو، إنه حفيده".

"لقد نجح في العبور".

"إنها ترشده، حفيدة فاطمة ترشده".

تقدم إيهاب ليعبر المَمرَّ الذي سطع الضوء الأزرق الدافئ من نوافذه، كأن هناك مصباحًا عملاقًا يطلّ من السماء على البيت، كأن القمر قد هبط لمستوى الأشجار والنوافذ ليطل عليه، يطمئنه.

إنه في بيت عبد العظيم القَطَّان، لكنه ليس أطلالًا متهالكة كما هو حاله الآن، بل كما يتذكره منذ آخر مرة كان فيها هنا، منذ ثلاثين عامًا هو في الطابق الأول، يعرف هذه الغرف التي إلى يمينه جيدًا، فقد جاء مع أبيه مرارًا إلى هنا، ويعرف إلى أين يقود هذا الباب المزدوج الرابض في نهاية الصالة.

قناة التيليجرام : @alanbyawardmsr

ارتعدت أوصالُه حين لمح تلك الخدوش السوداء التي امتدت بطول الممر، تجاهلها حتى بلغ نهايته، حيث الباب المزدوج. الغرفة الرئيسة. غرفة عبد العظيم القَطَّان.

شدَّ جسده وضمَّ قبضته بقوة على مقبض السيف. حان وقت الحقيقة.

قبل أن يتقدم للباب سمع خطواتٍ وراءه، خطوات لأقدام مخلبيَّة. أغمض عينيه وهزَّ رأسه بعد أن استنتج هُويَّة من جاء خلفه.

هل كان ساذَجًا حتى يتصور أن هذه الغرفة من دون حارس؟

الخطوات تقترب ومعها تزداد سرعة دقات قلبه. أسئلة لا حصر لعددها عصفت بتفكيره. ثم صدى صوت رفرفة غاضبة.

"تسأل مَنْ أنا؟".

جاء الصوتُ الأجَشُّ العميق كأنه يصدي بين جدران خرسانية، رغم أن إيهاب شعر أنه تكلم في ذهنه فقط، كأن تلك الرفرفة لغة يترجمها إدراكه بطريقةٍ ما استدار ببطءٍ لينظر إلى بداية الممر، هناك من يقف عند نهايته سقطت أشعَّة الضوء الأزرق الباهت على جسد حيواني ضخم لا تُرى تفاصيله بوضوح صدى صوت الرفرفة مرة أخرى ليترجمها عقل إيهاب:

"أنا الواقع الآخر، وأنت من ناداه".

تقدم الكائن الأسطوري ببطءٍ مثيرٍ قبل أن يتوقف عند أولى الدرجتين ليئنَّ الخشب أسفل مخالبه. ارتجفت أوصال إيهاب حين وقعت عيناه على المخلوق المبهم الذي يشبه كلبًا من دون رقبة، رأس تمساحيّ التكوين وأرجل طويلة بلا رُكَب. هيئة ذكّرته بتصور المصريين القدماء لأتباع الإله سوبِك. ابتلع إيهاب غُصَّة علقت بحلقه قبل أن يتقدم الكائن خطوة إليه دون أن يتوقف الضيف عن إرسال كلماته إلى رأسه:

"أنا من كان سجنه تحت لسانك، وخلاصه أعلاه".

سيطر إيهاب بصعوبة على جسده الذي بدأت دفعات الأدرينالين ترجُهُ رجًا. بصعوبةٍ بالغةٍ تمالك أعصابه وزاد من قوة قبضته على مقبض السيف قبل يبدأ بفك رباطه بحذر. استمع لأفكار الضيف بينما يقترب منه تابعه الرهيب.

"أنا آلام صبغتْ بها الدنيا".

ثم تقدم الكائن الكابوسي من إيهاب وعيناه السوداوان ثابتتان على وجهه. خفقت الأجنحة مرة أخرى وانتفض الغبار الساكن ليطفوَ في الهواء بعشوائيَّة. يقترب خادم الضيف لتخدش مخالبه الحادة الأرض الخشبية وتصنع شقًا أسودَ غائرًا.

"وشرور بالدم سَقَيتَها".

خطوة أخرى من المخلوق الرهيب جعلت إيهاب يستلّ السيف ويُشهره

في وجهه. لو كان الظلام يبتسم لرآه إيهاب الآن متجسدًا على وجه ذلك الذي بات قابَ قوسين منه. خفقت الأجنحة غير المرئيّة لتجعل عضلات إيهاب تنقبض.

"أنا كِبرُكَ وقسوتك".

تراجع إيهاب خطوةً ليصطدم بالباب المزدوج، بينما اقترب المخلوق الأسطوري منه ببطء غير عابئ بالسيف الذي وجّهه إليه.

"أنا أخطاء من كثرتها".

دون أن يصدر أي صوت، كَشَر الكائن عن أنياب سوداء وتراجع خطوةً ليقف على ساقيه الخلفيتين مستعدًا للقفز رفع إيهاب سيفه دون اقتناع حقيقي بجدواه في مجابهة هذا الذي لا يفنَى.

"... نَسِيتَها".

ثم انقض تابع الضيف على إيهاب الذي لوَّح بسيف جدّه في وجه الكائن المرعب.

هنا، ولجزءٍ من الثانية، ظهر طيف رجل أسمر ضخم ذي ذقن ملتحمة بشاربه، فارس مصري يرتدي زِيّ حرس الأيالة من القرن الثامن عشر. أمسك مقبض السيف واضعًا كفّه فوق كف حفيده، وسدَّد السيف في اتجاه هجين الكلب والتمساح. صرخ الكائن من دون صوت بعد أن اخترق السيف جسده الشيطاني.

"كيف؟؟؟؟".

صرخت بها الأجنحة وهي تخلق عاصفةً ترابيّة في المكان، بينما تراجع إيهاب بظهره لينفتح الباب خلفه ويقع على أرضية الغرفة. التفت إبراهيم إلى حفيده وأومأ برأسه مُحيّيًا قبل أن يختفي طيفه.

خارج الغرفة أخذ الكائن يتحرك يمنةً ويسارًا على قدميه الخلفيتين أمام الباب في غضبٍ عارم. يخدش بهستيريّة مرعبة في الخشب لتزداد

الخدوش السوداء الممتدة عند عتبة الباب كثافة. هناك ما يمنعه من الدخول. لعق جرح كتفه وهو يرمق إيهاب بنظرة كلها مقت، ثم نام على بطنه وتراجع زاحفًا للوراء بأطرافه الأربعة. توقف والتفت لينظر من النافذة التي تطلّ على النيل حيث كان الضوء الأزرق الدافئ ينير المشهد، قبل أن يتقهقر ليختبئ في ركنٍ مُظلِم حتى أصبح لا يظهر منه سوى أطرافه.

*****

(٥)

لماذا تركته عمته يأتي وحده؟ لماذا تجازف بكل شيء معه؟ لقد أثبت رجال عائلة القَطّان ضعفهم المرة تلو الأخرى وخذلوا الجميع، بدءًا من چوزيف حتى هو. لماذا تثق به؟

لكن بالرغم من حنقه عليها فهي مُحقّة، وهو لن يضع ابنه في هذا الاختبار وقف يوسف على شاطئ النيل حيث كان هناك قاربٌ صغيرٌ في انتظاره، احتفظ بتوازنه بصعوبة حتى صعد فوقه لم يرَ النيل هائجًا هكذا من قبل، لم يرَ به أمواجًا بهذا الارتفاع؛ كأن هناك عاصفةً تمركزت فوقه وكادت أن تُفرغه من مياهه بالرغم من كل هذا فهو يشعر أنه في مأمن منه، كأنه في بُعدٍ آخر لا يربطه بعالمنا شيء، يشعر كأن الضيف قد وجّه غضبه كله إلى هدف آخر.

إلى عمّته.

لكنه متأكد أنه يراقبه، يتابع تحرُّكاته وقراراته وكأنه فأر أدهش العلماء تصرفاته فطفقوا يراقبونه في فضول. أغمض عينيه وتحكّم في مشاعره بصعوبة ثم بدأ في التجديف باتجاه البرّ الآخر. ترفعه الأمواج العاتية لكنها لا تلبث أن تُخفضه في سلام، لا يُخيفه إلا صوت العاصفة الهادر والرعد المتكرر.

يعلم جيدًا أن الضيف يريده أن يصل إلى غايته وأنه لن يؤذيَه.

فهو يريده أن يختار.

بين حينٍ وآخر يخطف البرق بصره ويضيء السماء كلها، لتظهر السحب الهائلة التي اتخذت أشكالًا من هولها لا يريد تحديدها، تكوينات كابوسية من دخان مظلم في حجم الأجرام السماوية. نظر خلفه، إلى البر الذي تركه لتوّه، ليجد عمّته تقف فوق السلم الذي يشقّ سطح بيت القَطّان المتهدم ولا يصل إلى شيء. تُحدّق في الغرب المخيف بتعبيرٍ جامدٍ وفي يدها مصباح. أعطى ظهره للشيء الوحيد الذي ظل واضحًا بعد إبحاره: مصباح عمته الذي شقّ ضوؤه الأزرق سواد الليل الحالك، ووجّه القارب عكس اتجاهه.

سرعان ما بلغ البرَّ الثاني، عند بقعة مستترة، المكان الوحيد الخالي من الشجيرات. اقترب من الشاطئ حتى اصطدم به ثم نزل من القارب والتقط الحبل كي يربطه في أحد الأفرع. اعتدل ليأخذ نَفَسًا عميقًا. بحث عن شجاعته فلم يجدها، لكنه لم يجد بُدًّا من المُضيّ. صعد الممر الرملي الضيق بين الشجيرات المتشابكة، خطوات قليلة وجد نفسه بعدها قد تخطى حزام الشجيرات المنيع ليصبح في الصحراء. التفت ليجد أنوار المدرعات وسيارات المداهمة تسير بين الأشجار، تقتلع بعضها وتتفادى البعض الآخر.

في اتجاه بيت القَطّان.

لكنها لم تكن النور الوحيد الذي يراه، فمصباح عمته ظل مرئيًا، يهتزّ في يدها كأنه فانوس رمضان رغم المسافة الهائلة يراه، يرى وجهها الصارم وشعرها الفضيّ الثائر وسط الرياح الغاضبة والرذاذ القاسي يستمدُّ منها ما يجعله يعطيها ظهره، ويستأنف السير.

توقف بغتةً حين انصعق بألمٍ حادٍّ في كتفه، ألم من القوة أن جعل ساقيه تخذلانه تحامل على نفسه، حاول أن يقف معتدلًا، أن يستكمل طريقه لكنه لم يستطِع تحريك عضلة تكالبت عليه آلامه ومخاوفه حتى كاد أن ينهار لكنه التفت خلفه بغتةً إلى مصدرِ كلماتٍ شعر بها تسبح في

وجدانه، فهناك مَنْ تُكلمه عبر نهر ثائر وصحراء أنهكها القِدَم.

... من فوق سُلم لا يقود إلى شيء.

* * *

يوسف، يا ولدي...

أنت الآن تعلم كل شيء عن الرحلة التي أفضت بجدّك الكبير أسفل ذلك التل العالي، هذا الذي تتجه أنت إليه في هذه اللحظة، وتعلم أن جدتك... قد قتلته، وهذا قبل أن يُهلكهم جميعًا. لكنه قرار جاء بعد فوات الأوان، فقد لمح الضيف أنوار عالمنا، وما هي إلا مسألة وقت قبل أن يرسو على شاطئه.

لكنك لا تعلم أن أيًا كان ما أخرجه الخواجة من قلب الصحراء فحقيقته لا تهم في شيء لم يكن سرًا كونيًا أو قوة مطلقة أو حتى حقيقة كل شيء، بل كان ضعفه الذي فشل في التغلب عليه طُغمًا تركه من كان يعيش هنا، في الزمن السحيق، في وقتٍ كان فيه أمواجٌ، فوق هذه الرمال، في تلك البقعة التي اختارها لسبب يعلمه هو وحده، طُعم ظلّ في انتظار مَنْ ترك طمعه وكِبَره يحركانه كالدُمية.

أعلم أنك خائف يا ولدي، لا تدري إن كنت سائرًا إلى قدَرك مسلوب الإرادة أم أن هناك ما يمكنك صنعه لتغييره أعلم أنك خائفٌ منه، من أول ضيف سكن هذه الأرض، يُخبرك عقلك إنه إن كان كل ما مررت به هو مجرد نذير بقدومه، وأن كل من رأيتهم من كائناتٍ أسطورية وظلال غير مكتملة وبشر ذوي مائة وجه هم فقط امتداد له، فما بالك بما سيحدث في اللحظة التي سيطأ فيها فوق شاطئنا.

لكنك لست وحدك من يشعر بهذا الخوف، لست وحدك من يخشى لحظة الاختيار فأنا مثلك، أرتعد منها، أخشى الفشل في دوري الذي خُلقت من أجله، لحظةَ أن ألقاه وجهًا لوجه لكن ما لا تعلمه، ما أذكّر نفسي به دومًا، هو أننا أقوى منه.

فالمشاعر يا وَلَدي، تلك التي نحيا بها وتلك التي تحركه، واحدة، المشاعر التي خُلِقنا كي نقاوم بعضها ونتقبَّل البعض الآخر. ولهذا فهو يحقد علينا، ليس فقط لأننا ورثناها عنه، بل لأننا البديل الأقوى منه.

نعم نحن الأقوى؛ لأن كل شيء في هذه الدنيا يا ولدي نِسبيّ.

تدبَّر في الأمر قليـلًا.

نحن أضعف من الضيف هيئةً لكننا نتحمل همومًا ينوء تحت ثقلها الجبال، هموم تنَصَّل هو من حملها.

حياتنا بالنسبة إليه هي كلمحةٍ خاطفة، لكننا يمكننا أن نقضي أعوامها القليلة كلها سعيًا وراء أمل.

حتى هذه الدنيا، تلك التي لا نملك منها شيئًا رغم أوهام بعضنا وغرورهم، لو كانت بين أيدينا لوضعناها تحت أقدام من نحب. نقف بأجسادنا الهَشَّة بينهم وبين من يريد بهم شرًّا لنحميَهم.

قلوبنا الرقيقة، التي تهتزُّ لأيّ شيء، يجرحها أقل شيء، تخشى كل شيء، نملك من الشجاعة ما يكفي كي نقدمها هدية لهم.

أما هو فيمكنه أن يدفع الدنيا كلها ثمنًا لما يشتهيه.

نحن من يملك الآن القدرة على الاختيار.

نحن من يمكننا أن نشكِّل العالم ونغيِّر الأقدار.

لذلك فنحن أقوى.

والضعيف ليس الفقير أو الهزيل، بل من يتخاذل لحظة الاختبار.

من هذا الباب هو يأتينا. فهو يريد فرصةً أخرى، يريد فرصتنا، لعله يُصلح ما أفسد.

اذهب يا وَلَدي، سِز في خُطى جدك وقِف فوق آثار قدميه. حدِّق في

إرثك، في ضعفك الذي كشفه لك. كن له نِدًّا... واخشَ.

*****

(٦)

جفل مدير الأمن حين تحرك الكرسي القابع أمامه من تلقاء نفسه ثم أصدر بعدها أنينًا كأن هناك من جلس فوقه. تماسك بقدر ما أمكنه وهو يحدق في الفراغ الذي يعلو الكرسي. حَدسه يخبره أن هناك مَن ينظر إليه.

***

تسمَّر أفراد قوة الاقتحام في أماكنهم وسط أشجار المانجو، حين ارتعش زوج من السيقان الناتئة من بين الحشائش. حدقوا ذاهلين في ظلها الذي انفصل عن الساقين ليصير حُرًّا. ثم انقلب الظل لتصبح القدمين على الأرض واقترب منهم بخطوات سريعة. فعل آخر الشيء نفسه، ثم ثالث. مجموعة من الظلال لسيقان وجلابيب توجَّهت لأحد الجنود وحاصرته. جحظت عيناه ذعرًا ثم انكفأ بغتةً على وجهه كأن هناك من جذبه بغتةً بقوةٍ غاشمة. سحلته الظلال أرضًا. أطلق صرخة واحدة اختفى بعدها في غياهب الغيط.

تحرَّك أحد الضباط لإنقاذه لكن اللواء عمر رفع يده ليمنعه. ولم يكرر أحدهم المحاولة، فما كانوا يرونه بالنظرات ذات الرؤية الليلية يحوم حولهم لقادر على أن يجعل أشجع الرجال يبكي ذعرًا.

بأقل حركة ممكنة التفت اللواء عمر للمُقدَّم قدري وهزّ رأسه؛ بما معناه أن هذا هو إذًا سِرُّ الظلال النصفية. ثم انتبه إلى الأنوار التي تخللت أشجار المانجو في اتجاه بيت القَطّان. لقد قاربت المهلة على الانتهاء وسوف تصل فرقة المدرعات في أية لحظة. لقد اقتربت نهاية بر الضيف، ونهايتهم معها.

ثم من دون إنذار، ظهرت الأجنحة السوداء وهجمت عليهم. ظهر معها

الحمام وحاول حمايتهم لكن الأجنحة السوداء كان عددها أضعافًا. تساقطت أعداد الحمام لتذوب في الهواء قبل أن تلمس الأرض وتختفي عن آخرها. التصقت الأجنحة السوداء، إرادة الضيف التي لا تموت، برؤوس الضباط وخفقت بجنون بينما تشنَّجت أطرافهم وتقلصت ملامحهم كأنها تنتزع إرادتهم وإدراكهم... حرفيًا.

* * *

دخل اللواء راشد العنبر (د) لتتوالى ذكريات ليلة مماثلة على ذهنه، مشاهد حاول بكل الوسائل أن ينساها. ما يحدث أمامه، وما فعله أهل القرية ليلتها، كان فوق قدرته على الاستيعاب. لن يقف صامتًا الآن. لكن ما إن أغلق أفراد الأمن الباب خلفه، حتى فُتحت النوافذ المُطلّة على النيل بعنفٍ لينكسر زجاجها.

إلى أي اتجاهٍ يصوِّب سلاحه؟

إلى ذلك القَزَم المخيف الذي يسير كصورةٍ هولوغراميَّة متقطعة بين صفوف المرضى، ذلك الرجل القصير الذي تحوَّل أمام ناظريه إلى امرأة عملاقة مُعوجَّة، ثم إلى فلاح ضخم يمشي على عُكّازين ثم إلى هيئاتٍ أخرى لم يَرَها من قبل؟

أم يصوِّب سلاحه إلى النزلاء، إلى أشباه الموتى المُحدِّقين في وجهه؟

أم إلى النوافذ التي أصبح الليل خارجها معتمًا كأن هناك غطاءً ينسابُ فوق البلد ليمنع عنها ضوء النجوم، رغم اعتلائها السماء؟

عتمة تسلّلت إلى العنبر كالدخان.

التفت إلى الطبيبة التي شجَّ الحجر رأسها ليجدها كما هي، محدقة في الحجر الغارق في الدماء المُلقى على الأرض أمامها وكأنها منفصلة عن الواقع.

كذلك فعل جميع من بالعنبر.

لم يعُد هناك ضحكات جنونية.

لم يعُد هناك سُكر بلا خمر.

فقط هناك رغبة في الخلاص.

ثم جفل راشد حين سمع صوت الرفرفة.

التفت إلى القزَم المتحوِّل ليجد مكانه جناحًا أسودَ يخفق ويهتزُّ في الهواء. ثم انبثق منه جناح آخر، ثم ثالث، ورابع. سرب كامل من أجنحة شيطانية انبثقت من بعضها وملأت سماء العنبر، ثم تكتلت معًا لتصير كيانًا واحدًا عملاقًا. إعصار كابوسيّ يرجُّ الجدران بصوت خفقات ألف جناح، صوت يكاد يصمُّ الآذان. وتلك الرائحة اللعينة، رائحة الريش المبتل، خانقة، حاسمة، واضحة بكل معانيها.

هناك من يقف وسطهم، له هيئة لا يستطيع تحديدها، بل له ألف ألف هيئة، يظهر بين خفقات الأجنحة وهي تتجه إلى الطبيبة. انحنى التكوين الآدمي المستتر داخل كتلة الأجنحة ليلتقط الحجر، ثم اعتدل ورفع الحجر عاليًا استعدادًا لشَجّ رأس الطبيبة مرة أخرى. هنا علم راشد أنه لا يملك خيارًا آخر. سدَّد سلاحه إليه.

وما إن فعل حتى هدأ الهواء وخمدت خفقات الأجنحة وطافت في الهواء بهدوء. ثم توقف من يقف بينها عن الحركة. في اللحظة نفسها، التفت المرضى إلى راشد وتقدموا خطوة إليه كأنهم شخص واحد. تراجع للوراء بعد أن بدأت شجاعته تخونه. نظرت الطبيبة إليه بوجهٍ شُوِّهت ملامحه وعينين دامعتين ملآنتين بالألم والرعب، ثم من دون إنذار..

هجمت عليه الأجنحة.

***

من أسفل غطائه الثقيل، وبأعصابٍ كادت أن تنفجر وينهار بعدها في

البكاء كطفل صغير، راقب القبطان أنور كتلة الأجنحة السوداء وهي تترك مكانها على الحائط.

ثم بهدوءٍ مثيرٍ للرعب والغثيان طافت في سماء الغرفة لتستقرَّ فوق السرير.

*****

(٧)

استردَّ إيهاب أنفاسه والتفت لينظر في أنحاء الغرفة التي دخلها من دون قصد. طويلة هي، مظلمة، إلا من ذلك الضوء الأزرق الباهت الذي ظل يخفت ببطء عن النوافذ، ليحيل المكان تدريجيًا إلى مشهدٍ من حُلمٍ كئيب. في نهاية الغرفة فراش، في الجزء الأكثر ظلمة، وهناك كرسي وثير بجواره.

التفت وراءه، خارج الغرفة، ليرى أن الحيوان الأسطوري، خادم الضيف الأمين الذي كان يحرس هذه الغرفة، قد ذاب في الظلام. إلى أين ذهب؟ نهض واقفًا وانتظر كي تعتاد عيناه الإضاءة الضعيفة، ثم مسح عرقه الذي نزل رغم البرودة القاسية. تقدَّم في اتجاه السرير.

هناك شخص مُستلقٍ عليه.

ابتلع ريقه وشد جسده كي يستجمع شجاعته، ثم استأنف السير حتى بات عند طرف السرير. حدَّق في وجه الراقد طويلا. عينان خاويتان في جمجمة، هذا هو كل ما تبقَّى. ثم لمح عظام يديه المكبلتين في السرير المعدني بالأصفاد.

إنه هو، سبب عودة الضيف، سبب عنائه وعذاب زوجته وصاحب عمره.

عبد العظيم القَطَّان.

والآن، بعد أن عرف ما حدث، هل يلومه على يأسه؟ هل يعيب عليه رغبته في التخلص من لعنة جدِّه؟ هل أخطأ حين رغب في حياة

طبيعية له ولأسرته وأهل بلده؟... ولو لليلةٍ واحدة.

هذا حمل لا يقدر عليه بشر، أن يظلوا قرونًا يحمون من لا يشعر بوجودهم من الأساس... أن يظلوا بلا خطيئة.

وبلا غفران.

ثم انتبه للكرسي الوثير الذي يعطيه ظهره.

إنه يعرف هذا الكرسي جيدًا، فقد ظهر له في أكثر من مكان في شوارع مصر ورأى تلك الزجاجة البلاستيكية الفارغة الرابضة بجواره.

يظهر طرف رأس شخص يجلس عليه.

تحرك لليسار كي يراه.

نبضات قلبه تزداد كأنه يريد أن يقفز من صدره ليسبقه. يضم قبضته على سيفه بقوة ليسيطر على انفعاله، فهو يعلم مَن يجلس على هذا الكرسي.

شيئًا فشيئًا تظهر الكتف، عليه رُتبة عسكرية يزيِّنها نَسرٌ وحيد.

ترقرقت عيناه.

رأس الجالس مُلقًى على صدره، شعر متساقط، هيكل عظمي، جسد مات منذ أكثر من ربع قرن.

رغمًا عنه شهق واختنقت عَبرَاتُه.

وقف في الجانب الأيسر من السرير، ينظر للكرسي في الجانب الآخر.

يريد أن يناديَه... يناجيَه.

يجري إليه ويحتويه.

أهكذا كانت نهايتك يا أبي؟

التفت لجسد القَطَّان المقيد في السرير ويتساءل:

مِمَّ كان يحميك؟

من نفسك؟

المشهد الصامت يحكي كل شيء.

دار حول السرير.

وقف أمام أبيه. لم تقوَ ساقاه على حمله فينهار على رُكْبتيه مستندًا على السيف.

كان يريد أن يعرف.

والآن، لقد فعل.

ترك لمشاعره العنان لدقائق طويلة حتى ارتوت أرضية الغرفة بدموعه الصامتة. رفع عينيه الداميتين لوجه أبيه، مد أصابعه المرتعشة ليلمس عظام يده. ثم نظر من النافذة إلى الساحة أمام البيت، إلى شجرة جافة ينحني جذعها إجلالا للعشرات ممن دُفنوا تحتها.

هنا أدرك إيهاب الدَّمَاطِي ما يجب أن يفعله. نظر لأبيه وهمس:

"أنا مسامحك".

فتُظلم الغرفة تمامًا.

* * *

أفاق يوسف من شروده بعد أن اختفى صوت عمته ثم التفت للطريق الذي يسلكه، يشعر أنه يعرفه الآن. يستطيع أن يرى آثار نعل جلدي عتيق التصميم على رمال الصحراء، لا يدري أنه يرى أمامه آثارًا صُنعت منذ أكثر من قرنين.

ويرى آثار الدماء. خيط أذكَن يتلوَّى بين آثار النعل

دماء تجري مثلها في عروقه.

مشى فوقها ونزل التلّ ثم نظر خلفه ليجدها تختفي، لا يستمر وجود الأثر والدماء إلا ثواني قليلة. حينها علم أن فرصته الوحيدة للوصول لغايته، التي لا يعرفها حتى هذه اللحظة، هي أن يمشي في هذا الأثر قبل أن يتلاشى. زاد من سرعته حتى لا يفقده ثم تلفّت حوله خائفًا، هناك من يتبعه، لكنه لا يراه. حاول تجاهل هذا الشعور إلى أن بلغ ممرًا بين مجموعتين من الكثبان، ممر منحدر ينتهي أسفل تلّ كبير.

مع كل خطوة يأخذها في اتجاه قاع المنحدر كانت برودة الجو وقوة الرياح تزداد، كأنه يقترب من مركز إعصار ثلجي. وكذلك هذا الوجود الإثيري الذي أحاط به من كل جانب، يزداد قوةً هو الآخر.

انتفض مذعورًا حين شعر بشيء يطير فوق رأسه، فالتفت إلى الاتجاه الذي طار إليه ليجد ظلًا هائلًا يتحرك بهدوء مثير فوق التل. نظر للسماء فلم يجد سحابة تعوق ضوء القمر. تذكّر رؤيا توحيدة، إنه نفس الظل الذي طارد چوزيف.

رغم غواء الرياح ظهر صوت الرفرفة واضحًا:

"أجئت من أجل ميراثك؟".

هذا صوتٌ في ذهنه بلغةٍ لا يعلم كيف يفهمها. ارتعدت أوصاله حين أدرك أنه يكلمه.

تذكر الأثر فالتفت إليه ليجد أنه لم يعُد تحته. مدّ بصره للأمام، ناحية التلّ الذي ينتهي عنده المُنحدَر ليجد الآثار وخيط الدماء تقود إلى هناك قبل أن تختفي تمامًا. نظر غربًا ليجد تكتُّلاتٍ من السُحُب العملاقة تهبط خلف التلال. تدريجيًا ظهر فوق القمم ظلام ماديّ كالدخان يتحرك ببطء مثير، كأنه كائن خرافي هائل الحجم في بُعد آخر يختلس النظر إليه، من خلف الكثبان. بدأت ظلال لأنصاف بشر سفلية تظهر على مجموعة الكثبان حوله، تركض إليه فيزيد من سرعته مذعورًا.

نظر إلى نهاية الممرّ المُنحدِر وأدرك أن غايته تنتظره هناك. أقنع قدميه بصعوبة كي تستجيبا له وقاوم الهلع الذي بدأ يُزلزل كيانه ليبدأ في الركض. الظلال النصفية تحيط به من كل جانب، لكنها لا تهجم عليه، بل تقوده إلى مكان بعينه.

كاد قلبه أن يقف حين تحوَّل صوت الرفرفة إلى خُوارٍ هادرٍ مُدوٍّ.

"انضم إليّ، كُنْ مني، كن جزءًا من الرغبة المطلقة التي لا يضاهيها شيء. لو أردنا شيئًا أخذناه، لو كرهنا شيئًا حطمناه. هذه القيود التي تحيط بمعصمنا، سنحطمها هي الأخرى، فنحن مركز الكون ولن يكفينا الكون".

زاد يوسف من سرعته حتى كاد أن ينبطح على وجهه لكنه استعاد توازنه بسرعة، وعند نهاية المنحدر انهار على ركبتيه. بالفعل يشعر بشيء يربطه بهذا المكان. خفتت كل الأصوات في أذنه وهو يُحدِّق في تلك البقعة أسفل التل التي قادته إليها الآثار ووجَّهته إليها الظلال، أعمق جزء في المنحدر، بل أعمق مكان في هذا الرَبع من الصحراء.

بقعة تميزها صخور على شكل حرف الـ × فوق علامة +.

"والآن، أرني، ماذا ستفعل حين يقع عليك عبء الاختيار. أرني من منا... أقوى".

مد يوسف يده للرمال الباردة الرطبة، تحسَّسها برفقٍ قبل أن يبدأ الحفر. تدريجيًا بدأ خوفه يزول ولم يعُد يعبأ بظلال الأنصاف البشرية التي تزاحمت حوله.

لو كانوا مكتملين لتهامسوا عنه فيما بينهم... في حيرة.

لو كانوا أحرارًا لمزقوه وبعثروا أشلاء روحه في عوالم بعيدة.

لكنه لم يعُد يشعر بالبرد ولا بالخوف ولا العاصفة.

ولا بهذا... الذي يختلس النظر إليه من فوق التلال.

وصلت أصابعه إلى شيءٍ ذي ملمَس مختلف عن الرمال، كيس جلدي قديم. ثم من دون مقدمات بلّل رذاذ ماء وجهه. ببطءٍ رفع عينيه ليتجمد مذهولا من هول المشهد الذي رآه أمامه.

***

وقفت توحيدة، فوق سطح بيت القَطّان، نفس وقفة فاطمة منذ ما يزيد على القرنين، على آخر درجة من درجات السلم الذي لا يقود لشيء. حولها تحوم الآلاف من الأجنحة، وعي الضيف الشيطاني، ترفرف بهستيريا غاضبة، كأن هناك جيشًا لا تراه من الطيور العملاقة. تعلم أنها لغةٌ لا يفهمها بشر، لغة من جاء من أجل المعركة الأخيرة، يصرخ بها في أذنيها في غضب عارم.

يسألها كيف تجرؤ؟

يخبرها أنهم أضعف من أن يقاوموا، يخبرها أن مصيرهم جميعًا هو العدم، والعدم هو من حيث جاءُوا.

أحكمت توحيدة قبضتها حول مصباحها العتيق ذي الضوء الأزرق الملائكي والتفتت لتنظر وراءها، إلى أسفل السُلَم.

هناك لا يظهر سطح البيت، بل أماكن أخرى، من كل بقاع مصر.

رفعت المصباح عاليًا... وحرّكته في دوائر.

***

قبل أن يطلق اللواء راشد النار على مَن يرفع الحجر عاليًا وسط الأجنحة...

قبل أن يكتب بيده نهايته...

في هذه اللحظة...

سطع ضوء أزرق دافئ من النافذة، كأنه القمر.

وصدى صوت الطبول.

توقف الليل عن التمدُّد في العنبر، تفرقت الأجنحة وتسمَّر الموجودون في أماكنهم. ثم تراجع الظلام كالدخان ليخرج من النافذة ومعه الأجنحة الكابوسية. اتجه مباشرةً إلى مركز الضوء الأزرق الذي كان يدور في فلك دائري في الأفق. الضوء الذي جذب كل الأجنحة.

همس راشد وقد اختنق صوته تأثرًا:

"كل نساء الدنيا".

التفت ليُحدِّق فيمن أصابهم الضيف ليجدهم ينظرون خارج النافذة، إلى النور الأزرق الدافئ الذي يسطع على طابَقهم دون غيره، يمدُّون أذرعهم إليها.

إن عدوَّة الضيف تناديه، بعد هدنة دامت أكثر من مائتي عام.

***

بحذرٍ صعد ثروت الدَّرَج. الضوء الأزرق الملائكي يرشده. ضوء مصباح تحركه عجوز فضيَّة الشعر في دوائر.

"توحيدة؟"

ناداها فابتسمت له من وراء النور الساطع، ملاك ينظر إليه من السماء ليضيء له الطريق.

***

انتفض أنور مذعورًا وسالت منه دمعة خوف لا يوصف خفقت كتلة الأجنحة كأنها جناح واحد وتفرَّقت كالعاصفة قبل أن تخرج من الغرفة إلى الصالة ثم إلى الشرفة. حيث كان هناك ضوء قمري دافئ يدور في فَلَكِه الخاص في السماء.

انفتحت النافذة خلف مدير الأمن وطار فوق رأسه طائر غير مرئيّ، فأغمض عينيه متوقعًا الأسوأ. انتظر لحظةً حتى تأكّد من سكون مكتبه قبل أن يفتح عينيه ثم يستدير ليغلق النافذة ويتنفّس الصُعدَاء. هذا النور الأزرق الدافئ الذي سقط فوق المباني والعمارات، إنه يجتذب الظلال والأجنحة ويستدرجها غربًا.

إلى بَرّ الضيف.

***

في أرض المانجو تركت الأجنحة السوداء رءُوس أفراد الاقتحام وحلقت عاليًا في غضب. شهق اللواء عمر بقوّة وانتفض من جلسته وسط الحشائش وكذلك فعل جنوده، كأن أرواحهم قد رُدّت إليهم.

ثم التفتوا إلى مصدر الضوء الأزرق الذي ذهبت إليه الأجنحة وركضت في اتجاهه الظلال النصفية.

إلى سلم خشبي لا يقود لشيء، فوقه تقف توحيدة والقمر يدور في يديها.

***

فوق التلّ الذي يطلّ على أرض القطّان كان هناك بدوي عملاق ذو شعر فضي مجدول وتنُّورة باللونين: الأبيض والأسود.

يرقص في دوائر وحوله عاصفة من الأجنحة البيضاء.

يدور في فَلَكهِ الخاص.

صعدت سلمى السُلّم الخشبيّ لتقف خلف توحيدة ثم استدارت لتنظر لأسفل، لتصدمها مشاهد من أماكن مختلفة: مديرية الأمن، مستشفى الشرطة، بيت أنور، بيت ثروت... والمئات من الطوابق المظلمة التي ظهرت من العدم وانتهت بالسلم. التفتت إلى عمتها لتجدها تحرك المصباح في دوائر. يُرشد بنوره من سُجنَ إلى طريق الخلاص، آلاف

الوجوه تنظر إليها في امتنانٍ قبل أن تتلاشى المشاهد لتعود أطلال بيت القَطّان المظلمة.

ثم حبست أنفاسها ذَعرًا حين انتبهت إلى أتباع الضيف الذين أتوا من كل صوب، بعد أن تركوا المدن والقرى؛ ليجيبوا دعوة توحيدة. هجائن كلاب مع تماسيح تزمجر من دون صوت. ثم أحاطت بالبيت أعداد غفيرة من بشر لا يُرى من ظلالهم غير نصفهم السفلي. لا تسمع سلمى همساتهم، وهي لهذا شاكرة لربها، فهي موقنة أنها لو تمكّنت من ذلك لأصيبت ليس فقط بالذعر بل بالجنون.

تناهى إلى مسامعها صوتُ الشيخ خَلَف المبحوح، الذي صدى بين جدران البيت المتهالكة بتواشيح دينية يمدح فيها "نور الرحمن وضياه"، ثم انتبهت إلى صوت أجنحة تخفق بهيستريا فوقها كأنها عاصفة جهنميّة خرجت من أقوى الكوابيس. صرفت بصرها ببطء للسماء، إلى تلك الغيمة العملاقة التي هبطت لمستوى السلم. ذلك الطنين العالي، يكاد يُصيبها بالصَّمَم. ثم جحظت عيناها حين استطاعت تمييز آلاف الأجنحة العملاقة، واستنتجت أن الغيمة ما هي إلا تكتُّل هائل لتلك الأجنحة، ثم ازداد جحوظها من هول ما قالته توحيدة القطان بعدها.

- أيها "القديم"... لقد كنت في انتظارك.

إنها تخاطب الضيف.

* * *

سقط الضوء الأزرق على يوسف كأن القمر يضيء تلك البقعة فقط دونًا عن بقية الصحراء، مثلما يسقط نور كشّاف على بقعة معينة فوق خشبة المسرح.

أمامه تراءى مشهدٌ لبحرٍ عظيم، بحرٌ مظلمٌ إلا من شفق رمادي باهت، بحر تزأر فيه أمواج كالجبال في سعيها إلينا من بعيد، لتموت عند

الحفرة التي يقف أمامها. في وسط المياه اللانهائية رأى جزيرة صغيرة يقف عليها شخص لا يستطيع تحديد هُوِيَّته. شخص يرتدي تنُّورة باللونين: الأبيض والأسود ويدور حول نفسه ببطء شديد، ويتمايل رأسه الضخم مع شعره الرَّمادي المجدول.

"إنه إرثُك، مُدَّ يدك، هو لك، ما كنت تبحث عنه طيلة عمرك"، هكذا جاء صوت الرفرفة لينتبه إلى الحفرة أمامه.

تدريجيًا تكونت موجة عملاقة في الأفق، خلف التلال، موجة في حجم جبل هائل، واقتربت من ذلك الذي يرقص على الجزيرة وحيدًا. ثم تناهى إلى مسامع يوسف صوت طبول يأتي من هناك.

أمسك يوسف طرف الكيس الجلدي الذي ظهر في قاع الحفرة، وتدبَّر فيما سمعه، ثم نظر لمشهد البحر الذي لا يراه غيره. بالفعل كان يبحث طيلةَ عمره، لكن... ما الذي كان يبحث عنه بالضبط؟ أصوله؟ سبب وجوده؟ حياته التي أمضاها بين المخطوطات الأثرية والمباني التاريخية والمعمار القديم، ما هدفه منها؟

لماذا يبدو كل شيء مشوَّشًا الآن؟ لماذا تاهت منه المعاني؟

جاءت الموجة الهائلة وانقضَّت على الجزيرة لتبتلع راقص التَّنُّورة الذي قاوم الانجراف بصعوبة. استجمع نفسه بعد انحسار الموجة العاتية ليقف شامخًا من جديد وسط العاصفة. تلك الملامح الصارمة والنظرة العميقة التي أعطاها للبحر الغاضب قبل أن يبدأ في الدوران حول نفسه مرةً أخرى. شعر يوسف أنه يعرفه.

بدأ يحفر حول الكيس كي يحرره. لا يدري ما الذي يدفعه لهذا، ربما ذلك الألم الذي بدأ يدبُّ في كتفه. أو ربما هو ذلك الطيف الذي يراه يجلس بجواره ينظر لمحتوى الحفرة في لهفة... طيف چوزيف كوتون.

لاحت في الأفق الرمادي موجة أخرى، حجمها أضعاف التي سبقتها. رفع الشخص الذي كان يرقص وحيدًا على الجزيرة رأسه ليواجه

الموجة في تحدٍ. هنا رأى يوسف وجهه واضحًا، بعد أن انحسر شعره الرمادي الطويل عنه.

... هارون.

ويرتفع صوت الطبول.

ألمْ شنيعٌ كاد أن يخلع كتفه، ألم اختفى في نفس اللحظة التي نجح فيها في تحرير الكيس. طفق يتأمله. ما تلك القوة الرهيبة التي تجذبه إليه؟

"أحسنت"، هكذا أثنى عليه الضيف.

اقتربت الموجة الهائلة ليسقط ظلّها على الجزيرة دون أن يحيد هارون ببصره عنها أو يتوقف عن الدوران. شعره الرمادي يتطاير مع الريح وتتطاير معه تنُورته التي أصبح اللون الأسود فيها طاغيًا على الأبيض. ثم هجمت الموجة العملاقة على الجزيرة لتبتلعها وتبتلع معها هارون

أغمض يوسف عينيه وهزَّ رأسه رافضًا الموقف برُمَّته، إنه اختبار قويّ، قوي للغاية. فتح عينيه لينظر إلى مشهد البحر.

لم يعُد يسمع الطبول ولا يرى أثرًا لهارون ولا الجزيرة بأكملها، فقط البحر الرمادي الغاضب. أمواج هائلة تتلاطم تحت السماء الرمادية، لوحة مُقبِضة جعلت قلب يوسف يئنُّ.

لماذا تركتِني آتي وحدي يا توحيدة؟ لماذا جعلتِ مصير معركة هارون مع الضيف بيدي أنا؟

وفي تلك اللحظة...

- يوسف!!

لانت ملامحه والتفت لينظر وراءه ببطء، هو يعرف هذا الصوت.

- إيهاب!

هتف بها يوسف وبدأت دموعه تغلبه دون أن يقوى على النهوض من أمام الحفرة.

- مش قادر يا إيهاب.

ظهرت يد من تحت الأمواج لتتشبّث بطرف قمة التلّ. ظهر هارون من تحت الأمواج ليقف بصعوبةٍ على قمة التلّ مرةً أخرى. قبضتاه مضمومتان بقوّة. تدريـجيًا عادت الطبول تدقّ حوله.

تقدم إيهاب من يوسف قائلًا:

- يوسف... اللي جوّه الكيس ده غلطة جدك اللي لازم تصلّحها. الضيف راهن عليك وعايزك تمد إيدك وتفتح الكيس، مجرد تفتحه، ساعتها هتبقى خسرت. هنبقى خسرنا كلنا... وساعتها هيجي بكل كيانه ويحتلّ وجودنا.

صرخ يوسف في وجه إيهاب:

- ما يجي!!! ما هو كده كده هنا، بصورة أو بأخرى الضيف طول عمره معانا. طول عمره بيقرّب وبيبعد، مش ده كلام توحيدة؟

- ممكن دي تبقى المواجهة الأخيرة.

- نتخلّص إزاي من حاجة جوّانا يا إيهاب؟ نتخلص إزاي من جزء من تكوينّا؟

فوق الجزيرة، بدأ هارون في الدوران حول نفسه بسرعة متزايدة وتبدأ تنّورته في التحليق حوله. ثم تتكوّن دوّامة هائلة من المياه الدّكناء مركزها الجزيرة نفسها.

- بالمقاومة يا يوسف، كل اللي مطلوب منك إنك تقاوم بس.

- أنا تعبت يا إيهاب، تعبت.

- إنت مش لوحدك اللي تعبت، كلنا تعبنا.

يدوّي عويل الضيف الغاضب، الخُوار الهادر، ليُزلزل الصحراء.

تزداد سرعة دوران هارون بينما ترتفع أمواج الدوَّامة حول الجزيرة، حتى صار المشهد كفوَّهة بركان هائلة.

نظر يوسف للحفرة وتقلّصت ملامحه كأنه يعاني ألمًا شديدًا، قبل أن يسقط على ركبتيه ويمسك كتفه.

- علشان خاطر ابنك يا يوسف.

- إيهاب... ساعدني، حاجة رهيبة جوَّايا عايزاني آخُد الكيس.

يضع إيهاب يده على كتف يوسف برفق ليمدَّه بالقوة.

- ادفنه يا يوسف. اخفي الحفرة، وشيل العلامة. امحي خطأ جدك واثبتله إننا مش ضعاف.

يضمُّ إيهاب صديق عمره إلى صدره بكل قوة.

- ولو فشلت؟

سأله يوسف فيحدق إيهاب في عينيه محاولًا السيطرةَ على مشاعره، ثم زاد من قوة ضمَّته حتى سالت الدموع من عين يوسف.

حولهم أتباع الضيف، أنصاف الظلال... ينتظرون.

ثم صرخ إيهاب متألمًا حين شعر بوخز في جنبه. لقد أخرج يوسف سيف إبراهيم من غمده دون أن يشعر وغرزه في جانبه الأيمن. صرخ معه يوسف وهو يبكي بهستيرية:

"سامحني!! سامحني!!!".

هنا يتوقف هارون عن الدوران وينحني ليجلس بإحدى ركبتيه على الأرض. تتوقف التنُّورة عن الدوران وتعود لحجمها مستقرةً على أرض الجزيرة الرملية، وقد صارت سوداء إلا من خيوطٍ بيضاء شديدة الرُّفع.

رفع رأسه إلى الحائط المائي الذي أحاط به من كل جانب.

وتذكّر.

موقف مشابه مر به، حين كان هو نفسه أمام الاختيار.

ثم ينهار الحاجز المائي من حوله.

يزأر الضيف في الغرب منتصرًا ويظهر صوت نفير واضحًا. في الأفق ظهرت سفينة من بين الأمواج التي تصل إلى السحاب علوًا. تحامل إيهاب على ألمه وأمسك يد يوسف لينتزع النَّصل من جانبه. أدرك أن يوسف لن ينجح. سالت دموعه وهو يضمُّ صاحب عمره وأخاه الوحيد بقوة متزايدة، لكنه لم يتخلَ عن يد يوسف الممسكة بالسيف.

- قوة رهيبة يا إيهاب، إرادة رهيبة عايزاني آخُد الكيس!!!

هكذا صرخ يوسف قبل أن يصمت بغتةً، حين ارتفع صوت الرفرفة والتفت ليرى طيف چوزيف ينزل الحفرة. مدَّ يدَه الأخرى ناحية الكيس. حاول إيهاب أن يمنعه من الحركة لكن قَوَاه خارت وانهار أرضًا. نهض يوسف وهو يُحدِّق في صاحب عمره الذي ارتوت الأرض بدمائه. مشاهد شتَّى تمرُّ في ذهنه بسرعة البرق.

لعبهم معًا وهم صغار.

يحرك هارون رأسه في حركة دائريَّة. ينهض ببطء ثم يبدأ في الدوران حول نفسه مرة أخرى.

بتعبيرٍ خاوٍ، ينقل يوسف عينيه بين إيهاب وبين طيف جدِّه الذي انكبَّ على الكيس يحتضنه في سعادة هيستيريَّة. ثم يصرف بصره بعيدًا، إلى السفينة التي تتلاطمها الأمواج.

يتذكّر ليلة زفاف إيهاب على سلمَى وفرحته بهما.

تبدأ تنُّورة هارون في الدوران معه. يعود إيقاع الطبول وتبدأ الخطوط

البيضاء في الوضوح مرةً أخرى.

يتذكّر يوسف ضحكاتهم على القهوة.

يتذكر اللحظة التي جاءهم فيها اللواء راشد بسيف يسري، اللحظة التي انهار فيها إيهاب واحتواه يوسف ذو الأعوام الستة.

- لما ترجع لليلى، قولّها إني حاولت.

يقولها يوسف لإيهاب الذي كان يتحامل على نفسه ليقف.

نظر للكيس وانقضّ لينتزعه من مدفنه، من يدِ جدّه، وهو يصرخ بجنون، ويرى المياه تنساب عليه من الجوانب وتهيل عليه الرمال.

تختفي السفينة بعد أن تبتلعها الأمواج.

بصرخةٍ واحدةٍ شقت سكون الليل وعلت فوق هدير الأمواج العملاقة، يركض يوسف إلى قلب البحر الرّمادي الثائر.

يشهق البحر وتنحسر مياهه حتى تنكشف رمال الشاطئ، لكن يوسف لم يتوقف.

حتى حين يرى تلك الموجة التي تكوّنت في الأفق وكادت أن تلمس السماء، لم يتوقف.

حتى حين بلغت المياه المثلجة فوق وسطه، لم يتوقف، ولم يَبتُر صرخته.

وفي لحظة اللقاء، لوّح يوسف بذراعه للوراء، كي يقذف بالكيس في قلب الموجة العظيمة، قبل أن تحتضنه... في عناقٍ أبدي.

خلف الموجة تظهر الجزيرة، وفوقها هارون، لا يزال يدور وشعره الرمادي الثائر يُحلّق حول رأسه ثم ارتفعت تنُورته حتى صار حجمها أكبر من الصحراء تقهقرت الموجة التي ابتلعت يوسف لتذوب في البحر كأنها لم تكن يختفي المشهد كله أسفل تنورة هارون ليعود صحراء كما

كان.

لم يعبأ إيهاب، الذي رأى المشهد بصورة تناسب عقله، بأنصاف الظلال التي أفاضت من حوله مذعورةً وركضت خلف الموجة المنسحبة حتى تلاشت معها... إلى العدم. لم يعبأ إلا بالحفرة التي امتلأت عن آخرها بالمياه وابتلعت يوسف، الحفرة التي بدورها لم تعبأ بصرخاته المكلومة ومحاولاته اليائسة لإنقاذ أقرب الناس إليه، بعد زوجته.

***

أغمضت توحيدة عينيها فوق السُلم. هذا الحَدس الذي جاءها، لا يمكنها أن تُخطئه. شيءٌ ما حدث لابن أخيها.

***

شهقت سلمى بعد أن صار التنفُّس عسيرًا. سالت دموعها وهي تراقب إيهاب وهو يترنَّح في البر الثاني في طريقه إلى شاطئ النيل، من دون يوسف. ضغطت بقوة على سور السلم الخشبي دون أن تستطيع كبت دموعها، وهي تراقب زوجها وهو يتحامل على جُزحه ليصعد في القارب ويُجذِّف عائدًا.

ثم شعرت بكلماتٍ غير منطوقة، كلمات تناجي بها توحيدة الضيف، توحيدة التي كانت تقف أمامها عند نهاية السُلم، الذي لا يقود لشيء:

"أيها القديم، أيها الضيف الذي لم يدعوه أحد، هذه هديَّتُك رُدَّت إليك. عُد من حيث أتيت".

بعدها جاء الصوت، خفقة جناح واحدة بقوة ألف رعد. صرخ ظل الضيف على التلال في الصحاري والعمارات في المدن في صمت.

"كلاااااا".

ارتجفت أوصال توحيدة وأمسكت بكفِّ سلمى كي لا تجزع، لكن دون أن تتخلى عن المصباح في يدها الأخرى. أمامها تتلوَّى كتلة هائلة من

الأجنحة السوداء، كأنها سحابة بحجم جبل هبطت لتصبح في مستوى السلم.

في ثنّورة هارون التي تدور معه فوق التلّ ظهرت نقاط لامعة وسط الخطوط السوداء القليلة، كأنها... نجوم.

"لقد خسرت".

هكذا أرسلت توحيدة أفكارها إلى وعي الضيف المُتجسّد أمامها.

تقترب منها الأجنحة ببطء مثير للذعر.

"حقًا؟".

لا تعلم كيف فهمتها لكن هكذا ترجمت رفرفة الأجنحة، ساخرة، لاذعة. علقت غُصّةٌ بحلق توحيدة وهي تنظر إلى مشهد لا يفصلها عنه سوى بضع من مئات الأمتار، حيث سقط شعاع الضوء على مكان الحفرة التي دُفنَ فيها يوسف حيًا.

"هل هناك ما هو أكبر من هذا تضحية؟".

هكذا أرسلت له توحيدة ليقترب منها إعصار الأجنحة حتى كاد يلمسها، فترتجف كالريشة في مَهبّ الريح من الخوف وتسيل دموع سلمى المذعورة.

"هذا... ليس تضحية، هذا هروب، نهاية الاختبار. لقد استسلم ابن القَطّان".

هكذا أرسل الضيف أفكاره المسمومة لتجيبه توحيدة:

"إن كانت تلك نهاية، فهذه بداية".

من دون أن يتوقف هارون عن الدوران، ازداد لمعان النجوم في تنُورته حتى كادت تنير الصحراء.

استدارت توحيدة لتعطي المصباح لسلمى. مدت الأخيرة يدها لتلتقطه

في حَيرَة. ارتعشت فرائصُها حين لاحظت أن ضوء المصباح الأزرق يخفُت. ثم تماسكت بصعوبة وهي ترى ضوءًا مماثلًا يخرج من بطنها، بالأدقّ من رَحِمها.

هنا هجمت الأجنحة السوداء عليهما كأنها جناح واحد.

وضعت سلمى يدها فوق بطنها في حنانٍ وابتسمت.

من فوق تلّه، انحنى هارون لها إجلالًا وسطعت نجوم تنورته بضوء أقوى من الشمس.

ليُحيل الليل نهارًا.

احترقت الأجنحةُ السوداءُ مُطلقةً صريخًا كبكاء ألف شيطان.

... ويسكُن بعدها كل شيء.

***

انتفضت ليلى واقفةً ونظرت للبَرّ الآخر. تركت ابنها ونزلت بملابسها في النيل، وهي تصرخ: "يوسف!!!!".

استقبلت القارب في منتصف المسافة وبحثت عن زوجها وسط بكاءٍ هستيريّ.

- سامحيني يا ليلى.

حدّقت ذاهلةً في إيهاب الذي قال جملته الأخيرة بوجهٍ حاول ألّا تظهر المشاعر على قسماته. أما التعبير الذي اعتلى وجه ليلى لحظة رؤيتها السيف الغارق في الدماء، فهو شيء لا يوصف.

***

فتحت سلمى عينيها لتجد أن الضوء الذي سطع للحظاتٍ قليلةٍ من فوق التلّ المجاور لأرض القَطّان وكاد أن يصيبها بالعمى، قد تلاشى وانطفأ المصباح الذي تمسكه. اختفى هارون واختفى معه أي أثر

للأجنحة، إلا من رمادٍ سيظل عالقًا في الهواء حول بيت القَطَّان وعالقًا بأرواحهم ما ظلوا أحياء.

ثم لاحظت جذعَ شجرةٍ مائلًا في نفس المكان الذي اختفى فيه هارون، جذعٌ جاف كأنه شخص ينحني، جذعٌ لم يكن هناك من قبل.

وضع أحدهم يده الباردة على كتفها. التفتت لترى طيف امرأة ترفع اليشمك الأبيض عن وجهها؛ لتظهر ملامح تشبهها كثيرًا. ثم وضعت توحيدة يدها على كتفها الأخرى. لحظة طويلة تبادلت سلمى مع توحيدة وفاطمة نظرةً طويلة، نظرة بمائتي عام. ثم تركت فاطمة كتف سلمى وتراجعت للتلاشي في الهواء.

أعطت توحيدة إلى سلمى نظرةً أخيرة، نظرة وداع، وللمرة الأولى تسيل دموع المرأة الحديدية. احتوت سلمى مشاعرها بسرعة فابتسمت عمَّتها في فخرٍ ثم استدارت لتترك لسلمى مكانها، لكنها لم تنزل السلم الذي لا يقود لشيء... بل صعدت.

خطت توحيدة فوق درجة سُلَّم لا تراها سلمى، ولجزء من الثانية لمحت العالم الذي ذهبت إليه عمَّتها بلا عودة.

ويشيبُ شَعْرُ سلمَى في لحظات.

تذكر انك حملت رواية الميراث بر الضيف الجزء الثالث حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك

(النهاية)

*****

بعد مرور عام....

جلس القبطان أنور أمام التلفاز يتابع لقاء مدير الأمن، الذي أعلن فيه عن نجاح الدولة في السيطرة على الجائحة التي عصفت بالقطر المصري لما يقرب من العامين. ابتسم في ارتياحٍ والتفت إلى زوجته التي انحنت عليه لتهمس:

"يا أنواااار، أنا فَخُورة بيك".

أغمض عينيه من قوة صوتها لكنه فتحهما وربَّت على يدها في حنان. انتبه إلى أصوات الاحتفال العائلي البسيط الذي أقيم في بيت إيهاب، ثم صرف بصره إلى سلمى التي احتضنت رضيعتها في مشهدٍ لا تستطيع كلماتٌ أن تصفَه.

- سميتيها إيه؟

هكذا سألت زوجته لتجيبها سلمى:

- أنار.

تبادلت سوسن مع زوجها نظرة استغراب نقلها بدوره إلى اللواء راشد، الذي كان يحتسي كوبًا من العصير في ركنٍ مُنزوٍ. أمام الأخير جلس المقدم ثروت لكنه لم يكن يتابع الحوار، بل صبَّ اهتمامه كله بحسن الذي كان يقف في زاوية بعيدًا عن الأعين. جامدًا كالتمثال بين أحضان أمه، يحدق ابن الأعوام السبعة في إيهاب بمقتٍ وكُره، بينما تهمس ليلى في أذنه بوجهٍ يعلوه تعبيرٌ باردٌ قاسٍ.

كان إيهاب يتأمل السيف الملفوف في قماشة مخططة باللونين: الأبيض والأسود في ركن النَّيش. أطرق للحظة مُفكِّرًا استعاد فيها ألم جرح جانبه، ثم التفت إلى حسن وكأنه شعر بنظراته. يعلم أن حسن لن يسامحه قط، لكنه فضَّل أن يتحمَّل اللوم كله عن أن يوصم ذكرى يوسف أمام زوجته وابنه.

يعلم أيضًا السبب الذي جعل من ابنته أول طفلة تُولَد بشعر فضيّ كلون ضوء القمر. فطفلته هي أول نسل الدَّماطي والقطّان.

دق الجرس. هتف القبطان أنور من عند الباب أن هناك شخصًا يريد العقيد إيهاب.

- مين يا سيادة القبطان؟

تبادل إيهاب مع اللواء راشد والمقدم ثروت نظرةً يملؤها التساؤل بعد أن أخبرهما أنور باسم الزائر، اسم له صدًى مألوف لديهم.

هارون.

ثم تناهى إلى مسامعهم صوتٌ خافتٌ لدقٍّ طبول.

في اللحظة نفسها، اقترب حسن من الرضيعة وهمس في أذنها بصوتٍ لم تسمعه سوى سلمى. رفعت عينيها لتنظر إلى إيهاب فهاله الذعر الذي طلّ منهما.

فقد سمعته يقول لابنتها: "العبي معايا".

تـمَّت

تسأل مَنْ أنا؟ أنا الواقع الآخر، وأنت من ناداه،

أنا من كان سجنه تحت لسانك وخلاصه أعلاه،

أنا آلام صبغتْ بها الدنيا، وشرور بالدم سَقَيتَها

أنا كِبرُكَ وقسوتك، أنا أخطاء من كثرتها، نَسِيتَها